

انجازاتنا ككريستى

www.liilas.com



www.liilas.com

في النهاية يأتي الموت



الجيل
للترجمة والنشر



Agatha Christie



Death Comes
as the End

في النهاية يأتي الموت

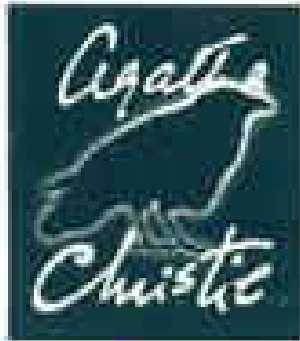
إنها مصر قبل أربعة آلاف عام... حيث
الموت يعطي المعنى للحياة.

تعود رينيسب إلى بيت أبيها على ضفاف
النيل بعد وفاة زوجها، ولكن... تحت
السطح الهادئ لتلك الحياة الأسرية
الموسرة يكمن الجشع وتمتلئ النفوس
بالطمع والكراهية.

وبعد وصول نوفريت، جارية الأب
الجديدة المتكبرة، تنفجر المشاعر
بالحقق ويبدأ القتل...

ما الذي سيأتي في النهاية؟

CHASSEY



رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة
التي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من
حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من
نسخ، وهي -هلا جدال- أشهر من كتب
قصص الجريمة في القرن العشرين وفي
سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى
معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما
طُبِع منها ألفي مليون نسخة!

٤٣

رقم هذه الرواية حسب ترتيب
صدور الروايات بالإنكليزية

www.jilas.com

الناشر وصاحب الحق الحصري
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم



الأجيال
للترجمة والنشر
JILAS Publishers

US\$ 4.00

ملاحظة المؤلفه

تجري أحداث هذه الرواية على الضفة الغربية لنهر النيل قرب مدينة طيبة في مصر قبل نحو أربعة آلاف عام. ولكن الزمان والمكان كليهما ثانويان بالنسبة للقصة؛ إذ كان يمكن لأي مكان آخر وأي زمان أن يصلحاً خلفية لها. وقد تم استجاء شخصيات القصة وعقدتها من ثلاث رسائل مصرية تعود إلى السلالة الحادية عشرة، تم اكتشافها قبل نحو عشرين عاماً على يد البعثة المصرية التي أوقدها متحف الفنون في نيويورك، وقد عُثر على هذه الرسائل في ضريح صخري مقابل الأضرحة البروفسور باتيسكونغان في «مجلة المتحف».

وربما كان مفيداً أن نوضح للقارئ أن الأوقاف التي كانت تُمنح لطقوس «كا» الدينية (وهي ممارسة يومية في الحضارة المصرية القديمة) تشبه - في جوهرها - الأموال التي كانت توقف بوصية في العصور الوسطى؛ إذ كان يوصى بممتلكات المرء لكاهن «كا» الذي يقوم - مقابل ذلك - برعاية ضريح صاحب الوصية وصيانه وتقديم القرابين في أعياد معينة خلال السنة من أجل راحة روح الفقيد.

وتعني مفردتا «الأخ» و«الأخت» في النصوص المصرية عادة كلمتي «حبيب» و«حبيبة»، وتبادلان المعنى - غالباً - مع كلمتي «الزوج» و«الزوجة»، وقد استعملنا بهذا الشكل في هذا الكتاب.

ويشكل التقويم الزراعي لمصر القديمة (المؤلف من ثلاثة فصول لكل منها أربعة أشهر ولكل شهر ثلاثون يوماً)، يشكل هذا التقويم خلفية الحياة الفلاحية، وبإضافة خمسة أيام في نهاية العام كان التقويم الرسمي المعتمد يتألف من سنة ذات ٣٦٥ يوماً. وكانت بداية هذا العام - في أول الأمر - تتطابق مع وصول مياه فيضان نهر النيل إلى مصر في الأسبوع الثالث من شهر تموز (يوليو) حسب تقويمنا، ولكن غياب «السنة الكبيرة» سبب تراجع هذه البداية عبر القرون بحيث صار يوم رأس السنة الرسمي في وقت قصتنا هذه يحل قبل نحو ستة أشهر من بدء السنة الزراعية؛ أي في كانون الثاني (يناير) بدلاً من تموز (يوليو). ولكي نعفي القارئ من مهمة العودة لحساب هذه الأشهر الستة في كل مرة فقد وضعت التواريخ الموجودة في بداية كل فصل حسب مرجعيتها بالنسبة إلى السنة الزراعية؛ وهكذا يمتد فصل الفيضان من نهاية تموز (يوليو) وحتى نهاية تشرين الثاني (نوفمبر)، ويمتد فصل الشتاء من نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) إلى نهاية آذار (مارس)، ويمتد فصل الصيف من نهاية آذار (مارس) وحتى نهاية تموز (يوليو).

الفصل الأول

الشهر الثاني من فصل الفيضان

اليوم العشرون

وقفت رينسب تنظر إلى النيل، وسمعت من بعيد صوت أخويها بحموس وسوبك يتناقشان حول السدود وحاجتها إلى تدعيم وتثبيت في بعض الأماكن.

كان صوت سوبك غالباً واثقاً كالمعتاد، وكان من عادته تأكيد وجهات نظره بثقة بسيطة. أما صوت بحموس فكان خافتاً مدمدماً في نبرته، ينم عن الشك والقلق. وقد كان بحموس في حالة قلق دائم تجاه هذا الأمر أو ذلك. كان الابن الأكبر في العائلة، وأثناء غياب والده في الولايات الشمالية كانت أمور المزارع في يده، لكنه كان بطيئاً في سلوكه، طويل الأناة والتدبير، مثلاً لتخيل الصعوبات حيث لا توجد صعوبات. وكان ضخم الجثة بطيء الحركة ولا يملك مرح سوبك وثقته.

وتذكرت أنها اعتادت على سماع أخويها هذين يتجادلان بالطريقة ذاتها منذ طفولتها المبكرة، وجعلها هذا تشعر فجأة بالأمان

لأنها في بيتها من جديد. أجل، لقد عادت إلى بيتها.

ومع ذلك فقد عادت مشاعر الثورة والألم إلى الجيشان في صدرها وهي تنظر ثانية إلى النهر الشاحب اللامع؛ فقد مات زوجها الشاب لحدي ذو الوجه الضاحك والكتفين القويين. إنه الآن مع أوزيريس في مملكة الموتى بينما تركت هي، زوجته المسجبة المخلصة، وحيدة. لقد أمضيا معاً ثمانية أعوام بعدما تزوجته وهي لما تزال طفلة، وها هي الآن تعود أرملة مع ابنته تيتي إلى بيت والدها.

وشعرت في تلك اللحظة وكأنها لم تخرج أبداً من هذا البيت. ورغبت بتلك الفكرة! سوف تنسى تلك الأعوام الثمانية المليئة بالسعادة اللاهية التي مزقتها ودمرها الألم وفقدان الأحبة. نعم؛ سنسأها وتخرجها من عطفها، ثمعود مرة أخرى رينيسب ابنة المحارب الكاهن التي لا تفكر ولا تهتم.

إن زوجها الآن محط مشغول بالملاوات ومحاط بالنعوذ. لن يكون حالي في هذا العالم بعد انيرم كي تبحر معه في النيل وهو يصطاد السمك ويضحك لشمس، بينما تستلقي هي في القارب تداعب ابنتها تيتي الصغيرة في حضنها وتستمع بحديث زوجها وضحكته.

ثم عودت رينيسب حديثها الأولى. لم أفكر في هذا... لقد انتهى إتي الآن إلى المنزل، وكل شيء - علمي - كان عليه من قبل. ربما أيضا سأكون كما كنت سابقاً. كما سيبقى الأمر، وها هي ذني تلعب مع الإخترين والأختر.

وسكنت جربتي

المحملة والمنجحة إلى النهر، ومزت بمخازن الحنطة وبيوت النعمان وعبرت الباب الرئيسي إلى فناء البيت. وجدته جميلاً كما تركته؛ البحيرة الصاعدة تحيط بها أزهار الدفلى والياسمين وتظلها شجرة الجميز، والأطفال يملؤون المكان ضجة وحركة وحيوية.

ولاحظت رينيسب أن تيتي تلعب بأسد خشبي يفتح فمه ويغلقه بحجرة خيط... إنها اللعبة التي أحبتها هي عندما كانت صغيرة.

وتفكرت مرة أخرى بامتان؛ لقد عادت إلى المنزل ولم يتغير شيء، باستثناء أن تيتي هي الطفلة الآن بينما هي إحدى الأمهات الكثيرات بين جدران هذا البيت. إذن لم يزل الإطار ثابتاً لم يتغير، وهو جوهر الأشياء.

وتدحرجت كرة يلعب بها الأطفال إلى أسفل قدميها، فتناولتها وأعطتها إليهم وهي تضحك. ومضت إلى الشرفة بأعمدها الملونة الزاهية، ثم دخلت إلى المنزل ومرت بالغرفة الرئيسية وعلى جنباتها الخس والخشخاش. ثم لوت إلى أجنحة النساء.

وناهت إلى مسامعها الأصوات القديمة المألوفة: أصوات ساتيبي وكيت تتجادلان كعادتهما. ساتيبي زوجة يحموس مستبدة وقاسية، طويلة ونشيطة وجميلة، حادة اللسان تُرعب الخدم والصبية وتتكلم بنقطة وتسلط وتجد في كل شيء عيباً، ويخافها الجميع ويحذرون لسالتها السليط. كان يحموس معجباً بزوجته الحازمة مع أنه كان ينسح لها بالسيطرة عليه بطريقة تثير غضب رينيسب. وعندما كان يتوقف صوت ساتيبي المرتفع كان يُسمع صوت كيت، زوجة سويك الموسيم المرح، وكان صوتاً هادئاً وعينياً... وهي تهرب من

خلفها. والفرج وجه حبيبت النحيل عن ابتسامه متملقة وقالت: لعلك تفكرين بأن الأمور لم تتغير كثيراً يا رينيسب. لا أعلم كيف نحتمل جميعاً لسان ساتيبي... كيت تستطيع أن ترد عليها ولكننا لسنا جميعاً محظوظين مثلها. إنني أعمل وأقدم العون هنا وهناك ولا أجد شكراً ولا تقديراً من أحد سوى والدك الذي قدم لي المأوى والطعام والثياب. لم يعد أحد يحترمني بعد أمك... وحدها كانت تقدرني وتحترمني في هذا البيت. كانت امرأة جميلة، وقد أوصتني وهي تُحضر بأن أعنتي بكم. وقد وفتت بوعدي وأذيت واجبي فخدمتكم جميعاً، ولم أكن أريد الشكر على ذلك.

وانسلت كالسمكة من تحت ذراع رينيسب ودخلت الغرفة الداخلية، حيث تدخلت في حوار الكنتين قائلة: بشأن تلك الوسائد يجب أن تعذرني يا ساتيبي. ولكنني سمعت سويك يقول...

وابتعدت رينيسب، وجاشت كراهيتها القديمة لحبيبت. عجيب كيف يكره الجميع هذه المرأة! كان ذلك بسبب صوتها النائح واستدراها المستمر للشفقة على نفسها والمتعة اللثيمة التي تجدها أحياناً في تسعير أوار المهاترات.

وفكرت رينيسب قائلة لنفسها: حسناً، ولم لا؟ إنها طريقة حبيبت بالتسرية عن نفسها، إذ لا بد أن حياتها فاحلة كنيبة، وكان صحيحاً أنها كانت تعمل بلا كلل ولا ملل وأن أحداً لم يكن ليبيدي لها أي امتنان. ليس بوسع المرء أن يكون مستناً لحبيبت، فهي تجذب الانتباه إلى مزاياها الخاصة بطريقة فيها من الإصرار والإلحاح ما يثبط استجابة كريمة يمكن أن يحس بها المرء تجاهها.

جدان ساتيبي بحمته بسيطة جادة تكررها بعدة وإصرار دون غضب أو انفعال.

وكالت كيت بسيطة عادية المظهر محدودة الأفق. تكرس حياتها لأطفالها ولا تكاد تفكر في شيء آخر. وكان سويك يحب زوجته ويتحدث إليها بحرية عن أمور كافة، وهو متأكد أنها تستمع إليه وتصرح بموافقتها أو اعتراضها ولا تتذكر أبداً من الأمور المرعبة، فإن عقلها يفكر طول الوقت في مشكلة تتعلق بالأطفال.

صرخت ساتيبي: هذا لظيع! لو أذ بحموس يمتلك بعض الشجاعة لما قبل هذا من المسؤول هنا في غياب إحموتب؟ بحموس! وبدا أنني زوجة بحموس فأنا التي يجب أن أختار الفرشات والوسائد أولاً ينبغي لهذه الخادمة...

وقاطعها صوت كيت العميق: لا، لا يا صغيرتي! لا تأكلي شعر اللعبة. هاك شيئاً أفضل... حلوى. أه! كم هو لطيف.

- أما أنت يا كيت فلا تمتعين بأي قدر من اللباقة ولا تستمعين لما أقول ولا تجيبيني... إن تصرفاتك مشينة.

- الوسادة الزرقاء كانت دائماً لي... أه، انظري إلى أنخ الصغيرة، إنها تحاول المشي.

- أنت غبية كأطفالك يا كيت. ولكنك لن تقلتي بهذه السهولة. سوف أحصل على حقوقي. وسوف ترين.

وجفلت رينيسب عندما أحست برقع أقدام خفيفة خلفها، وراودها ذلك الشعور القديم بالكراهة لدى رؤيتها لحبيبت تقف

هو والأشياء التي تقولها هي هي، كلمة كلمة، كما تركتها رئيسب قبل أن تغادر قبل ثماني سنوات.

ومن غير أن تلحظها العجوز أو الجاريتان تسلمت رئيسب - مرة أخرى - إلى المطبخ المفتوح حيث رائحة البط المشوي والحديث والضحك والتويخ وكومة من الخضار تنتظر الإعداد. ووقفت رئيسب وعيناها مغمضتان، كانت تستطيع من حيث تقف أن تسمع كل ما كان يدور في آن واحد: الأصوات العالية في المطبخ، ونبرة صوت إيزا العجوز العالية، وصوت سائبي الحاد، ونغمة كيت الهادئة العميقة والملحة... خليط من الأصوات النسائية تثرثر، وتضحك، وتتذمر، وتويخ، وتهتف...

وفجأة شعرت رئيسب أنها تختنق في هذا الصخب النسوي المتواصل. نساء مزعجات وصاخبات، وأي منزل مليء بالنساء لا يكون أبداً هادئاً أو آمناً، دائماً يتحدثن ويهتفن، ويقلن أشياء ويكتفنن بالأقوال دون الأفعال!

أين خاي الصامت الذي يجلس مراقباً في قاربه وعقله ساهم ويتنظر مع رمحه السمكة بصبر بعيداً عن كل هذه الثرثرة والقبل والقال؟

وخرجت بسرعة من المنزل مرة أخرى إلى الفناء الهادئ، فرأت سويك عائداً من الحقل ورأت يحموس من بعيد يصعد إلى الضريح، فدارت مبتعدة وسارت في الطريق المؤدي إلى المنحدر الصخري حيث ضريح ميريناث العظيم الذي يعمل أبوها كاهناً فيه بحرسه ويعتني به، وكانت كل العقارات والأرض جزءاً من وقف

وفكرت رئيسب أن حينئذ كانت واحدة من أولئك الناس الذين كتب عليهم أن يتعلقوا بالآخرين ويخلصوا لهم دون أن يكون لديهم من يتعلق بهم أو يخلص لهم!

لم تكن حينئذ جذابة فبنظر المرء إليها، وقد كانت غيبة أيضاً، تكنها تعرف دائماً ما يدور من أمور مهما تكن خفية؛ فطريقة مشيتها التي لا تسمع وأذناها الحادتان وعيناها المتنصصتان السريعتان... هذه كلها تجعل أي سر من الأسرار أمام فضولها هيناً. وكانت تحفظ بما عرفته لنفسها في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كانت تنتقل بما عرفته من شخص لآخر، تهمس تقف لتراقب من بعيد. لا بد أنها تحيا حياة رهيبة مروعة.

لم يبق أحد في المنزل إلا وتوسل إلى إمحوب في وقت من الأوقات كي يتخلص من حينئذ، لكنه رفض بإصرار. كان هو الشخص الوحيد الذي يحيها ويقف إلى جانبها، وكانت هي ترة إحسانه هذا بإخلاص بشير اشتمزاز أفراد العائلة جميعاً.

ووقفت رئيسب وهي مترددة تستمع إلى الجلبة المتزايدة التي تثيرها زوجة أخيها التي ازدادت حديثها بسبب تدخل حينئذ، ثم مشت ببطء نحو الغرفة الصغيرة مقر حديثها إيزا، كانت إيزا وحدها تتحدث مع جاريتين تقومان بخدمتها، وكانت مشغولة بأثواب من الكتان تعرضها عليها الجاريتان وهي توبخهما بطريقة محبة لطيفة.

أجل! إن الأمور كما هي. ووقفت رئيسب تستمع دون أن ينتبه إليها أحد. لقد تضاعل جسم إيزا العجوز قليلاً، لكن صولها كما

وفضت النورفة وحدثت إلى تلك العلامات التي لم تكن تفقه معناها، فابتسم حوري واتحنى وأخذ يتبع أصابعه وهو يقرأ. كانت الأحرف مصفوفة بطريقة منمقة تدل على أسلوب كاتب الرسائل المحترف في هيرا كليوبوليس.

- يقول الكاهن إمحوتب خادم ضريح النيل العظيم: أضرع إلى الله أن تكون حالكم كحال أولئك الذين يعيشون ملايين المرات. وليساعدكم هيرشاف إنه هيرا كليوبوليس وجميع الآلهة، وليسعد الإله يتاح قلوبكم. ويدعو لوائدته إيزا بالأمن والصحة والعافية ولأهل البيت جميعاً. ثم يتابع: إلى ولدي بحموس: كيف هي أحوالك؟ أهى أمنة مليئة بالصحة والعافية؟ اعمل بهمة وكذ قدر استطاعتك. ابذل أقصى جهدك واحفر الأرض بجد كي أدعو الآلهة أن تساعدك.

ضحكت رينيسب وقالت: مسكين بحموس! إنه يعمل بجد، أنا واثقة من ذلك.

نصائح أبيها جعلته يتراهى أمام عينها، بأسلوبه البهيج المزعج قليلاً وبتحذيراته وتعليماته المستمرة. وأكمل حوري: اعتم جيداً يا بني أبي. لقد سمعت أنه ليس راضياً. وتأكد أيضاً أن ساتبي تعامل حينئذ معاملة حسنة. واكتب لي عن الكتان والزيت، واحرس محصول القمح، احرس كل شيء، فإن أهملت فسأحملك المسؤولية، وإن أغرقت أرضي فويل لك ولسوبك!

فرحت رينيسب وقالت: أبي لا يزال كما هو؟ يظن أنه إذا كان غائباً فإن أي شيء لن يُنفذ بالطريقة الصحيحة.

الضريح، وعندما يغيب والدها فإن واجبات الكاهن كافة تلقى على كاهل أخيها بحموس.

وعندما وصلت رينيسب وهي تصعد المنحدر الحاد ببطء كان بحموس يتشاور مع حوري. مساعد والدها، في الغرفة الصخرية الصغيرة بجوار غرفة قرابين الضريح.

كان حوري يبسط على ركبتيه لفافة بردي ينظر فيها مع بحموس. وابتسم بحموس وحوري لرينيسب عندما وصلت وجلست بالقرب منهما في الظل. كانت تحب أخاها بحموس الرقيق العظوف المعتدل. وحوري - أيضاً - كان دائماً لطيفاً مع رينيسب الصغيرة وكان يصلح لها ألعابها أحياناً. ووجدته كما تركته: شاباً وقوراً صامئاً يتفنن أعمال الكتابة والحساب. لعله كبير قليلاً.

كان بحموس وحوري يتهايمان: ثلاثة وسبعون فنطراً من الشعير، وأبي الأصغر...

- المجموع - إذن - مئتان وثلاثون من الحنطة ومئة وعشرون من الشعير.

- أجل، لكن يبقى ثمن الخشب والمحصول الذي دفع بدلاً للزيت في بيرحا.

ونابعا حديثهما، وجلست رينيسب وقد غلبها النعاس وهي راضية بصوت الرجلين الهامسين، ثم نهض بحموس فذهب وقد سلم ورقة البردي إلى حوري. وجلست رينيسب بصمت فأمسكت ورقة البردي وسألت حوري: هذه من أبي؟ ماذا يقول؟

Chassy

علامات ورموز تدون على البردي فقط، وعندما تَنَلَف السجلات وورق البردي وتبصر المخطوطات فإن الرجال الذين يكدهون ويحصدون سوف يستمرون في عملهم لتبقى مصر.

نظرت إليه رينسب بالثبات وقالت بيظه: نعم، أدرك ماذا تعني؛ الأشياء التي نستطيع أن نراها ونلمسها ونأكلها هي الأشياء الحقيقية، أما أن نكتب: "لديّ مثنان وأربعون صاعاً من الشعير" فلا يعني شيئاً ما لم تكن تملك الشعير حقاً... ربما يسجل المرء الأكاذيب والأوهام.

ابتسم حوري لمنظر وجهها النجاد، وقالت هي فجأة: لقد أصلحت الأسد الخشبي الذي كنت ألعب به قبل مدة طويلة أتذكر؟

- نعم يا رينسب، أذكر.

- تيتي نلعب به الآن. عندما ذهب خاني إلى أوزيريس حزنّت كثيراً، ولكنني عدت لأن إلى المنزل حيث كل شيء لا يزال كما هو، وسأكون سعيدة بذلك.

- أنظنين ذلك حدث؟

نظرت إليه رينسب بجدّة: ماذا تعني يا حوري؟

- أعني أن هناك دائماً تغييراً، فمناخية أعوام هي ثمانية أعوام.

فأجاب رينسب بشفقة: لا شيء يتغير هنا.

- بل يجب أن يتغير كل شيء، فكذا هي الحياة.

وأفلتت لغافة البردي فعادت تَنَلَف على بعضها كالأسطوانة. وقالت بلطف: كل شيء لا يزال على حاله.

ثم يجيها حوري، والتقطت ورقة البردي وبدأت بكتب. وراقبت رينسب صامتة راضية، ثم قالت كأنها تحلم: جميلة هي الكتابة على ورق البردي! لماذا لا يتعلم الجميع؟

- ليس هذا ضرورياً.

- ربما، ولكن الكتابة شيء جميل.

- أنظنين ذلك يا رينسب؟ ماذا عسى أن تحقق لك الكتابة؟

فكرت رينسب لحظات ثم قالت بيظه: لا أعرف.

قال حوري: في الوقت الحاضر تحتاج المقاطعة الواسعة عدداً قليلاً من الكتاب، لكنني أتخيل أن يوماً سيأتي يكون فيه جيش من الكتبة في مصر.

- سوف يكون ذلك أمراً جيداً.

- لست واثقاً من ذلك.

- لماذا؟

- سهل جداً أن يدون الإنسان مكايل الحنطة والشعير وعدد قطعان الماشية والأغنام، ويظن الناس أن كتابة الشيء مثل حيازته، وهكذا يحترق الكتاب الفلاح الذي يحرث الحقول ويحصد الشعير ويرعى القطيع... ولكن كل تلك الحقول والمواشي هي حقيقية لا

قلقاً، أما سوبك فسوف يضحك ويكون وقحاً، وسوف يدلّ أبي أبي الذي يبلغ الآن السادسة عشرة كما كان يفعل وهو في الثامنة... ولن يختلف شيء!

وسكنت رينسب وقد تقطعت أنفاسها، فتنهّد حوري وقال بلطف: أنت لا تفهميني يا رينسب. هناك أنواع من الشر تأتي من الخارج وتهاجم بشكل عاصف يراه العالم كله، ولكن هناك نوعاً آخر من التعفن الذي ينمو في الداخل دون أن يُبدي أية علامة خارجية. ينمو ببطء يوماً بعد يوم، حتى تصبح الثمرة كلها متعفنة في النهاية وقد أتى عليها المرض تماماً.

حدقت رينسب إليه. كان يتحدث وهو شارد كأنه غالب عن الدنيا، كأنه لم يكن يتحدث إليها بل إلى نفسه. صرخت: ماذا تعني يا حوري؟ أنت تخيفني.

- وأنا خائف بالفعل.

- ماذا تعني؟ ما الشر الذي تقصده؟

نظر إليها وابتم فجأة قائلاً: انسي ما قلته يا رينسب. كنت أفكر في الأمراض التي تهاجم المحاصيل.

فتنهّدت رينسب وقالت بارتياح: أنا سعيدة. لقد ظننت... لا أعلم ماذا ظننت.

- أريد أن يبقى كل شيء على حاله.

- لكنك أنت لست رينسب التي ذهبت مع حاي.

- بل إنني هي نفسها، وإن لم أكن كذلك فسوف أكون كذلك

بسرعة.

هو حوري رأسه: لا يمكنك العودة يا رينسب، فأنحية مثل حساباتي هنا: أخذ النصف وأضيف إليه ربعاً ثم عشرًا. فيتغير المحصول باستمرار.

- ولكنني أنا رينسب لا المحصول!

- هناك أمور أضيفت إلى رينسب طوال الوقت، وهكذا فإن رينسب صارت مختلفة بمرور الوقت.

- لا، لا، أنت حوري القديم نفسه.

- ربما نظنين ذلك، ولكنه ليس صحيحاً.

- بلى، بلى. ويحموس لا يزال كما هو؟ قلق دائماً وملهف وتسيطر سائبي عليه كما كانت من قبل، وهي تنشاجر مع كيت كالمعتاد حول الفرشات والأسرة، وعندما أعود سأجدهما تضاحكان معاً كأفضل صديقتين! وحييت لا تزال تسلسل وتستمع وتذمر وتحدث عن إخلاصها وتفانيها، ولا تزال جدتي تثير الجلبة مع خادمتها بشأن ملابس الكنان. كل شيء لا زال كما كان في السابق، وسيرجع والدي إلى المنزل وتكون جلبة كبيرة، وسوف يقول: لهم لم تفعلوا ذلك؟ وكان يجب أن تفعلوا ذلك... ويحموس سيبدو

الفصل الثاني الشهر الثالث من فصل الفيضان اليوم الرابع

- ١ -

كانت ساتببي تتحدث مع يحموس وصوتها مرتفع كشأنها دائماً: يجب أن تفرض على الآخرين احترام حقوقك؛ فلن يحترموك إلا إذا فعلت ذلك، والدك يقول: "اعمل كذا ولا تعمل كذا ولم لم تعمل كذا؟" ... وأنت تسمع خانعاً ثم تقول: نعم. وأنت تعلم والآلية تعلم أنه يطلب المستحيل. إنه يعاملك كطفل في عمر آبيي وكأنك لست أهلاً للمسؤولية!

أجابها يحموس بهدوء: آبي لا يعاملني أبداً كما يعامل آبيي.

- إنه غبي في تعامله مع آبيي، ذلك الطفل المدلل لا يحسن شيئاً سوى أن يمشي متباهياً لأنه يعلم أن والده منحاز إليه. يجب أن تضع أنت وسوبك حداً لذلك.

هز يحموس كتفيه وقال: وما الفائدة؟

احمرّ وجه يحموس وقال: سأرى ما أستطيع أن أفعل. ربما،
نعم؛ ربما أتحدث معه وأطلب...

- لا تطلب، بل طائب! لا أحد سواك يمكنه أن يعتمد عليه،
يجب أن يدرك هذا، سوبك متهور، وأبي صغير.
- ربما يعتمد على حوزي.

- لكنه ليس من العائلة. إنني أفهم كيف تسير الأمور، لكنك
متردد ودليل ليس في عروقك دم، هل تفكر في أطفالنا؟ إذا لم تفكر
في زوجتك فلن نحصل على مركز مناسب قبل وفاة والدك.

- سأتكلم مع أبي عندما يعود، هذا وعد.

- وكيف ستكلم؟ كرجل أم كفتى؟

-٢-

كانت كيت تلاعب طفلتها الصغيرة التي تحاول أن تمشي
وتشجعها بكلام ضاحك وتمد لها ذراعها وتحاول أن تعرض هذا
الإنجاز أمام زوجها، لكنها أدركت فجأة أنه شارد يفكر وجيئة
الوسيمة متجمدة بعينين وتجهم، فهتفت به: سوبك، أنت لا تنظر
إلى آنخ وهي تمشي؟ اضربي والدك يا آنخ، أخبره أنه سيء.

ردّ سوبك غاضباً: لدي أشياء أخرى أكثر أهمية أفكر فيها.

قالت كيت وهي تحاول أن تخلص شعرها من يد آنخ: ماذا
يقلقك؟

٢٧

فصرخ هي: سوف بصيبي خنوعك هذا بالجنون! أنت جبان
مثل امرأة، توافق والدك على كل ما يقوله؟

- أنا أحب والدي حباً عظيماً.

- نعم، وهو يستغل ذلك. يجب أن تتصرف مثل سوبك؛ إنه
لا يخاف أحداً ولا يعتذر عن أخطائه ليست أخطائه.

- لكن والدي يثق بي أكثر من سوبك ويكلّ إلي جميع
المسؤوليات لا إلى سوبك.

- ولذلك يجب أن تكون شريكاً لأبيك بصورة قانونية، فأنت
تمثله في غيابه في المعبد والحقول وجميع الأعمال، ومع ذلك
فأنت لا تملك سلطة معترفاً بها. ينبغي الوصول إلى تسوية مناسبة؛
فأنت الآن رجل في منتصف عمرك وليس معقولاً أن تعانق كأنك
طفل سراهق.

- أبي يحب أن تكون السلطنة كلها بيده.

- يسعده أن يكون الجميع عائلة عليه ليفضل عليهم. عندما
يأتي هذه المرة يجب أن تحدّثه بصراحة وتطلب تفويضاً موثقاً ويكون
لك شأن معروف.

- لن يستمع إلي.

- يجب أن تجعله يستمع. آه لو كنت رجلاً! لو كنت مكانك
لعرفت ماذا أفعل. أشعر أحياناً أنني متزوجة حشرة ضعيفة.

٢٦

سألها باهتمام وقد لاحظت تغيراً في نبرة صوتها جعله يحس أنها حاضرة تفكر لا كما كان قد تعودها مسابرة حتى أنه كثيراً ما ينساها.

- لا تكن غيبياً. كل الأراضي والحقول والقطعان لوالدك. وحين يموت ستكون لنا، وسنستقل بحصنك، ولكن إذا تركته الآن فربما يجوع أطفالك.

نظر إليها سوبك وضحك بدهشة قائلاً: المرأة دائماً مفاجئة. إنك قوية جداً؛ لم أعرف من قبل أنك تقسمين كل هذه الأفكار!

- لا تخاصم أبناك، أرجوك؛ كن حكيماً واصبر!

- ربما تكونين محقة، هل تحيين أبي يا كيت؟

لم تُجب كيت، بل انحنت إلى الطفلة التي تحاول أن تمشي وقالت: تعالي يا حبيبي، خذي لعينك هذه... تعالي.

- ٣ -

وقف أبيي، الولد المراهق، أمام جدته مستاءً ضجراً. كانت توثقه بحدة وترميه بنظرات قاسية من عينيها اللاذعتين رغم أنهما لا يريان إلا قليلاً؛ ما هذا الذي أسمعه؟ تريد أن تفعل ولا تريد أن تفعل، وتريد أن تعني بالثيران ولا تريد أن تذهب مع يحموس؟ لا يجوز أن يختار طفل مثلك ما يريد أن يفعله وما لا يريد.

- أنا لست طفلاً ويجب أن أعامل كرجل؛ لا أحب أن أسمع أوامر من أحد ولا أقبل ذلك.

٢٩

كانت تتحدث دون اهتمام كبير، وكان السؤال بطريقة آلية لا تفكر فيها.

- أبي لا يثق بي، يصّر علي أن يفرض أوامره ولا يقبل شيئاً بخلاف فكرته، ويحموس شخصيته ضعيفة لا يقف جالبي، وهو يتخذ تعليمات أبي بدقة وجبن.

كانت كيت تهز رأسها بين فترة وأخرى بينما تداعب ابتها وتقول: نعم، هذا صحيح؛ أنت محق.

ويستمر سوبك بعد كل لحظة استراحة تؤكد فيها كيت على رأيه وتوافقته تماماً؛ يجب أن يدرك أنني شاب شجاع فيعتمد علي ويقوضني. سوف أخبره عندما يعود بأنني اعتمدت على تقديري في اختيار الكتان بدلاً من الزيت كتمن للخشب.

- نعم، إنك شجاع وذكي يا سوبك.

- فإن أصّر علي رأيه هذا فسوف أترك البيت وأذهب بعيداً. إنني متأكد من أنه سيصرخ غضباً: لقد أخبرتك أن تبادل بالزيت لا بانكتان؛ أنت صبي غبي لا تفقه شيئاً! كم يقطن عمري؟ ألا يدرك أنني رجل في عنوان الشباب وأنه كبير وهرم ويجب أن يتقاعد؟ يجب أن يدرك أن العمل يحتاج إلى مغامرة وشجاعة، فالثراء لا يتحقق بلا مخاطرة.

قالت كيت باهتمام هذه المرة: لا يا سوبك، لا تفعل ذلك.

- ماذا تعنين يا كيت؟

٢٨

Charley

- ولكن أخاك يحموس هو المسؤول.

- من يظن يحموس نفسه؟ إنه غبي بليد، وسوبك غبي أيضاً وإن كان يتفاخر دائماً بذكائه. أنا أذكى منهما، وأبي قال في رسالته بأن أختار العمل الذي أريده.

- وأنت لا تختار شيئاً.

- وأنه يجب أن أنال مزيداً من الطعام والشراب، وأنه إذا عرف أنني غضبت فلن يقبل ذلك.

- أنت ولد سيء، وسأخبر إمامك بذلك.

- اتسم أبي بمكر وقال: لا يا جدتي، لن تفعلني ذلك. واقترب منها بلاطفها قائلاً: أنا وأنت - يا جدتي - وحدنا لدينا عقل في هذه العائلة.

- هذه وقاحة.

- أبي يعتمد على رأيك؟ إنه يعرف أنك حكيمة.

- نست بحاجة لأن نخبرني بهذا.

- ضحك أبي وقال: يحسن بك أن تكوني إلى جانبي يا جدتي.

- ما هذا الحديث الذي أسمع عن الجوانب؟

- إن أخوتي غير راضين. أنت تعرفين دون شك؟ فحييت تخبرك بكل شيء. إن ساتبي تلقى بخطيها على يحموس صباح مساء

وحيشا أمسكت به، كما أن سوبك جعل نفسه أضحوكة في صفقة الأخشاب التي باعها، وهو خائف من غضب أبي عندما يكشف ذلك. هل تدركين ذلك يا جدتي؟ بعد عام أو عامين سأكون أنا الذي أرافق والدي وأشاركه عمله، وسيفعل عندها كل ما أظله منه.

- أنت؟ أصغر فتيان الأسرة؟!

- وما علاقة العمر بذلك؟ إن أبي هو الذي يمتلك السلطة وأنا الوحيد الذي يعرف كيف يتدير أمر والده!

- هذا كلام شرير.

- أنت لست غبية يا جدتي؟ فأنت تعلمين أن أبي ضعيف وإن كان لسانه سليطاً.

- سكت عن الحديث عندما لاحظ أن جدته تحولت بنظرها إلى مكان آخر، وحين نظر رأى حنييت واقفة. قالت: إذن فإمامك ضعيف! لن يكون سعيداً حين يعرف أنك تزعم هذا.

- ضحك أبي بسرعة مرتبكاً وقال: ولكنك لن تخبره يا حنييت، عزيزتي حنييت! هل تعديني؟

- رفعت صوتها المنتحب: بالطبع لن أقول شيئاً؛ لا أريد أن أكون سبياً في مشكلة، لقد كرس حياتي لكم جميعاً، أنا لا أنقل كلاماً...

- كنت أمارح جدتي، هذا كل ما في الأمر. وسأخبر والدي بما قلته ولن يصدق أنني قلته جاداً.

- تنهد يحموس وقال: إن والذي يدلله كثيراً، وهذا لا يناسب

الغنى.

- يجب أن توضح ذلك لإمحوتب.

تردد يحموس فقالت إيزا بحزم: سوف أؤيدك وأدعمك.

- سيكون كل شيء على ما يرام عندما يعود والذي، ويمكنه أن يصنع ما يراه. لا أستطيع أن أتصرف كما أريد في أثناء غيابه، فأنا مجرد مندوب ولا أملك السلطة.

- أنت ابن جيد ومخلص وعطوف، وزوج جيد؛ أحببت زوجتك وقدمت لها المنزل والطعام واللباس والزينة، ولكن عليك أن تمنعها من السيطرة.

نظر يحموس إليها واحمرز وجهه ثم دار مبتعداً.

خرج من الغرفة مسرعاً، ونظرت حبيبت إليه وقالت لإيزا: ولد وسيم وجذاب، ويتكلم بجرأة رائعة!

- إنه يتكلم بأشياء خطيرة، وأنا لا أرشح لأفكاره. يبدو أن ابني يدلله كثيراً... إيتي فنقة يا حبيبت.

- ما الذي يقلقك يا سيدتي؟ سيعود السيد قريباً وتكون الأمور كلها على ما يرام.

- وهل تكون كذلك حقاً؟

وصمتت قليلاً ثم أضافت تقول: هل حفدي يحموس في المنزل؟

- رأيته قادمًا قبل لحظات.

- أخبره أنني أريد محادثه.

غادرت حبيبت فوجدت يحموس عند الشرفة الباردة المنعشة ذات الأعمدة الجميلة، فأبلغته رسالة إيزا. وأطاع يحموس أمر جدته فوراً.

قالت إيزا بسرعة: يحموس، سوف يكون إمحوتب هنا قريباً.

أشرف وجه يحموس وقال: سيكون ذلك حدثاً ساراً.

- هل هيات له كل شيء؟ هل ازدهرت الأعمال؟

- لقد نفذت أوامر والذي كما فهمتها.

- ماذا بشأن أبيي؟

الفصل الثالث

الشهر الثالث من فصل الفيضان

اليوم الرابع عشر

- ١ -

جرت استعدادات كبيرة لاستقبال إمحوتب، تم طبع المئات من أرغفة الخبز في المطبخ، وشُوي البط، وانتشرت رائحة الشومر والثوم وتوابل مختلفة. كانت النساء يصرخن ويعطين الأوامر والخدم من الرجال كانوا يتحركون ذهاباً وإياباً، وفي كل مكان نشاط واستعداد وانتشرت همسات: "السيد، السيد، السيد قادم".

كانت رينسب تنسج إكليلاً من أزهار اللوتس والخشخاش لتهديه أباهما العائد من الشمال، وقلبها يخفق سعيداً بانفعال. لقد بدأت في الأسابيع الأخيرة تعود بالتدريج إلى حياتها القديمة واختفى ذلك الشعور بعدم الألفة وبالغربة الذي فرضته عليها - كما تظن - كلمات حوري، وعادات رينسب القديمة ويحموس وسوبك وساتيبي وكيت كما هم في السابق.

لا يؤثر في الناس! ماذا حل بها؟ ما هذه الأفكار غير المخلصة التي تراودها؟

وصل إمحوتب - بعدما انتهت الكلمات الرنانة والرسمية - إلى مرحلة التحيات الشخصية؛ فعانق ولديه والتفت أفراد العائلة حوله.

- آه يا عزيزي يحموس، مبسم دائماً! لقد كنت مجتهداً في أثناء غيابي، أنا واثق من ذلك. سوبك، ابني الجميل، ما زلت هانئ البال كما أرى. وها هو آبي... آبي الأعز، دعني أنظر إليك، ابتعد قليلاً... هكذا. لقد كبرت وأصبحت رجلاً، كم يفرح قلبي أن أمسك بك هكذا مرة أخرى! رينسنب، ابنتي العزيزة مرة أخرى في المنزل، ساتيبي، كبت، ابتاتي اللتان لهما مكانة في قلبي مثل يحموس وسوبك... وحينيت، حينيت المخلصة!

جاءت حينيت واحتضنت سيدها وهي تمسح دمع الفرح عن عينها لتجلب الانتباه.

- كم هو جميل أن أراك يا حينيت! أنت بخير؟ أنت سعيدة؟ أنت كشأنك دائماً، مخلصنة تكرسين حياتك للناس. وحوري القدير... رجل الحسابات والكتابة الذكي، هل ازدهرت الأمور؟ أنا واثق من ذلك.

وانتهت التحيات وطقوس اللقاء وخفت الأصوات، فرقع إمحوتب يده مشيراً إليهم بالصمت وتحدث بصوت مرتفع: أبناتي وبناتي، أصدقائي... إن لدي بعض الأخبار لكم. كما تعلمون، فقد كنت رجلاً وحيداً سنوات عدة، زوجتني: أم يحموس وأم آبي ذهبتا إلى أوزيريس منذ سنوات، واليوم أقدم لكم جاريتي نوفريت، ستكون

ووصل خير يقول إن إمحوتب سيضل قبل الليل، ووضِع أحد الخدم عند ضفة النهر ليخبرهم بقدوم السيد، وفجأة ارتفع صوته عالياً وواضحاً بالإشارة المتفق عليها.

أسقطت رينسنب الأزهار وركضت مع الآخرين، وأسرعوا جميعاً إلى ضفة النهر. كان يحموس وسوبك هناك مع جماعة صغيرة من القرويين الصيادين وعمال المزارع، وكلهم يصرخون بانفعال ويشيرون. أجل، كان ثمة مركب شراعي كبير قادم بسرعة عبر النهر والرياح الشمالية تدفع الشراع، ويتبعه الزورق المضيق المزدحم بالرجال والنساء.

واستطاعت رينسنب أن تميز والدها جالساً يحمول ذلوس ومعه شخص ظننه مغنياً، وازدادت الصيحات على ضفة الشراع بالسيد، والدعوات للالهة والشكر لعودته سائماً.

وبعد لحظات وصل إمحوتب إلى الشاطئ بلوح بيده ويحي عائلته ويحجب التحيات العالية بما تفضيه آداب السنوك. ونقدست رينسنب إلى الأمام ثملة بفرحة اللقاء وطوقت عنق أبيها بإكليلها من الزهور، وراودها الشعور القديم عندما كانت طفلة. لكن ظنها خاب بعدما رأت والدها؛ فلم يكن أباهما الذي في مخيلتها... إنه اليوم كهل ضئيل!

جفت رينسنب من هذه الأفكار التي تسللت إليها وحل فيها شعور بعدم الرضا. هل تقلص والدها أم خانتها ذاكرتها؟ كانت تظنه مخلوقاً رائعاً مستبداً، يحب إثارة الجلبة ويتصح للجميع وشخصيته بارزة. لكن هذا الرجل العجوز السمين يبدو مغروراً ومعتزاً بنفسه

وبدا يحموس بالشرح: الأراضي المنخفضة التي استأجرها
ناخت...

قاطعته أبوه: لا أريد تفاصيل الآن يا يحموس، يمكننا أن ننتظر
إلى الغد ونقضي ليلة مرحة، وغداً سوف أبدأ أنا وأنت وحموري
بالعمل. هيا يا أبيي يا ولدي، هيا نمشي إلى المنزل... هيه، لقد
أصبحت أطول مني!

مشى سويك متجهماً خلف والده وآبي وهمس في أذن
يحموس: الجواهر والثياب... هل سمعت؟ هذا ما ذهبت إليه أرباح
عزباتنا الشمالية، أرباحنا!

- صه! سوف يسمعك والدنا.

- ماذا لو سمع؟ أنا لا أخشاه مثلك.

وما أن وصلوا المنزل حتى صعدت حنينت مبسمة إلى غرفة
إمحوتب لكي تعد الحمام. وتخلي إمحوتب قليلاً عن حماسه
الدفاعية وقال: ما رأيك باختيارني يا حنينت؟

رغم أن إمحوتب كان عازماً على معالجة الأمور بالقوة
والسلطة، إلا أنه كان يعلم جيداً أن مجيء نوفريت سيثير عاصفة
لدى النساء خاصة في هذا المنزل، لكن حنينت امرأة مختلفة. إنها
مخلوقة فريدة في إخلاصها، ولم تخيب أمله.

- إنها جميلة، جميلة جداً، وهي تليق بسيدنا إمحوتب. ماذا
أقول أكثر من ذلك؟ ستكون زوجتك التي مانت سعيدة لأنك اخترت
مثل هذه الرفيقة كي تسعدك.

أختاً لكما يا ساتيبي وباكيت، وستقيم معكم في المنزل، وستحيونها
لأجلي. لقد جاءت معي من ممفيس وستقيم هنا معكم.

وأمسك إمحوتب بيد امرأة تقدمت لتقف بجانبه ورأسها مرتد
إلى الخلف، عيناها ضيقتان، شابة مغرورة وجميلة.

قالت رينيسب في نفسها بدهشة: "لكنها صغيرة جداً، ولعلها
أصغر مني!". ووقفت نوفريت بهدوء تعلق شفتيها ابتسامة بسيطة
ساخرة. كان حاجباها أسودين مستقيمين وجلدها نحاسياً ورموشها
طويلة وكثيفة تكاد تغطي عينيها.

حدقت الأسرة التي أخذتها المفاجأة وقد أطبق على أفرادها
الضمت، فقال إمحوتب بصوت يكاد يبلوح فيه بعض الانفعال: هيا
يا أولادنا رخيوا بنوفريت. ألا تعرفون كيف ترحبون بجارية أبيكم
عندما يحضرها إلى بيته؟

انطلقت كلمات الترحيب متلعثمة مترددة، وهتف إمحوتب
بحرح يخفي وراءه بعض القلق: نوفريت، سوف تصحبك ساتيبي
وكيت ورينيسب إلى منازل النساء. أين أمتعتك؟ هل أحضرت
الأمثلة إلى الشاطئ؟

كانت الأمثلة تُحمل من السفينة، وقال إمحوتب لنوفريت:
جواهرك وملابسك وصلت بأمان. اذهبي وتأكدي منها.

وبعد أن ابتعدت النساء التفت إمحوتب إلى أبنائه قائلاً: كيف
حال العزبة؟ هل كل شيء على ما يرام؟

Cherry

بلا توقف كأنه أمر مفروغ منه. وأنا سعيدة بعملتي، ولكن كلمة محبة وتقدير تترك أثراً جميلاً.

- سنجد بين مني ذلك دائماً، وتذكري أن هذا منزلك.

- أنت عطوف جداً يا سيدي. سيدي، إن الخدم جاهزون في الحمام مع الماء الحار، وعندما تستحم وترتدي ملابسك فإن أمك تطلب أن تذهب لروبتها.

- أمي؟ نعم، نعم، بالطبع.

بدا إمحوتب فجأة محرراً قليلاً، وحاول إخفاء ارتباكها فقال سريعاً: بالطبع، كنت أنوي ذلك. أخبري إيزا أنني آت.

-٢-

كانت إيزا ترتدي حلة حسنة من الكتان، ونظرت إلى ابنها قائلة بسخرية: مرحباً بك يا إمحوتب. إذن فقد عدت إلينا؟ ولم تعد وحيداً كما سمعت!

أجابها إمحوتب وهو ينهض بخجل: إذن فقد سمعت بالأمر؟

- نعم، فالمنزل يضح بالأخبار. الفتاة جميلة، هكذا يقولون، وصغيرة تماماً.

- إنها في التاسعة عشرة، وشكلها ليس سيئاً.

- أنظنين ذلك يا حبيبت؟

- أنا واثقة من ذلك يا سيدي. لقد بقيت في الحداد سنوات طويلة وحن الوقت كي تستمع بالحياة مرة أخرى.

- أنت كنت تعرفينها جيداً... أنا - أيضاً - شعرت أن الوقت قد حان لكي أعيش كما يجب للرجل أن يعيش، ولكن زوجات ابنائي وابتي ربما يسوؤهن الأمر!

- ولماذا يغضبون وهم عائلة عليك؟

- صحيح.

- أنت تظلمهم وتكسوهم، وأنت وراء كل مصالحتهم.

تهدد إمحوتب وقال: أجل، إنني أكيد وأعمل من أجلهم. أشك أحياناً أنهم يدركون ذلك.

أومأت حبيبت برأسها وقالت: يجب أن تذكرهم بذلك؛ فأنا خادمك المخلصة حبيبت لم أنس أبداً فضلك، ولكن أبناءك يدون أحياناً طائشين وأنانيين ويظنون أنهم مهمون، ولا يدركون أنهم ينفذون التعليمات التي تعطيها أنت.

- هذا صحيح. لقد عرفت دائماً أنك مخلوقة ذكية.

- لو أن الآخرين يظنون ذلك أيضاً!

- ما هذا؟ هل عاملك أحدهم بسوء؟

- لا، لا، أعني... إنهم لا يصدقون ذلك، إنهم يأخذون عملي

- وما شأن أولادي بي، ماذا يريدون مني؟ أليسوا عائلة علي؟
ما الذي يعطيهم الحق في التدخل والاعتراض؟

- لا شيء.

بدأ إمحوتب بالتحرك جيئة وذهاباً وهو غاضب، ثم قال:
السوا مدينين لي بالخيز الذي يأكلونه؟ ألا يعرفون ذلك؟

- أنت تحب أن تقول ذلك كثيراً يا إمحوتب.

- هذه هي الحقيقة، إنهم جميعاً يعتمدون علي، كلهم.

- آنت متأكد أن هذا مناسب؟

- أتعتين أنه ليس مناسباً أن يعيل الرجل عائلته؟

تنهدت إيزا وقالت: نذكر أنهم يعملون معك بجد وإخلاص.

- وتريدين مني تشجيعهم على الكسل والبطالة؟ من الطبيعي
أن يعملوا.

- إنهم رجال ناضجون، يحموس وسوبك على الأقل.

- سوبك لا يستطيع الحكم والتقدير. إنه يفعل كل شيء بطريقة
خاطئة، وهو وقع دائماً، وهذا ما لا أحتمله... لكن يحموس فني
مطيع طيب.

- إنه لم يعد فني منذ وقت طويل.

- ولكنني اضطر أحياناً إلى تكرار الأمر مرتين أو ثلاثاً قبل أن

ضحكت إيزا ضحكة امرأة عجوز مناكدة، وقالت: ليس هناك
أحمق من عجوز أحمق.

- أمي العزيزة، لا أفهم ما تقصدين.

أجابته إيزا بهدوء: كنت دوماً أحمق يا إمحوتب.

نهض إمحوتب بهمهم بغضب، فهو رغم ثقته بنفسه وأهيبته
فإن والدته تستطيع اختراق الدرع الذي أنشأه من احترام الذات. كان
يشعر أنه يضمحل أمامها، وكانت نظرات السخرية المشبقة من عينيها
شبه المظفأتين قادرة على إرباكه دوماً.

لم يكن لينكر أن والدته لم تبالح يوماً في حساب ما يتمتع
به من إمكانيات، ومع أنه يعلم تماماً أن تقييمه لنفسه هو التقييم
الصحيح وأن تقييم والدته لم يكن سوى خاصية لا أهمية لها من
خواص الأمومة، مع ذلك كان موقفها قادراً دوماً على إفساد إعجابه
السعيد بنفسه.

- هل من غير المؤلف أن يُحضر الرجل جارية إلى بيته؟

- بل إنه المؤلف تماماً، فالرجال عادة ما يكونون حمقى.

- لا أفهم ما وجه الحمافة في الأمر.

- سنسبب زوجتك مشكلات كثيرة في البيت، وأنت تعلم
ذلك. ستحقد عليها سانيي وكيت، وربما يغضب أبنائك ويحقدون
عليها.

الفصل الرابع الشهر الثالث من فصل الفيضان اليوم الخامس عشر

-1-

استمع إمحوتب إلى تبرير سوبك لصفقة الخشب بصمت متذير بالسوء، واحمر وجهه وجعلت العروق عند صدغيه تنبض بقوة. وعندما لاحظ سوبك تجهّم والده تلعمم وفقد ثقته بنفسه وتلاشت بسرعة اللامبالاة التي كان يتصف بها دائماً. وأخيراً قاطعه إمحوتب بفغاد صبر: أجل، أجل، نظن أنك تعرف أكثر مني ولم تنفذ تعليماتي؟ يجب أن أتابع كل شي. بنفسني!

وتنهّد ثم قال: لا أعرف ماذا سيحل بكم بدوني أيها الأولاد.

تابع سوبك بعناد: كان ثمة فرصة لتحقيق ربح أكبر. صحيح أنني خاطرت قليلاً، ولكنني لا أستطيع أن أظل دائماً حذراً تشغلني التوافه من الأمور.

- أنت متسرع يا سوبك وحكمك على الأمور خطأ دائماً.

ينفذه ويفهمه! يجب أن أفكر في كل شي. وأتابع جميع الأعمال، وظوال فترة غيابي أملني على الورق وأكتب تعليمات كاملة لابناتي لكي يستطيعوا تنفيذها... لا أستريح ولا أنام إلا قليلاً. وحين قررت أن أعود إلى المنزل وأنال بعض الراحة برزت لي مشكلة جديدة! حتى أنت يا أمي تنكرين عليّ حقني بالحصول على جارية مثل باقي الرجال وغضبت لأنني فعلت ذلك.

- لست غاضبة، بل إن ذلك سيسليني! سوف أمتع كثيراً بمراقبة ما سيحدث من طرائف. ولكنني أقول إنه من الأفضل عندما تذهب إلى الشمال مرة أخرى أن تأخذ الفتاة معك.

- إن مكانها هنا، في منزلي، والويل لمن يجروء على إساءة معاملتها!

- المسألة ليست سوء معاملة، ولكن تذكر أن من السهل إشعال النار في الأعشاب الجافة. لقد قيل عن النساء: «إن المكان الذي يضمهن ليس مكاناً جيداً»!

صمتت إيزا قليلاً ثم قالت بتأن: إن نوفرنت جميلة، ولكن تذكر ما يلي: إن أوصال النساء الجميلة تجعل من الرجال حمقى، وعجياً كيف يتحولون في طرفة عين إلى أحجار عقيق فقدت لونها.

ثم أصبح صوتها أكثر عمقاً وهي تقبض: في النهاية يأتي الموت، كهينة الحلم، قليلاً، تافهاً!

كانت نبرة إمحوتب تنذر بالسوء، فهمس سوبك وقد انكمش:
نعم، نعم؛ ليس لدي ما أقوله الآن.

- إذن فإذهب للاعتناء بالقطيع، فلا مجال للكسل.

استدار سوبك وابتعد غاضباً ونوفريت تراقبه بسخرية، ثم ضحكت بصوت مسموع. وسمع سوبك ضحكتها فارتفع الدم في وجهه، وتقدم نحوها غاضباً فكفت عن الضحك وجعلت تنظر إليه باحتقار وعيناها شبه مغمضتين.

همس سوبك بشيء ما وتابع السير في اتجاهه السابق. وضحكت نوفريت مرة أخرى، ثم مشت ببطء إلى إمحوتب الذي كان يتحدث مع يحموس ويقول له: كيف تدع سوبك يتصرف بغباء؟ كان ينبغي أن تمنعه. ألا تعلم بعد مرور كل هذا الوقت أنه لا يستطيع التصرف بحكمة في البيع والشراء؟ يظن أن كل شيء سوف ينتهي كما يريد.

قال يحموس يعتذر: إنك لا تدرك الصعاب التي أواجهها يا والدي. لقد قلت لي بأن أعهد إلى سوبك ببيع الخشب، فكان من الضروري أن أدعه يقرر بنفسه.

- يقرر؟ إنه لا يستطيع الحكم والتقدير، يجب أن يفعل ما أملي عليه، وعليك أنت أن تتأكد أنه ينفذ ذلك.

احمرّ وجه يحموس خجلاً وقال: أنا؟ أية سلطة لدي؟

- أية سلطة؟ السلطة التي أمنحك إياها.

- وهل أتاحت لي الفرصة لتجربة حكمي على الأمور؟ يجب أن أتال مثل هذه الفرصة.

- لقد فعلت ذلك هذه المرة وخالفت أوامري الواضحة.

- أوامرك؟ وهل أنا مضطر لتقبل الأوامر؟ إنني رجل ناضج.

صرخ إمحوتب وقد فقد أعصابه: من يطعمك ويكسوك؟ من يفكر في المستقبل؟ من يفكر دائماً في مصلحتك ومصلحة الجميع؟ حين كان مستوى النهر منخفضاً وكنا مهددين بالمجاعة ألم أتدبر الأمر وأرسلت الطعام إليكم في الجنوب؟ إنك محظوظ لأن لديك مثل هذا الأب. من يفكر في كل شيء؟ وماذا أطلب في المقابل؟ فقط أن تعملوا بجد، أن تبدلوا أقصى جهودكم وتطيعوا التعليمات التي أرسلها إليكم.

صرخ سوبك: أجل، يجب أن نعمل كالعبيد حتى نستطيع أن نشترى الذهب والجواهر لجاريتك!

تقدم إمحوتب نحوه صائحاً وهو يستشيط غضباً: أنت فتى وقع! كيف تجرؤ أن تتحدث مع والدك بهذه الطريقة؟ كن حذراً وإلا قلت بأن هذا لم يعد منزلك بعد الآن ولتذهب إلى مكان آخر.

- وإذا لم تحذر أنت فسأذهب فعلاً... إن لدي أفكاراً حسنة تأتي إلينا بالثروة والثراء إذا لم أكن مقيداً بالحذر التافه وأمتع دائماً من التصرف كما أريد.

- هل انتهيت؟

غضبت وقالت: كنت أعرف أنك ستقول هذا لأنك تقوله دائماً.
الحقيقة أنك تخاف والدك! أنت جبان كالنعجة، أنت ضعيف أمامه
ولن تقف في وجهه. ألا تذكر ما وعدتني؟ إنني أصلح لأن أكون
رجلاً أكثر منك. ألم تقل بأنك ستحدث مع والدك في هذا الشأن
فور مجيئه؟ فما الذي حدث؟

ثم سكنت ساتيبي لتلتقط أنفاسها لا لأنها قد فرغت، لكن
يحموس قاطعها قائلاً بهدوء: أنت مخطئة يا ساتيبي! لقد بدأت في
الحديث ولكننا قوطعنا.

- قوطعتما؟ من فعل ذلك؟

- نوفريت.

- نوفريت؟ تلك المرأة لا ينبغي لوالدك أن يدع جاريته تقاطعه
عندما يتحدث في شؤون العمل مع ابنه الكبير. لا يحق للنساء أن
يشغلن أنفسهن بالعمل.

تعني يحموس أن تنقيد ساتيبي بهذه الوصية التي قالتها بعفوية،
ولكن فرصة الحديث لم تتح له واندفعت زوجته تقول: كان يجب
على والدك أن يوضح لها ذلك فوراً.

- والذي لم يُظهر علامات الاستياء.

- هذا مخجل ومشين. والدك يدعها تقول وتتصرف كما تريد
كأنها سحرته!

تفكر يحموس وقال: إنها في غاية الجمال.

- ولكن ليس لدي سلطة قانونية حقاً، لو أنني كنت شريكك
بشكل قانوني...

سكت حين جاءت نوفريت. كانت تتنأب وتعبث بوشاح أحمر
وقالت: ألا تأتي إلى المقصورة الصغيرة قرب البحيرة يا إمحوتب؟
الجو البارد والفاكهة تنتظرك. لا شك أنك فرغت من إملاء أوامرك
الآن.

- سأحضر بعد قليل يا نوفريت، بعد قليل.

قالت نوفريت بصوت ناعم رقيق: تعال الآن... أريد أن تأتي

الآن.

بدا إمحوتب سعيداً ومرتبكاً قليلاً، وتحدث يحموس بسرعة
فسبق أباه: دعنا نبحث هذا الأمر أولاً؛ إنه مهم. أريد أن أسألك...

تحدثت نوفريت مباشرة إلى إمحوتب وقد أدارت ظهرها
ليحموس: ألا تستطيع فعل ما تريد في منزلك؟

فقال إمحوتب ليحموس بحدة: في وقت آخر يا بني، في
وقت آخر.

مضى مع نوفريت ووقف يحموس على الشرفة ينظر إليهما،
وخرجت ساتيبي من المنزل فانضمت إليه وسألته بحماسة ولهفة:
حسناً، هل تحدثت إليه؟ ماذا قال؟

تهدد يحموس قائلاً: لا تستعجلي يا ساتيبي، لم يكن الوقت
ملائماً.

Chasey

سويك الثلاثة، وأصغرهم طفلة تحبو، وتيتي، ابنة رئيسب الهادئة
الوسيمة ذات الأعوام الأربعة.

ضحكوا ولعبوا وتراموا بالكرات، وبين الحين والآخر كان
الشجار ينشب وتبرز صيحة طفل غاضبة عالية وحادة. وهمس
إمحوتب الذي كان يأكل الفاكهة ونوفريت بجانبه: كم يحب الأطفال
اللعب قريباً من الماء! لقد أحبوا دوماً كما أذكر. ولكن يا للضجة
التي يصدرونها!

قالت نوفريت بسرعة: نعم، مع أن الجو هادئ جداً هنا. لم لا
تطلب منهم أن يذهبوا بعيداً عندما تكون هنا؟ فعندما يحضر السيد
إلى المنزل يجب أن يجد الاحترام الملائم. ألا توافق؟ وعندما
يستريح يجب أن يقر له الجو الملائم.

تردد إمحوتب، فقد كانت الفكرة جديدة له، لكنها ممتعة.
قال متلعثماً: حسناً... إنهم لا يزعجونني، لقد اعتادوا على اللعب
هنا متى يشاؤون.

قالت نوفريت بسرعة: عندما تكون بعيداً، نعم، ولكنني أظن
يا إمحوتب أن على أهل البيت تقديم المزيد من الاحترام الذي يكافئ
أهميتك وما تبذله من أجلهم، إنك طيب رقيق.

تهدد إمحوتب بلطف وقال: هذه نقطة ضعفي دائماً... إنني لا
أصر على المظاهر الخارجية.

-ولذلك تستغل هاتان المرأتان، زوجتا ابنيك، عطفك. سأذهب
لأخبر كيت أن تأخذ الأولاد بعيداً لتجد السلام والاطمئنان هنا.

صاحت ساتبيي بحدة: آه! تبدو كذلك، لكنها سيئة السلوك
والثرابية، فهي لا تحترم منا أحداً.

- لعلك تعاملينها بفظاظة.

- أنا وكيت تعاملها بلباقة وأدب. آه، لن نبقى لها ما تذهب
لنشكو منه لأبيك. بوسعنا انتظار فرصتنا أنا وكيت.

نظر بحموس إليها بحدة وقال: ماذا تعنين؟ تنتظرين
فرصتك؟

ضحكت ساتبيي ضحكة ذات معنى وهي تتعد: لن تفهم
قصدي... لدينا نحن النساء أسلحتنا ووسائلنا الخاصة، من الأفضل
لنوفريت أن تخفف من كبريائها، فما الذي تساويه حياة امرأة في
النهاية؟ حياة تمضي في مؤخرة المنزل بين النساء الأخريات.

كان في نبرة كلامها مغزى خاص، وأضافت: والدك لن يبقى
هنا دائماً؛ سوف يسافر ثانية إلى عزباته في الشمال، وعندها...
سترى.

- ساتبيي!

ضحكت ساتبيي ضحكة قوية عالية وعادت إلى البيت.

-٢-

كان الأطفال يركضون ويلعبون حول البحيرة: ابنا بحموس،
وهما طفلان وسيمان يشبهان ساتبيي أكثر مما يشبهان والدهما، وأبناء

- أنت ذكية وطيبة يا نوفریت ونحرصین علی راحتی.

همست نوفریت: "سعادتك هي سعادتي"، ثم نهضت وذهبت إلى الساحة.

كانت كیت راكعة قرب الماء تلعب بلعبة على شكل سفينة، وكانت تساعد ابنها الثاني في تسييرها على الماء. قالت نوفریت بجفاء: هل يمكنك أخذ الأولاد بعيداً يا كیت؟

حدقت إليها كیت وهي تحاول أن تفهم كلامها وقالت: بعيداً؟ ماذا تعنين؟ هنا يلعبون دائماً.

- ليس الآن، فإمحوّتب يريد الهدوء وأولادك مزعجون.

اندفعت الدماء إلى وجه كیت وقال: يجب أن تصلحي طريقة كلامك يا نوفریت. إمحوّتب يحب أن يرى أحفاده يلعبون هنا، لقد قال ذلك.

- ليس اليوم، لقد أرسلني لكي أخبرك أن تأخذي أولئك الصغار المزعجين إلى المنزل حتى يستطيع الجلوس معي بهدوء.

- معك؟

سكنت كیت فجأة، لم تقل ما كانت تريد، ثم نهضت ومشت حيث كان إمحوّتب مستلقياً وتبعها نوفریت.

- تقول جاريتك إن علي أن أخذ أطفالي بعيداً من هنا، لماذا؟ ما الخطأ الذي ارتكبه؟ لماذا يجب أن يتعدوا؟

قالت لها نوفریت بلطف: أظن أن رغبة سيد المنزل تكفي.

قال إمحوّتب بغضب: نعم، نعم، ولماذا يجب أن أقدم أسباباً؟ من صاحب هذا المنزل؟

- أظن أنها هي التي تريد إبعادهم.

التفتت كیت ونظرت إلى نوفریت من الأعلى إلى الأسفل. وقال إمحوّتب: نوفریت تفكر في راحتي وسعادي، لا أحد غيرها في هذا المنزل يفكر في ذلك إلا حبيبت المسكينة.

- إذن فعلى الأطفال ألا يلعبوا هنا بعد الآن؟

- نعم، عندما أكون هنا للاستراحة.

اشتعلت كیت غضباً وقالت: لماذا تسمح لهذه المرأة بتخريضك ضد أبنائك؟ لماذا تتدخل في شؤون المنزل وفي عاداته؟

بدأ إمحوّتب بصرخ فجأة. كان يشعر بالحاجة للدفاع عن نفسه: أنا الذي يقرر ماذا يجب فعله هنا لا أنت. إنكم تحاولون أن تفعلوا ما تريدون وترتبوا الأمور كلها كما يناسبكم، وحين آتي أنا، سيد المنزل، إلى المنزل فلا أحد يهتم بي. ولكنني السيد هنا، دعوني أخبركم بذلك. إنني أخطط وأعمل دائماً لمصلحتكم، فهل أحصل على العرفان؟ هل تُحترَم رغباتي؟ لا. أولاً: سويك كان وقحاً ولم يحترمني، والآن أنت يا كیت تحاولين إرهابي. لماذا أنفق عليكم جميعاً؟ انسهوا وإلا توقفت عن الإنفاق عليكم. سويك يتحدث عن الرحيل، إذن فدعيه يذهب ويأخذك أنت وأطفالك معه.

الفصل الخامس الشهر الخامس من فصل الفيضان اليوم الخامس

-١-

تنهد إمحوتب برضا وارتياح بعد أن انتهى من واجباته الرسمية ككاهن للمقبرة، وقد تمت مراعاة الطقوس حتى أدق التفاصيل؛ فقد كان إمحوتب رجلاً حيّ الضمير بكل معنى الكلمة، وكان قد صبّ شراب التضحية وأحرق البخور وقدم القرابين المعتادة من الطعام والشراب.

جلس في الغرفة الصخرية الباردة المجاورة مع حوري تاركاً شخصية الكاهن ليصبح إمحوتب مَلَأَك الأراضي ورجل الأعمال. وبحث الرجلان معاً شؤون العمل والأسعار السائدة والأرباح الناتجة من المحاصيل والقطعان والخشب، وبعد نحو نصف ساعة أوما إمحوتب برأسه راضياً وقال: إنك ناجح في إدارة العمل.

ابتسم الرجل الآخر وقال: يجب أن أكون كذلك يا إمحوتب؛ إنني المسؤول عن أعمالك منذ سنوات عدة.

وقفت كيت لحظة ساكنة. لم يكن على وجهها الرزين الصافي أي تعبير، ثم قالت بصوت لا عاطفة فيه: سوف آخذ الأطفال إلى المنزل.

ومشت بضع خطوات ثم توقفت قرب نوفريت فقالت بصوت خفيض: هذا فعلك يا نوفريت، ولن أنسى ذلك. نعم؛ لن أنساه.

* * *

- سلوكه جيد لكنه جبان، ختوع يخضع للجميع. أتدنى لو
كان آبي أكبر قليلاً!

قال حوري بسرعة: من الخطورة أن تسلم السلطة لفتى
صغير.

- صحيح، صحيح. حسناً حوري، سأفكر فيما قلته. يحموس
ابن جيد ومطيع بالتأكيد.

قال حوري بركة: أظن أنك سوف تكون حكيماً.

نظر إمحوتب إليه بفضول وقال: فيم تفكر يا حوري؟

- لقد قلت الآن إن من الخطورة تسليم القوة والسلطة للرجل
عندما يكون صغيراً، ولكن من الخطر أيضاً أن تسلمه إياها متأخراً.

- أتعتني أنه أصبح معتاداً على إطاعة الأوامر لا على إعطائها؟
حسناً، ربما كان في ذلك بعض الحكمة.

وتنهذ إمحوتب ثم أكمل قائلاً: إنها مهمة صعبة أن تفود عائلة
مثل هذه! ساتيبي قوية تصعب السيطرة عليها، وكبت كثيرة ومتجهمة.
لقد طلبت منهم أن يعاملوا نوفريرت معاملة جيدة، يمكنني القول...

قاطعته عبد قادم يلهث فسأله: ما الأمر؟

- سيدي، لقد وصل مركب عليه أحد الكُتاب ويدعى كاميني،
وهو يحمل رسالة من ممفيس.

نهض إمحوتب بعجلة وقال: مزيد من المتاعب... أنا متأكد من

- وأنت مخلص أيضاً. هناك أمر أريد مناقشته معك يتعلق
بآبي، فهو يتدمر لأن موقعه ثانوي.

- ولكنه ما زال صغيراً.

- إنه يظهر مقدرة عظيمة ويشعر بأن أخويه ليسا منصفين بحقه
دائماً. سوبك قاسٍ وغير محتمل على ما يبدو، وحذر يحموس
وخوفه الدائم يضايقانه. إن آبي جريء شجاع ولا يحب تلقي
الأوامر، وهو يقول إنني أنا فقط، والده، الذي له الحق في الأمر.

- هذا صحيح؟ هذا الأمر نقطة ضعف في المزرعة هنا. هل
أستطيع الحديث بحرية؟

- نعم أيها العزيز حوري! إنك حكيم ومخلص.

- عندما تكون غائباً يجب أن يكون هنا شخص له سلطة
حقيقية.

- إنني أعهد بأعمالني إليك وإلى يحموس.

- أعلم أنا نتصرف بالنيابة عنك في غيابك، ولكن هذا لا
يكفي. لِمَ لا تعين أحد أبنائك شريكاً بصك قانوني؟

أخذ إمحوتب يروح جيئةً وذهاباً متجهماً، ثم قال: من تفتح
من أبنائي؟ سوبك قوي ولكنه متمرد، لا أستطيع الثقة به لأنه متهور،
ويحموس مطيع وثقة لكنه ضعيف، وآبي صغير.

- يحموس ابنك الأكبر وتصرفاته موزونة، وهو مطيع محب.

فترة قصيرة من وصول كاميني كان النساء يتداولن تقريرها!

كان كاميني كاتباً شاباً يعمل في خدمة إمحوتب، وهو أحد أبناء عمومته، وقد كشف تزويراً في الحسابات. وبما أنه كان لهذا الأمر مضاعفات عديدة تتعلق بوكلاء الممتلكات فقد قرر أن من الأفضل أن يحضر شخصياً إلى الجنوب ويخبر السيد.

لم تكن رينسب مهمة كثيراً، وخطمت أن من ذكاء كاميني أن يكشف ذلك كله وأن والدها سوف يكون مسروراً منه.

وكانت النتيجة المباشرة لهذه القضية أن إمحوتب أعد ترتيبات سريعة للمغادرة. ولم يكن من قبل ينوي المغادرة قبل شهرين، فتقت دعوة أفراد المنزل كافة وصدرت قائمة طويلة من التوصيات والأوامر: يجب فعل هذا وذلك... لا يجب على يحموس أن يفعل هذا الأمر أو ذلك... وعلى سوبك أن يمارس أقصى درجات السرية على أمر آخر.

كان الأمر كله مألوفاً كما رآه رينسب، وكان يحموس متبهاً وسوبك متجهماً، أما حوري فكان هادئاً كفوفاً كعادته. ووضعت مطالب أبيي وإلحاحه جانباً بحدة أكثر من المعتاد: أنت أصغر من أن يكون لك دخل خاص بك. أطع يحموس! إنه يعرف رغباتي وأوامري (ووضع إمحوتب يده على كتف ابنه الأكبر) إنني أثق بك يا يحموس. عندما أعود سوف نتحدث مرة أخرى في الشراكة.

احمّر وجه يحموس بسرعة متبهجاً وانتصب قليلاً، وأكمل إمحوتب قائلاً: تأكد أن الأمور تسير على ما يرام في غيابي، وتذكر أن جاريته يجب أن تعامل باحترام وتقدير. إنها تحت رعايتك، وعليك

ذلك! إن لم أكن موجوداً لأهتم بكل شيء فكل شيء يسير خطأ!

مشى خارجاً عبر الممر، وجلس حوري بهدوء يتبعه بنظره وعلى وجهه علامات الاستياء والقلق.

-٢-

كانت رينسب تنجول بلا هدف على ضفاف النيل عندما سمعت صراخاً وجليه ورائت أناساً يركضون إلى المرسى، فركضت وانضمت إليهم. كان على القارب الذي سُحب إلى الشاطئ شاب، وحين رأت تقاسيم جسمه والضوء الساطع يتعكس عليه توقف قلبها عن الخفقان وخطرت لها فكرة مجنونة فقالت لنفسها: إنه خاي... لقد عاد خاي من العالم السفلي!

ثم سخرت من نفسها وخيالها، ولكنها وقعت في هذا الوهم لأن ذاكرتها كانت دوماً تفكر في خاي وهو يبحر على النيل، وهذا الشاب على هيئة خاي، جماله مريح وهادئ ووجهه وسيم!

قال الفتى إنه قادم من ممفيس في الشمال ويعمل كاتباً في أملاك إمحوتب واسمه كاميني، فأرسل أحد العبيد ليدعو والدها وأخذ كاميني إلى المنزل حيث قُدم له الطعام والشراب.

ثم وصل والدها ودار الكثير من التشاور والكلام، وتسرب ملخص ذلك الحديث إلى أجنحة النساء بسرعة عن طريق حبيبت، وتساءلت رينسب: كيف تستطيع حبيبت أن تعلم كل شيء؟ قبعده

Chassey

يقدموا لك كل الرعاية والاهتمام، وسوف يعاقبون عقاباً شديداً إن تدمرت من أمر ما.

- سوف يفعلون ما نقول، أنا واثقة من ذلك يا إمحوتب.

وسكنت نوفرير ثم قالت: بمن يمكنكني أن أثق تماماً؟ أريد شخصاً مخلصاً حقاً لرغبتك ومصالحتك. لا أعني أحداً من أفراد العائلة.

- حوري، حوري العزيز. إنه ساعدي الأيمن في كل شيء، وهو رجل عاقل يحسن تمييز الأمور.

قالت نوفرير ببطء: إنه ويحموس كالإخوة، وربما...

- هناك كاميني. إنه كاتب أيضاً، وسوف أمره بأن يضع نفسه تحت خدمتك، فإن كان لديك ما تدمرين منه فسوف يكتب شكواك ويرسلها إلي.

أومات نوفرير برضا: هذه فكرة جيدة. لقد جاء كاميني من الشمال، وهو يعرف والذي ولن يتأثر بالاعتبارات العائلية هنا.

- وحيث، هناك حيث.

- أجل، حيث. ما رأيك في الحديث إليها الآن أمامي؟

- خطة ممتازة.

دُعيت حيث فجاءت متذلة كعادتها وأظهرت حزناً كبيراً على مغادرة سيدها، فقاطعها إمحوتب بعجلة: أجل، أجل يا عزيزتي حيث، ولكن هذه الأمور تحدث وقتلما أخلد إلى الهدوء والراحة،

التحكم في تصرفات النساء في المنزل. وأكد على ساتيبي أن تكبح لسانها وسوبك أن يأمر زوجته كما ينبغي، وزيستب أيضاً، يجب أن تعامل نوفرير بلباقة. ولا أسمح بأية قسوة ضد حيث العزيرة. أعلم أن النساء يجدنها مملة أحياناً ولكنها تعمل هنا منذ فترة طويلة وتظن أن لها الحق في قول أشياء عديدة لا ترضونها أحياناً، وأعلم أنها لا تملك الجمال أو الذكاء لكنها مخلصه. تذكروا ذلك، لن أسمح بتحقيرها وإساءة معاملتها.

قال يحموس: كل شيء سيبر حسب رغبتك، ولكن حيث ربما تسبب المشكلات بلسانها أحياناً.

- هراء، كل النساء يفعلن كذلك، وحيث لا تختلف عنهن. كاميني سوف يبقى هنا، فنحن نحتاج إلى كاتب آخر هنا ليساعد حوري. أما تلك الأرض التي أجرناها لتلك السيدة ياي...

وانتقل إمحوتب إلى تفصيلات أخرى غير مهمة. وعندما أعدت كل شيء لرحيله شعر إمحوتب بالغبثان وأخذ نوفرير جانباً فقال في شك: نوفرير، هل أنت راضية بالبقاء هنا؟ ألم يكن من الأفضل أن تأتي معي؟

فهزت نوفرير رأسها وابتسمت قائلة: أنت لن تغيب طويلاً.

- ثلاثة أشهر، ربما أربعة... من يعلم؟

- أرايت؟ لن يكون الوقت طويلاً. سوف أكون راضية هنا.

قال إمحوتب باهتمام: لقد أمرت يحموس وكل أبنائي أن

يجب أن أكدح بلا توقف من أجل عائلتي رغم أنهم أحياناً لا يقدرّون ذلك. الآن أريد التحدث إليك في أمر مهم: أنا أعلم أنك تحبيني بإخلاص، لذلك يمكنني الوثوق بك! احرسني نوفريت، إنها عزيزة على قلبي.

قالت حينئذ بحماسة: كل عزيز عليك عزيز علي يا سيدي.

- جيد، إذن سوف نكرسين جهدك في رعاية شؤون نوفريت؟

التفتت حينئذ إلى نوفريت التي كانت تراقبها من وراء حشيتين مغمضين وقالت: أنت جميلة جداً يا نوفريت، هذه هي المشكلة! لذلك يغار الآخرون، ولكنني سوف أعني بك، سوف أحذرك من كل ما يقولون ويفعلون، فلتعلمي علي.

وكانت لحظة صمت فيما التقت نظرة المرأتين، ثم كررت حينئذ: فلتعلمي علي.

فابتسمت نوفريت ابتسامة بطيئة غريبة وقالت: نعم! إنني أفهمك يا حينئذ. أظن أنني أستطيع الاعتماد عليك.

تنحى إمحوتب بصوت عالٍ وقال: إذن فالأمور كلها معدة. أجل، كل شيء على ما يرام، التنظيم هو دائماً منهجي وسبب نجاحي.

وشمعت ضحكة جافة حادة فالتفت إمحوتب فوراً ليرى أمه تقف عند مدخل الغرفة. كانت تستند على عصا وبدت أكثر جفاة وحقدًا من أي وقت مضى.

- لدي ابن رائع!

- يجب ألا أتأخر، هناك بعض التعليمات لحوري.

أسرع إمحوتب خارجاً وهو يهمس ويجنب نظرات أمه، وأومات إيزا بتعجرف إلى حينئذ فانسحبت حينئذ بخضوع من الغرفة. نهضت نوفريت ووقفت هي وإيزا تنظران كل واحدة إلى الأخرى، ثم قالت إيزا: إذن فإن ابني سيدعك هنا؟ كان من الأفضل أن تذهبي معه يا نوفريت.

- إنه يريد مني البقاء هنا.

كان صوت نوفريت رقيقاً ونحوماً، فأطلقت إيزا ضحكة حادة وقالت: أنت لا تريدان الذهاب، لماذا؟ إنني لا أفهمك. ماذا لديك هنا؟ أنت فتاة عاشت في المدن، وربما تنقلت وسافرت، فلماذا تختارين حياة رتيبة مع أولئك الذين لا يحبونك بل يكرهونك؟ وأرجو أن تقبلي صراحتي.

- إذن فأنت تكرهيني؟

هزت إيزا رأسها بالنفي قائلة: لا، أنا لا أكرهك. أنا عجزوز لا أرى بوضوح، ولكنني قادرة على رؤية الجمال والاستمتاع به. إنك جميلة يا نوفريت، وبسبب جمالك هذا فأني أتمنى لك الخير. إنني أحذرك: اذهبي إلى الشمال مع ابني!

كررت نوفريت مرة أخرى: إنه يريد مني البقاء هنا.

كانت نيرة الخضوع زاخرة بالسخرية في هذه المرة، فقالت

1

إيزا بحدّة: إن لديك هدفاً من بقائك هنا، وإني لأتساءل عن هذا الهدف... حسناً، فلتتحملني مسؤولية قرارك إذن، ولكن احذري وتصرفي بحكمة ولا تنفي بأحد.

مشت بسرعة وخرجت، ووقفت توقّرت بهدوء وصمت، وبيطاء تقوست شفناها إلى الأعلى في ابتسامة واسعة مثل القطة.

* * *

الفصل السادس الشهر الأول من فصل الشتاء اليوم الرابع

-١-

اعتادت رينسب على الذهاب إلى الضريح يوماً تقريباً. كانت تجد هناك يحموس وهوري أحياناً، وأحياناً حوري بمفرده، وأحياناً لم تكن تجد أحداً. ولكنها كانت تحس دائماً بأمن وراحة غريبين، لعله شعور بالهروب.

كانت ترتاح أكثر عندما تجد حوري بمفرده، فقد كان في وقاره وفي قبوله الطبيعي لحضورها شيء ما يبعث في نفسها شعوراً بالقناعة والرضا. كانت تجلس في ظل الغرفة الحجرية رافعة إحدى ركبتيها وممسكة إياها براحتيها، متأملة في الحزام النباتي الأخضر يحيط بزرقه النيل الباهتة، ومن خلف ذلك كله أبعاد يختلط فيها الأصفر والبني والأحمر في مزيج لوني سديمي.

لقد جاءت هنا أول مرة - قبل عدة أشهر - بسبب رغبة مفاجئة

مثلما كان في السابق حتى شجار ساتيبي وكيت كان ذلك صحيحاً. ولكن تلك المشاجرات لم تكن مشاجرات حقيقية يا حوري... أعني أن ساتيبي وكيت كانا نستمعان بها، كانت تساعد في مرور الوقت ولم تشعر أي منهما بغضب حقيقي على الأخرى. لكن المسائل تختلف الآن؛ إنهما نقولان أشياء بقصد الإيذاء، وعندما تحقق أقوالهما قصدها في الإيذاء فإنهما تفرحان بذلك! إن ذلك فظيخ يا حوري... فظيخ! كانت ساتيبي أمس غاضبة جداً فأدخلت دهبوساً ذهبياً طويلاً في يد كيت، وقبل يوم أو يومين أقت كيت بوعاء ثقيل من النحاس مليء بالدهن المغلي على قدم ساتيبي، وهذا هو الحال في كل مكان: ساتيبي تلوم يحموس وتتشاجر معه حتى ساعة متأخرة من الليل، ونحن جميعاً نسمعها، ويحموس يبدو مريضاً متعباً ومطارداً. وسوبك يذهب إلى القرية فيمضي الوقت هناك ثم يعود ثملاً ويصرخ ويقاخر بذكائه!

- أنا أعلم أن بعض هذه الأمور صحيح، ولكن لماذا تلومين نوفريت؟

- لأن كل ذلك من فعلها هي؛ إذ تبدأ المشكلات دائماً بتأثير الأشياء التي تقولها، أشياء صغيرة ذكية تشعل فتيل الخلاف... إنها تشبه ذلك المهماز الذي يوحز به الثور. وهي ذكية أيضاً في معرفة ما ينبغي قوله، وأظن أحياناً أن حبيبت هي التي تخبرها.

فكر حوري: ربما، نعم.

ارتجفت رينيسب وقالت: أنا لا أحب حبيبت؛ أكره تسللها وتنصتها! إنها مخلصتنا لنا جميعاً لكن أحداً لا يريد إخلاصها هذا.

في الهروب من عالم شديد الأنثوية. كانت تريد الهدوء والرفقة، وقد عثرت عليهما هنا. الرغبة في الهروب ما زالت تلازمها، لكنها لم تعد مجرد رد فعل لضغط الحياة العائلية، بل هناك شيء أكثر تحديداً وأكثر إثارة للقلق.

قالت رينيسب لحوري ذات يوم: إنني خائفة!

فقال وهو يتمعن فيها بجديّة: ما الذي يخيفك يا رينيسب؟

أخذت رينيسب بضع دقائق للتفكير، ثم قالت بتأن: هل تذكر أنك أخبرتني ذات مرة بأن الشر نوعان، أحدهما يأتي من الخارج والآخر من الداخل؟

- نعم، أذكر.

- وأخبرتني لاحقاً أنك كنت تتحدث عن الأمراض التي تهاجم الفواكه والمحاصيل، لكنني كنت أفكر طول هذه الفترة أن ذلك ينطبق على الناس.

أوماً حوري ببطء موافقاً على كلامها: إذن فقد توصلت إلى ذلك؟ أجل، إنك على حق يا رينيسب.

قالت رينيسب بسرعة: إن ذلك يحدث الآن... هناك في المنزل. لقد أتى الشر من الخارج! وأنا أعلم من أتى به، إنه نوفريت.

- أنظنين ذلك؟

أومات رينيسب بحدة قائلة: نعم، نعم، إنني أعلم ما أقوله. استمع يا حوري، عندما صعدت إليك هنا وقلت بأن كل شيء كان

ابتسامه هادئة وقورة وقال: إنه مريح لنا جميعاً، فالموت تجارة رابحة دائماً.

ارتحفت نوفريت ونظرت حولها وعيناها تجوبان موائد القرابين ومدخل الضريح والباب الجانبي، ثم صرخت بحدة: إنني أكره الموت!

أجابها حوري بهدوء: يجب ألا نكرهه لأنه مصدر الثروة هنا في مصر؛ فالجواهر التي تلبسيتها وطعامك وكساؤك، كل هذه يقدمها الموت.

حدقت إليه وقالت: ماذا تعني؟

- أعني أن إمحوتب هو كاهن هذا القبر، وكل أراضيه وقطعانه وأخشابه والكتان والشعير هي أوقاف الضريح. نحن المصريين شعب غريب المعتقدات؛ لأننا نحب الحياة نخطط للموت مبكراً. هذا الذي تذهب إليه ثروة مصر: الأهرامات، والقبور، وأوقاف القبور!

هتفت نوفريت بعنف: هلاً توقفت عن ذكر الموت يا حوري؟ إنني لا أحب ذلك.

- لأنك مصرية حقة تحب الحياة، لأنك - أحياناً - تشعرين بظل الموت قريباً جداً...

- كفى عن ذلك.

والنفتت إليه بعنف، ثم هزت كتفها وولت بعيداً وبدأت تنزل عبر الممر.

كيف استطاعت أمي أن تحضرها إلى هنا وتحبها كثيراً؟

- ليس عندنا ما يثبت ذلك سوى ما نقوله حينئذ.

- لماذا تحب حينئذ نوفريت وتلاحقها دائماً وتهمس لها وتندلل؟ آه يا حوري! أقول لك إنني خائفة... إنني أكره نوفريت وأتمنى أن تذهب هذه الجميلة الفاسية السيئة بعيداً!

- يا لك من طفلة يا ريتيسب! ها هي نوفريت قادمة.

التفتت ريتيسب، وراقبا معاً نوفريت وهي تصعد الممر الحاد المؤدي إلى قمة الجرف سعيدة تترنم بلحن بصوت خافت. وعندما وصلت حيث كانا نظرت حولها وابتسمت ابتسامة تنم عن الفضول والسرور: إذن فهذا هو المكان الذي تتسلبن إليه كل يوم يا ريتيسب؟

لم تجبها ريتيسب. كان يعتربها ذلك الشعور الغاضب المحيط الذي يعترى طفلة اكتشف مخبئها، ونظرت نوفريت حولها مرة أخرى قائلة: وهذا هو الضريح المشهور؟

قال حوري: نعم، هذا هو.

نظرت إليه وقد التوت شفتاها التواءهما القططي وهما تفتران عن ابتسامه، ثم قالت: لا أشك أنك تجد عمك مريحاً يا حوري، فأنت رجل أعمال ناجح كما سمعت.

كانت في صوتها مسحة حقد، ولكن حوري بقي ساكناً يشتم

Chassey

مزيد من الخشب! إن قمها يلسع كالأفعى... أودّ أن أقتلها!

ابتعد عن المنصة ورفع حجراً فرماه إلى أسفل الوادي، وكأنه يستمتع بصوت ارتطامه بالصخور. ثم رفع حجراً آخر أكبر منه، ثم قفز متراجعاً إلى الخلف إذ رأى أفعى كانت ملتقّة تحت الحجر وقد رفعت رأسها وتراجعت وهي تفتح، وأدركت رينيسب أنها أفعى كوبرا.

هاجمها سوبك بعضاً غليظة التغطها وبدأ يضربها بغضب حتى أصابتها ضربة كسرت ظهرها، ولكن سوبك استمر بالضرب وعبثاً تلتمعان وهو يهمهم بكلمة لم تكدر رينيسب سماعها، ثم صاحت به: توقف يا سوبك، توقف، إنها ميتة.

توقف سوبك ثم رمى بالعصا بعيداً، وضحك قائلاً: لقد نقص العالم أفعى سامة!

وضحك مرة أخرى وقد استعاد مزاجه الرائق، ثم ذهب بعيداً فقالت رينيسب تناجي حوري: أعتقد أن سوبك يحب قتل الأشياء.

- أجل.

لم يظهر حوري دهشة لقولها، فهو يعرف هذا من قبل. والتفت رينيسب إليه فقالت له وهي تتأمل جسم الكوبرا الملتوي الناعم: إن الأفاعي خطيرة، ولكن ما كان أجمل تلك الكوبرا!

ونظرت إلى الأسفل حيث جسدها الممزق، ولسبب غير معروف شعرت بغصة في قلبها. قال حوري بصوت كالحلم: أذكر

تهددت رينيسب بارتياح وقالت ببراءة طفولية: أنا سعيدة لأنها ذهبت، لقد أخفتها يا حوري.

- نعم، وهل أخفتك يا رينيسب؟

- لا.

بدت رينيسب غير واثقة قليلاً، ثم قالت: إن ما قلته صحيح، ولكنني لم أفكر فيه بهذه الطريقة من قبل. إن والدي كاهن بالفعل.

قال حوري بمرارة مفاجئة: مصر كلها قد استحوز عليها الموت، أنعلمين لماذا يا رينيسب؟ لأننا ننظر بعيوننا لا بعقولنا وبصائرنا، لا نفكر في حياة أخرى بعد الموت. يمكننا فقط تصور استمرار ما نعرفه، ليس لدينا إيمان حقيقي بالله!

- أنت تقول أشياء غريبة! لا أستطيع فهمك.

نظرت إليه بحيرة، ثم نظرت إلى الوادي فلفت انتباهها أمر آخر، هتفت: انظر، إن نوفرير تتحدث إلى سوبك وتضحك... آه! (وشهقت فجأة) لا، لا شيء. لقد ظنته ينوي ضربها، إنها تعود إلى المنزل وهو يصعد هنا.

وصل سوبك وهو في غاية الغضب، وصرخ: أتمنى لو أن تمساحاً يلتهم هذه المرأة! لقد كان والدي غيباً حين اتخذها جارية له.

سأله حوري بفضول: ماذا قالت لك؟

- أهانتني كعادتها، سألتني إن كان والدي قد عهد إليّ ببيع

سوف أذهب إلى ممفيس وأدعو بتناح إله الحق، وأقول له:

أعطني حبيبي تمضي مع الجدول وأزهار اللوتس،
أعطني حبيبي التي بخرق الفجر جمالها،
وممفيس تفاع حب أمام وجهها الشاحب،
غابة أزهار وبراعم ضياء.

ثم نظر إلى رينيسب مبتسماً وقال: أتحيين أغنيتي يا رينيسب؟
إنها أغنية حب من ممفيس.

ثم غنى بلطف وعناية عالقتان بها:

يداعا مستلتان بأغصان البرسي،
وشعرها مسترسل إلى الأسفل مغسول بالمرام،
إنها مثل أميرة سيد الأرضين.

تصاعدت الدماء إلى وجه رينيسب فدخلت بسرعة إلى المنزل،
وكادت ترتطم بنوفريت التي هتفت: لماذا العجلة يا رينيسب؟

كالت في صوت نوفريت حدة ماضية، فنظرت إليها رينيسب
بدعشة. لم تكن نوفريت تبسم بل كان وجهها متجهماً وقلقاً،
ولاحظت رينيسب أن يديها كانتا مطبقتين على خصرها.

- أنا أسفة يا نوفريت؛ لم أرك المكان مظلم هنا عندما تأتئين
من ضوء النهار في الخارج.

- فعلاً، المكان مظلم هنا... مستكون انحال أظف في الخارج.

عندما كنا أطفالاً أن سوبك هاجم يحموس. كان يحموس يكبره بعام
ولكن سوبك كان أضخم وأقوى. فضرب رأس يحموس بالحجر،
وجاءت أمك بسرعة ففرقت بينهما. أذكر كيف وقفت تنظر إلى
يحموس وكيف صرخت: "يجب ألا تفعل أشياء مثل هذه يا سوبك،
إنها خطيرة. أقول لك إنها خطيرة".

وتوقف قليلاً ثم قال: كنت أرى أمك في طفولتي جميلة جداً...
وأنت تشبهينها يا رينيسب.

شعرت رينيسب بالسرور وقالت: أنا كذلك؟ قل لي: وهل
أصاب يحموس سوء؟

- لا، لم يكن الأمر سيئاً كما يبدو. وقد مرض سوبك تماماً
في اليوم التالي واعتقدنا أن ذلك من شيء أكله، ولكن أمك قالت
إنه مرض بسبب غضبه وضربة الشمس الحارقة... كان ذلك في
منتصف الصيف.

تفكرت رينيسب ثم قالت: سوبك مزاجه سيئ!

نظرت مرة أخرى إلى الأفعى الميتة، ثم استدارت وقد ارتعش
جسمها.

-٢-

عندما رجعت رينيسب إلى المنزل كان كاميتي يجلس على
الشرقة الأمامية ومعه لفافة بردي يغني، فتوقفت قليلاً وأنصتت إلى
كلماته:

ترى قفا رأسه لأنه كان في مقدمة القارب وهي خلفه. وعندما التفت
لكي يتحدث إليها لم يكن خاي بل كاميني! في الوقت نفسه بدأت
مقدمة القارب البارزة على شكل رأس أفعى تتلوى، إذ أصبحت أفعى
حقيقية، بل كوبرا حقيقية. وفكرت رينسب أن هذه هي الأفعى التي
تخرج من القبور لتأكل أرواح الموتى.

شلتها الخوف، ثم لاحظت أن وجه الأفعى هو وجه نوفريت!
واستيقظت وهي تصرخ: نوفريت... نوفريت!

استيقظت فزعة بنض قلبها بتسارع كبير ويكاد يقفز من
صدرها.

لم تصرخ في الحقيقة، بل صرخت في الحلم فقط، ثم تذكرت
فجأة أن سوبك كان يهمس وهو يقتل الأفعى أمس: نوفريت...
نوفريت!

على الشرفة مع غناء كاميني. إن صوته جميل، أليس كذلك؟

- بلى، بلى؛ إن صوته جميل بالفعل.

- ومع ذلك لم تبقى لتستمعي له؟ سيشرح كاميني بخيبة الأمل.

شعرت رينسب بحرارة خديها، فقد أزعتها نظرة رينسب
الباردة الساخرة. قالت نوفريت: ألا تحبين الأغاني العاطفية
يا رينسب؟

- وهل يهمك ما أحبه وما أكرهه يا نوفريت؟

- وهكذا يبدو أن للقطط الصغيرة مخالِب أيضاً.

- ماذا تقصدين؟

ضحكت نوفريت وقالت: لست غبية كما تبدين يا رينسب.
إذن فأنت ترين أن كاميني وسيم؟ مسره ذلك حتماً.

غضبت رينسب وقالت: أنت بغضة تماماً.

وتركتها مسرعة إلى المنزل، وسمعت ضحكة الفتاة الساخرة
لكنها كانت تسمع صدى صوت كاميني من خلال هذه الضحكة
والأغنية التي غناها وهو ينظر إلى وجهها.

-٣-

في تلك الليلة رأت رينسب حُلماً: كانت مع خاي في قارب
الموتى في العالم السفلي يسيران معاً نحو شروق الشمس، وكانت

الفصل السابع الشهر الأول من فصل الشتاء اليوم الخامس

- ١ -

حلم رينسب تركها مستيقظة، ثم نامت نوماً متقطعاً. ومع اقتراب الصباح لم تستطع النوم، فقد تملكها شعور غامض باقتراب شرّ داهم.

نهضت باكراً وخرجت من المنزل، وقادتها قدماها - كما كانتا تفعلان دوماً - إلى النيل. كان يضيح بحركة الصيادين وقد خرجوا يركبون قواربهم ويجدون بقوة تجاه «طيبة»، وقوارب أخرى بأشعة تتفخ من هبات الرياح تستعد للسفر إلى الشمال... شيء ما يجول في خاطرها ويهز مشاعرها، لكنها لا تعرف ما هو بالتحديد؟

لم تستطع العثور على كلمة تعبر عن وصف شعورها، قالت لنفسها: أريد، ولكن ماذا أريد؟

بالتأكيد. والذي تاجر في مغفيس، والجو هناك حافل بالتسلية والمرح
ووالذي يسافر كثيراً. لقد ذهبت معه إلى سورية وبيبلوس... لقد كنت
معه على سفينة كبيرة في عمق البحار.

كانت نوفريت تتحدث بفخر وحبوية، ووقفت رينيسب ساكنة
وعقلها يعمل ببطء لكن باهتمام وتفهم متزايدين، وقالت: لا بد أن
المكان هنا مثل لك؟

ضحكت نوفريت وقالت بنفاد صبر: المكان هنا ميت... ميت!
لا شيء سوى الحرارة والبخار والحصاد والرعي، والحديث عن
المحاصيل والجدال على أسعار الكتان.

كانت رينيسب تصارع أفكاراً غريبة وهي تراقب نوفريت من
الجنب، وفجأة انبعثت موجة من الغضب والأسى واليأس من الفتاة
الواقفة بجوارها. قالت رينيسب في نفسها: إنها صغيرة مثلي، بل
هي أصغر، وهي جارية ذلك العجوز المتأنق السخيف رغم لطفه
الذي هو والدي!

ماذا تعرف رينيسب عن نوفريت؟ لا شيء فقط. ما الذي قاله
حوري أمس عندما صرخت: إنها جميلة وقاسية وسيئة؟... إنك طفلة
يا رينيسب، هذا ما قاله. عرفت رينيسب الآن ماذا كان يقصد،
فكلماتها تلك لم تكن تعني شيئاً؛ إذ لا يمكن للمرء أن يشطب إنساناً
بهذه السهولة. أي أسف، وأية مرارة، وأي يأس يكمن خلف ابتسامته
نوفريت القاسية؟ ثم ما الذي فعلته رينيسب، وما الذي فعله الآخرون
ليُشعروا نوفريت بالحفاوة والقبول؟

قالت رينيسب مرتبكة كأنها طفلة: أنت تكرهيننا جميعاً، أنا

هل كانت تريد خاي؟ خاي ميت ولن يعود! قالت لنفسها: لن
أفكر في خاي بعد الآن، ولا فائدة من التفكير.

ولاحظت أن ثمة شخصاً آخر يراقب القوارب المتجهة إلى
طيبة، وكان هناك شيء في صورة ذلك الشخص، في الشعور الذي
عبر عنه بمجرد وقوفه ثابتاً دون حراك. كان هناك شيء في كل ذلك
هزّ مشاعر رينيسب حتى عندما أدركت أن ذلك الشخص لم يكن
سوى نوفريت.

نوفريت تحديق إلى النيل، نوفريت بمفردها، نوفريت تفكر
في... ماذا؟

وأدركت رينيسب فجأة، وبدهشة بسيطة، أنها لا تعلم عن
نوفريت سوى القليل. لقد تعاملوا معها على أنها عدوة وغريبة، لا
يعلمون شيئاً عن حياتها أو البيئة التي أنت منها. وأدركت رينيسب
- فجأة - أن نوفريت لا بد أن تكون حزينة وحدها هنا دون أصدقاء
ويحيط بها أشخاص يكرهونها.

مشت ببطء حتى أصبحت بجانب نوفريت، فأدارت هذه رأسها
لحظة ثم عادت تتأمل النيل مرة أخرى. كان وجهها خالياً من التعبير،
فقالت رينيسب بخوف: ثمة قوارب عدة في النهر.

- أجل.

تابعت رينيسب وقد استجابت لرغبة غامضة تدفعها للآلة:
هل يختلف هذا المكان عن المكان الذي أتيت منه؟

ضحكت نوفريت ضحكة قصيرة فيها مرارة وقالت: نعم،

Chassey

نوفريت الطفلة عن طريقها بدفعة قوية جعلت الفتاة تبتلع على الأرض. وأخذت الفتاة تنتحب فركضت رئيسب إليها ورفعنها وهي تقول بغضب: يجب أن تكوني أكثر نطفاً بالأطفال يا نوفريت. لقد أذيت الطفلة، ألا ترين؟ لقد جرحت ذقتها!

ضحكت نوفريت وقالت بحدة: وهل يجب أن أكون حذرة مع هؤلاء الأطفال المدللين؟ لماذا؟ هل تحرص أمهاتهم على مشاعري؟

خرجت كيت تركض من المنزل لبيكاء ابنتها، وتأملت وجهها المبرح، ثم التفتت إلى نوفريت فقالت: أنت شيطان وأفعى، أفعى شريرة. انتظري وسترين ماذا سنفعل بك.

وبكل قوة ذراعها لطمت نوفريت على وجهها، فصرخت رئيسب وأمسكت بذراعها قبل أن تستطيع تكرار اللطمة وهي تهتف: كبت، كبت، ينبغي أن لا تفعل ذلك.

- ومن قال ذلك؟ دعي نوفريت تدافع عن نفسها. إنها وحيدة هنا بينما.

وقفت نوفريت ساكنة، وكانت علامة يد كيت تظهر حمراء بوضوح على خدها وعند عيناها، فقد جرح السوار الذي كان في معصم كيت جلدها، وكان خيط رقيق من الدم يسيل على وجهها، لكن التعبير على وجه نوفريت حين رئيسب، أجل، وأخافها.

ثم تظهر نوفريت غضباً بل ظهرت في عيناها نظرة ابتهاج

أعرف السبب. لم تكن نطفاء... لكن الوقت ليس متأخراً لاستدرك ألا يمكنني - أنا وأنت يا نوفريت - أن نكون أختين؟ أنت بعيدة عن كل من تعرفين. أنت وحيدة، ألا أستطيع المساعدة؟

ترددت الكلمات في الفضاء والسكون. ودارت نوفريت ببطء. كان وجهها خالياً من أي تعبير، بل كان في عيناها - كما ظنت رئيسب - بعض الرقة الموقفة. في سكون الصباح المبكر، بهدوئه الغريب ووضوحه بدت نوفريت كأنها تردت. كأن كلمات رئيسب قد لامست فيها واحداً من آخر معاقل التردد.

كانت لحظة غريبة، لحظة ستذكرها رئيسب فيما بعد.

ثم تغيرت ملامح نوفريت تدريجياً فأصبحت بغضبة وامتلأت عيناها بالغضب، وأمام أجيح الكرة والحقد في نظرتها تراجع رئيسب إلى الخلف خطوة، وقالت نوفريت بصوت منخفض قاس: اذهبي. لا أريد شيئاً من أي منكم. أغيباء، أنتم جميعاً أغيباء، كل واحد منكم!

وتوقفت لحظة، ثم دارت وتراجعت بخطواتها نحو المنزل وهي تمشي بحوية. وتبعها رئيسب ببطء، ومن الغريب أن كلمات نوفريت لم تغضبها بل فتحت عيناها على لجة سوداء من الكراهية والشعاسة. تلك المشاعر التي لم تجزبها رئيسب من قبل، ولم يكن في ذهنها إلا صورة مضطربة عن التأثير الفظيع الذي يمكن أن تؤدي إليه هذه المشاعر.

وما أن دخلت نوفريت من البوابة وعبرت الفناء حتى جاءت إحدى بنات كيت الصغيرات تركض عبر الممر تلحق الكرة، فأبعدت

- أنت في غاية الكرم يا نوفريت، إنها تحفة رائعة!

- إني وإمحوتب نقدر الإخلاص.

ظلت نوفريت تبسم وعيناها صبيقتان قططيتان، وقالت:
أحضري كاميني وتعالى معي، أنت وهو شاهدان على ما حدث.

حضر كاميني على غير رغبة وحاجباه معقودان، وتحدثت
نوفريت بمعجزة: أنت تذكر تعليمات إمحوتب قبل أن يغادر؟

- نعم.

- لقد حان الوقت؛ اجلس وأخرج الحبر واكتب ما أخبرك

به.

ثم قالت بنفاد صبر وقد رأت كاميني لا يزال متردداً: سنكتب
ما شاهدته بعينيك وسمعه بأذنيك، وستؤكد حنيت ما أقول. يجب
أن ترسل الرسالة بسرية وسرعة.

قال كاميني ببطء: لا أحب...

صرخت نوفريت فيه: ليس لدي أية شكوى ضد رئيسك؛ إنها
رقيقة وضعيفة وغبية ولم تحاول إيدائي. أيرضيك ذلك؟

احمَرَّ وجه كاميني البرونزي وقال: لم أفكر في هذا...

قالت نوفريت بلطف: بل كنت تفكر في ذلك. تعال الآن، نفذ
التعليمات الموجهة إليك. اكتب...

قالت حنيت: نعم، اكتب؛ يجب أن يعلم إمحوتب بالأمر،

غريبة، ومرة أخرى تكوّر فيها القطني بإتسامة رضا وقالت: شكراً
يا كيت.

ثم ذهبت إلى المنزل.

-٢-

نادت نوفريت حنيت وهي تترنم بلحن خفيف منخفض
وجفناها نصف مغضبتين، فجاءت حنيت وهي توكض. توقفت ثم
أيدت دهشتها، فقاطعت نوفريت دهشتها وقالت: اهليلي من كاميني
أن يحضر ومعه الريشة والحبر وورق البردي، سوف أكتب رسالة
للسيد.

كانت عينا حنيت مرعرتين على لحد نوفريت: إلى السيد؟
فهمت. سيدتي، من فعل هذا؟

ابتسمت نوفريت بهدوء وقالت: كيت.

وهزت حنيت رأسها وقالت: هذا سيء، سيء جداً! يجب أن
يعلم السيد بذلك. نعم، بالتأكيد، يجب أن يعلم إمحوتب بالأمر.

قالت نوفريت بلطف: أنت وأنا يا حنيت نفكر بطريقة متشابهة،
لقد ظننت أننا يجب أن نفعل ذلك.

ومن زاوية ردائها الكتاني انتزعت جوهرة من الأحجار الكريمة
في إطار مذهب ووضعتها في يد حنيت قائلة: أنا وأنت - يا حنيت -
نضع مصلحة إمحوتب الحقيقية نصب أعيننا.

الفصل الثامن الشهر الثاني من فصل الشتاء اليوم العاشر

-1-

تعاقبت الأيام، وكانت رينيسب تشعر أحياناً أنها تعيش في حلم. لم تقدم أية عروض ذليلة أخرى لنوفريت، فقد أصبحت تخافها الآن، إذ كان في نوفريت شيء لم تفهمه.

لقد تغيرت نوفريت بعد ذلك المشهد في فناء المنزل. صار يبدو عليها شيء من الرضا، شيء من الابتهاج لم تستطع رينيسب أن تسير غوره. كانت تفكر أحياناً بأن الصورة التي رسمتها في مخيلتها لنوفريت كامرأة تعيسة تماماً ربما تكون صورة خاطئة سخيفة، فقد بدت نوفريت مسرورة بالحياة وبنفسها وبمن حولها.

ومع ذلك فإن من حولها قد تغيروا نحو الأسوأ بالتأكيد، ففي الأيام التي أعقبت رحيل إمحوتب بدأت نوفريت تزرع - عن عمد - بذور الخلاف بين أفراد عائلته.

مهما يكن الأمر بغضاً فعلى المرء أن يتقذ واجبه. لقد كنت أشعر بهذا دائماً، لقد ساء لي ما حدث كثيراً!

- أنا واثقة من ذلك يا حبيبتي. سوف تفعلين واجبك وسينقذ كاميني واجبه، وأنا، أنا سوف أفعل ما يحلو لي.

لكن كاميني بقي متردداً. كان وجهه متجهماً، بل غاضباً، وقال: لا أحب ذلك يا نوفريت، فكثري قليلاً ولا تسرعيني.

- لماذا تقول هذا لي؟

احمرّ وجه كاميني أمام نبرتها وتجنب نظرتها، فيما بقيت ملامحه المتجهمة كما هي. فقالت نوفريت بلطف: كن حذراً يا كاميني! إمحوتب يستمع لما أقوله، وهو راضٍ عنك حتى الآن!

وسكنت سكتة ذات مغزى فسألها كاميني بغضب: أتهدديني يا نوفريت؟

- ربما.

فتنظر إليها بغضب لبضع لحظات، ثم حتى رأسه وقال: سوف أفعل ما تطلبين يا نوفريت، ولكنني أظن... نعم، أظنك سوف تندمين.

- هل تهددني يا كاميني؟

- بل أحذرك!

ابتسمت ساتيبي وكيت ابتسامة غير لطيفة، وقالت الأولى: هل تدمرت نوفريت؟

قالت إيزا وهي تزيج الباروكة التي كانت ترتديها دائماً حتى في المنزل: لا، نوفريت لم تدمر، وهذا ما يقلقني!

قالت ساتيبي وقد رفعت رأسها الجميل: ولكنه لا يقلقني أنا.

صرخت إيزا: لأنك غبية! إن نوفريت تمتلك من الذكاء ضعف ما تمتلك أية واحدة منكن.

قالت ساتيبي وهي تبدو سعيدة ومسرورة بنفسها: هذا ما ننتظر إثباته.

- ماذا تحسبن أنكن فاعلات جميعاً؟

تصلب وجه ساتيبي وقالت: أنت عجوز يا إيزا ولا أتحدث إليك بلا احترام، لكن الأمور لم تعد تهملك مثلما تهمتا نحن اللاتي لدينا أزواج وأطفال صغار... لقد قررنا أن نتكفل نحن بالأمر، ولدينا وسائلنا للتعامل مع امرأة لا نحبها ولا نقبل بها.

- كلمات جيدة، كلمات جيدة... ولكن الكلام المثمق ربما أنقته عبدة سوداء تعمل في المطبخ دون أن يعني ذلك شيئاً.

تنهدت حينيت وقالت: قول صحيح وحكيم!

التفتت إليها إيزا وسألتها: هيا يا حينيت، ماذا تقول نوفريت بشأن ما يحدث هنا؟ يجب أن تعرفي، أنت تخدمينها باستمرار.

أما الآن فإن تلك العائلة رصت صفوفها بإحكام في وجه الغازية الجديدة، فلم تعد هناك خلافات بين ساتيبي وكيت، ولا توبيخ من ساتيبي ليحموس المسكين، وبدأ سوبك أكثر هدوءاً وأقل نبجاً، وأصبح أبي أقل وقاحة وخلافاً مع شقيقه. ظهر انسجام جديد ضمن العائلة، ولكن ذلك الانسجام لم يحقق لرئيسب راحة البال، فقد صاحبه تيارٌ داخلي غريب ملغٌ يُنذر بالنوايا السيئة تجاه نوفريت.

كيت وساتيبي لم تعودا تتشاجران معها وكانتا تجتنبانها، ولم تتحدثا إليها، وعندما تقرب هي منهما تجمعان أبناءهما فوراً وتذهبان إلى مكان آخر. وفي الوقت ذاته بدأت تقع حوادث صغيرة غريبة ومزعجة: أتلف رداء لنوفريت بالمكوى، وآخر لَوْن بالأصباغ، ووضع الشوك في ثياب أخرى. وطعامها يمثلئ بالتوابل أو يخلو منها، ووجدت عفرق قرب سريرها، وفي مرة أخرى فأر مبيت في حصتها من الخبز!

كان ذلك مضايقة هادئة ناعمة ولكن لا هوادة فيها، لا شيء صريحاً، لا شيء تستطيع الإمساك به... كانت حملة نسائية بالتأكيد.

وفي أحد الأيام أرسلت إيزا العجوز في طلب ساتيبي وكيت وورينيسب، وكانت حينيت قد سبقتهن ووقفت خلفهن تهز رأسها وتفرك يديها. قالت إيزا وهي تنظر إليهن بتعبيرها الساخر المعهود: إذن ها أنتن، ماذا تفعلن أينها الذكيات؟ ما الذي أسمعه عن ثياب نوفريت وطعامها؟

بتراكم بمكنتي الشعور به. ساتيبي، إنك تقودين هذه الحملة. كوني
حذرة - وأنت تظنين نفسك ذكية - من إقادة نوفرير بتصرفاتك.

ثم انحنت إلى الخلف وأغمضت عينيها وقالت: لقد
حذرتكن!

قالت ساتيبي وهي ترمي برأسها إلى الوراء وهن في الطريق
إلى الخارج نحو البحيرة: إذن فنحن تحت سيطرة نوفرير حقاً! إيذا
عجوز وترودها أفكار غريبة، نحن نضع نوفرير تحت سيطرتنا. لن
نفعل أي شيء ضدها يُسجل علينا، ولكنني أظن... نعم، أظن أنها
سوف تأسف قريباً على قدميها هنا.

صرخت رينيسب: أنت قاسية، قاسية.

بدت ساتيبي مسرورة وقالت: لا تظاهري بأنك تحيين نوفرير
يا رينيسب.

- أنا لا أحبها، لكنك حاقدة.

- إنني أفكر في أطفالي ويحموس، فأنا لست امرأة خنوعة
أو امرأة تتحمل الإهانات... كما أنني طموحة. ولدي القدرة على
أن أدق عنق تلك المرأة بسرور. لسوء الحظ فإن الأمر ليس بهذه
السهولة، يجب ألا تنير غضب إمحوتب، ولكنني أظن أننا نستطيع
تدبير أمر ما في النهاية.

- إنني أفعل ما طلب مني إمحوتب فعله. الأمر كرهه بالطبع،
ولكن علي أن أفعل ما يأمرني به السيد، إنكن لا تظنين أنني أمل...
قاطعت إيذا الصوت المتحجب: نحن نعرفك جيداً يا حبيبت؛
دائماً مخلصه دون أن يشكرك أحد. ولكنني سألتك: ماذا تقول
نوفرير؟

هزت حبيبت رأسها وقالت: هي لا تقول شيئاً... تبسم فقط.

التفتت إيذا عنة من الصحن وتفحصتها، ثم وضعتها في
فمها، وقالت بغلظة مفاجئة: إنكن غيبات جميعاً؛ فالسلطة بيد
نوفرير لا بأيديكن، كل ما تفعلنه يعود عليها بالفائدة... أقسم أن
ما تفعلنه يسعدها.

قالت ساتيبي بحدة: هراء! نوفرير وحدها بين الكثيرين فما
السلطة التي لديها؟

تجهمت إيذا وقالت: سلطه امرأة شابة جميلة تزوجت رجلاً
عجوزاً. أنا أعرف ما أقوله...

والثفت سريعاً برأسها وهي تقول: وحبيبت تعلم ما أقوله.

جفلت حبيبت وتنهت وبدأت تلوي يديها: إن السيد يقدرها
كثيراً، بالطبع. أجل، ذلك أمر طبعي جداً.

- اذهبي إلى المطبخ وأحضري لي بعض البطح والنساء...
والعسل أيضاً.

عندما ذهبت حبيبت قالت المرأة العجوز: في الأفق شر وسوء

Chassey - ٢ -

الكاذبة إليه؟ هل يجب أن نتحمل ذلك؟ كيف يحرمننا والذي هكذا ويعطي كل ما يملك لجاريته؟

قال حوري بهدوء: «سبب هذا العمل استهجاناً واسعاً وسيُنظر إليه على أنه عمل سيء»، ولكنه عمل ممكن من الناحية القانونية ويقع ضمن صلاحياته؛ إذ يمكنه أن يضع ما يريد من وثائق الملكية والمشاركة.

قال سويك: لقد سخرته تلك الأفعى السوداء الساحرة... سلطت سحرها عليه!

هنس يحموس وقد بدا مصعوقاً: هذا أمر لا يصدّق، لا يمكن أن يكون صحيحاً!

وصرخ آبي: والذي مجنون... مجنون! لقد خضع لهذه المرأة وانقلب عليّ أنا أيضاً.

عاد حوري يقول بهدوء: سوف يعود إمحوتب قريباً كما قال، وربما لا ينوي حقاً تنفيذ ما يقوله. لعلها نوبة غضب فقط.

سمعوا ضحكة قصيرة ساخرة. كانت سانيبي واقفة تنظر إليهم من الممر المؤدي إلى جناح النساء، وقالت: إذن فهذا ما علينا فعله أيها العزيز حوري، أليس كذلك؟ حسناً جداً، انتظر وسترى.

قال يحموس ببطء: وماذا يمكننا أن نفعل؟

ارتفع صوت سانيبي بالصراخ: أنتم لستم رجالاً، وما يجري في عروقكم حليب وليس دماً! يحموس لبس رجلاً وأنا أعرفه،

جاءت الرسالة سريعة كالسهم. نظر يحموس وسويك وآبي بعضهم إلى بعض مذهولين صامتين لا يكادون يصدقون ما يقرؤه حوري!

ألم أخبر يحموس أنني أحمله المسؤولية إن أصاب جاريته أي سوء؟ إنكم أعدائي وأنا عدوكم، ولن أعيش معكم في بيت واحد ما دمتم لم تحترموا نوفرته. لم تعودوا أبنائي من دمي! لقد سبب كل منكم الأذى لجاريته، وشهد على هذا الأمر كاميني وحيثيت، وسوف أطردكم من منزلي. لقد أعلنتكم ولن أعيلكم بعد الآن.

حوري، أيها الكاتب المخلص، كيف حالك؟ أرجو أن تكون بصحة جيدة وأمان. أبلغ تحياتي لأمي إيرا وابنتي رينيسب وحيثيت. تابع مصالحي جيداً حتى أصل إليك وحضّر صكاً قانونياً لشاركتي جاريته نوفرته كل أملاكه كزوجة، ولن أشرك يحموس أو سويك معي ولن أعيلهما أيضاً. حافظ على الأمور حتى عودتي. كم هو سيء أن تقوم عائلة المرء بإيذاء جاريته. وأما آبي فلنكن هذه الرسالة تحذيراً له، فإذا أذى جاريته فسوف يغادر منزلي هو الآخر.

شُلّ الصمّت الحاضرين، ثم نهض سويك وصاح بغضب متأجج: كيف حدث هذا؟ ماذا سمع والذي؟ من كان يحمل الأخبار

مشى نحو الباب فناداه حوري: سوبك، سوبك! أين أنت
ذاهب؟ ماذا ستفعل؟

صرخ سوبك من المدخل: سوف أفعل شيئاً ما، هذا واضح،
وسوف أستمتع بفعله.

ولكن أنت يا سوبك، أليس لديك حل؟ سكين تُغرس في قلبها ولن
نستطيع نلك الفتاة إيذاءنا بعد ذلك.

صرخ يحموس: ساتيبي، لن يسامحنا والدي أبداً!

- هذا ما تقوله أنت، ولكنني أقول لك إن جارية ميتة ليست
كجارية حية. عندما تموت يعود قلبه لأبنائه وأولاده. ثم كيف سيرف
طريقة موتها؟ يمكننا أن نقول إن عقرباً لدغتها. إننا معاً في هذا الأمر،
أليس كذلك؟

قال يحموس: والدي سوف يعلم، سوف تخبره حينئذ.

ضحكت ساتيبي وصاحت بهستيرية: أنت حكيم يا يحموس
ورفيق تصلح للاعتناء بالأطفال والقيام بأعمال النساء في المنزل! كأني
لست متزوجة برجل! وأنت يا سوبك، أين شجاعتك وتصميمك؟
أقسم إنني أكثر رجولة منكما أنتما الاثنين.

ثم دارت على أعقابها فخرجت، وتقدمت كيت التي كانت
تقف خلفها خطوة إلى الأمام فقالت بصوت عميق مرتجف: إن ما
تقوله ساتيبي صحيح... إنها أكثر رجولة منكم يا يحموس وسوبك
وآبي! هل سنجلسون هنا دون أن نفعلوا شيئاً؟ ماذا عن أولادنا
يا سوبك؟ هل ندعهم ليجمعوا؟ حسناً، إذا لم تفعلوا شيئاً فسوف
أفعل أنا. ليس بينكم رجل واحد.

وما أن خرجت هي الأخرى حتى نهض سوبك هاتفاً: وحق
الآلهة التسعة إن كيت على حق! هناك عمل من شأن الرجال فعله،
ونحن نجلس هنا نتحدث ونهز رؤوسنا!

الفصل التاسع الشهر الثاني من فصل الشتاء اليوم العاشر

- ١ -

خرجت رينسب إلى الشرفة ووقفت هناك لحظة وهي تحمي عينيها من الوهج المفاجئ. شعرت بالغثيان والارتجاف وملاها شعور بخوف غير محدد، فقالت لنفسها تكرر الكلمات مرة بعد أخرى بشكل آلي: يجب أن أحذر نوفریت... يجب أن أحذرهما!

كانت تستطيع سماع صوتي حوري ويحموس المتداخلين خلفها في المنزل، وكان يعلو صوتهما صوت آبي الصبياني الحاد والواضح هو يقول: إن ساتبي وكيت على حق، نعم! لا رجال في هذه العائلة! ونكنتي في داخلي رجل وإن لم أكن كذلك من حيث العمر. لقد سحرت نوفریت مني وضحكت وعاملتني كالطفل، سوف أربها أنني لست طفلاً، فأنا لست خائفاً أن يغضب أبي. أنا أعرف والدي، إنه مسحور! لقد سلطت سحرها عليه، فإذا ما قتلت فسوف

أسرع آمني إلى الخلف عبر المنزل، فقالت رينيسب موتخة:
كان يجب ألا تخبريه يا حبيبت!

قالت حبيبت: أنت لا تثقين بحبيبت العجوز...

ثم أصبح النعيب في صوتها أكثر وضوحاً وهي تقول: ولكن
حبيبت، العجوز المسكينة، تعرف ماذا تفعل. إن الصبي يحتاج
لبعض الوقت كي يهدأ. لن يعثر على نوفرث في حفول الكتان لأن
نوفرث هنا في المقصورة، مع كاميني.

وأومات برأسها عبر الفناء مرددة بتأكيد مبالغ فيه: مع
كاميني.

لكن رينيسب كالت قد بدأت طريقها إلى الفناء. وجاءت تبي
تحمل الأسد الخشي من البحيرة نحو أمها، فأمسكتها أمها رينيسب
بين ذراعيها. لقد عرفت وهي تحمل الطفلة القوة التي تحرك سائبي
وكبت: كانت هاتان المرأتان تقاتلان من أجل أولادهما!

صرخت تبي: إنك تؤلميني يا أمي.

أنزلت رينيسب الطفلة ومشت عبر الفناء ببطء. كانت نوفرث
وكاميني يفتان معاً في الجانب البعيد من المقصورة، والتفتا حين
افترت رينيسب. تحدثت الأخيرة بسرعة وهي تلهث: نوفرث، لقد
أتيت لأحذرك: يجب أن تكوني حذرة... يجب أن تحمي نفسك!

علت وجه نوفرث نظرة لاهية مزهوية وقالت: إذن فقد بدأت
الكلاب بالنباح!

يعود قلبه لي لأنني الذي يحبه كثيراً. إنكم جميعكم تعاملونني كالطفل
ولكنكم سوف ترون. أجل، أجل، سوف ترون.

وأسرع خارج المنزل فاصطدم برينيسب فكاد بوقعها أرضاً،
فتعلقت بكمه وهي تقول: آبي، آبي، أين أنت ذاهب؟

- أبحث عن نوفرث لأريها كيف تسخر مني.

- انتظر قليلاً. يجب أن تهدأ، يجب ألا يرتكب أحد منا عملاً
متهوراً.

ضحك الصبي باحتقار وردة: متهوراً؟! إنك مثل بحموس...
الحكمة، الحذر، عدم فعل أي شيء على عجلة... إن يحموس امرأة
عجوز وسوبك لا يجيد سوى الحديث والمفاخرة. دعيني أذهب
يا رينيسب...

جذب كمه الكتاني من قبضتها وابتعد صائحاً: نوفرث... أين
نوفرث؟

همست حبيبت التي خرجت من المنزل بسرعة: يا إلهي! هذا
عمل سيء. ماذا سيجل بنا جميعاً؟ ماذا ستقول سيدتي العزيزة؟

سألها الفتى: أين نوفرث يا حبيبت؟

صرخت رينيسب: لا تخبره!

لكن حبيبت كانت قد أحابته: ذهبت إلى الطريق الخلفية، إلى
الأسفل حيث حفول الكتان.

- إنهم في غاية الغضب، وسوف يؤذونك.

هزت نوفريت رأسها وقالت بثقة عالية: لا أحد يستطيع إبدائي، فإن فعلوا فسأخبر والدك فينتقم لي. سوف يعرفون حين يفكرون جيداً كم كانوا أغبياء يهانانهم وأعمالهم المؤذية النافهة... لقد كانوا يلعبون لعبتي طول الوقت!

قالت رينيسب ببطء: إذن فقد خططت لذلك منذ البداية؟ وأنا كنت أشعر بالأسف لأجلك! كنت أظن أننا قسونا عليك. لست آسفة بعد الآن، أظن أنك شريرة يا نوفريت. عندما يحين موعد إنكار الأخطاء يوم الحساب لن تستطيعي القول: "لم أرتكب شيئاً"، ولن تستطيعي القول: "لم تمتد يدي إلى ما ليس لي"، وقلبك الذي سيوزن في المكيال أمام ريشة الحقيقة سوف تميل كفته المائلة بالانحياز.

غضبت نوفريت وقالت: لقد أصبحت مندبنة فجأة! لكنني لم أؤذك أنت يا رينيسب، لم أقل أي شيء ضدك. أسألني كاميني إن كنت لا تصدقيني.

ثم مشت عبر الفناء وصعدت الدرجات إلى الشرفة، فخرجت حينئذ لملاقاتها ودخلت المرأتان المنزل. استدارت رينيسب نحو كاميني وقالت: إذن فأنت من ساعدها على فعل ذلك بنا يا كاميني؟

قال كاميني بلهفة: هل أنت غاضبة مني يا رينيسب؟ فما الذي كان في استطاعتي فعله؟ قبل أن يسافر إمحوتب كلفني بالكتابة بناء على طلب نوفريت في أي وقت تطلب مني فعل ذلك. قولي إنك لا تلوميني يا رينيسب... ما الذي كنت أستطيع فعله؟

- لا أستطيع أن ألومك؛ أظن أنك كنت مضطراً لتنفيذ أوامر والدي.

- لا أحب فعل ذلك يا رينيسب، لم تكن ضدك كلمة واحدة.

- وكأنتي أهتم كثيراً بذلك!

- لكنني أنا أهتم. مهما حاولت نوفريت فلم أكن لأكتب كلمة واحدة من شأنها المساس بك يا رينيسب، أرجوك صدقيني!

هزت رينيسب رأسها بحيرة. كانت النقطة التي يحاول كاميني توضيحها غير مهمة عندها، كانت تشعر بالاستياء والغضب كأن كاميني، وبطريقة ما، قد خيب أملها. ولكنه كان غريباً على أية حال رغم أنه من الأقرباء، كان غريباً أحضره والدها من جزء بعيد من البلاد، وكان كاتباً مبتدئاً أعطي عملاً ونفذه مطيعاً.

ألخ كاميني: لم أكتب سوى الحقيقة؛ لم أكتب الأكاذيب، أقسم لك.

- نعم؛ لم تكن أكاذيب. نوفريت أذكى من ذلك!

كانت إيذا العجوز على حق طول الوقت؛ ذلك الإيذاء الذي مارسه ساتيبي وكيت هو بالضبط ما أرادته نوفريت، فلا عجب أنها كانت تتحول وهي تبسم ابتسامتها القطعية!

قالت رينيسب مطيعةً أفكارها: إنها سيئة، أجل.

فأجابها كاميني مؤكداً: نعم، إنها مخلوقة شريرة!

Chassey

تجدد في غرفة الجلوس أهدأ، ومشت عبرها إلى مؤخرة المنزل حيث جناح النساء. كانت إيزا في زاوية غرفتها تهز برأسها، وكانت خادمتها الصغيرة ترتب أكواباً من ملاءات الكتان، كانوا يخيزون كميات من الأرزفة المثلثة في المطبخ ولم يكن أحد في الجوار.

أطبق هذا القراغ الغريب على صدر رينيسب... أين هم؟

ربما يكون حوري قد ذهب إلى الضريح، وربما يكون يحموس معه أو في الحفول، وربما يكون سوبك وأبي مع القطيع، ولعنهم يعملون في مستودع الحنطة، ولكن أين ساتيني وكيت؟ وأين توفريت؟

كانت رائحة عطور توفريت القوية تملأ غرفتها الفارغة، فوفقت رينيسب عند المدخل تحديق إلى الوسائد الخشبية الصغيرة وصندوق الجواهر وكميات من الأساور الخرزية وخاتم ذي فص على شكل خضساء زرقاء لامعة. عطور، مراهم، ثياب، كتانات... كلها تشير إلى مالكتها توفريت التي تعيش بين ظهراليهم والتي كانت غريبة وكانت لهم عدواً.

تساءلت رينيسب: أين تكون توفريت؟

مشت نحو المدخل الخلفي للمنزل حيث التقت بحينيت فسألته: أين أهل البيت يا حينيت؟ لا أحد في المنزل سوى جدتي! - كيف يمكنني أن أعرف يا رينيسب؟ لقد كنت أعمل، أساعد في الغزل وأهتم بكل الأعمال، لا أملك الوقت كي أذهب لأتشي.

نظرت إليه رينيسب وقالت بفضول: كنت تعرفها قبل أن تأتي هنا، أليس كذلك؟ كنت تعرفها في ممفيس؟

احمر وجه كامبي وبدا مرتبكاً وقال: لم أعرفها جيداً، كنت أسمع بها، كانوا يقولون إنها فتاة تعتر بنفسها... طموحة وقاسية ولا تنسى ولا تسمع.

ردت رينيسب رأسها إلى الخلف بقوة وهنفت بنفاد صبر مفاجئ: لا أصدق ذلك! والدي لن ينفذ ما يهدد به. إنه الآن غضبان ولكنه لا يكون ظالماً هكذا، حين يعود فسوف ينسى.

- حين يعود فسوف تتأكد توفريت من أنه لن يغير رأيه! أنت لا تعرفين توفريت يا رينيسب... إنها في غابة الذكاء وهي غنيدة، وتذكري أنها جميلة جداً.

اعترفت رينيسب: نعم! إنها جميلة.

ونهضت... كانت فكرة جمان توفريت تؤذيها لسبب ما!

- ٢ -

أمضت رينيسب بعد ظهر ذلك اليوم تلعب مع الأطفال، وخفت ذلك من الألم الغامض في قلبها، كان ذلك قبل الغروب بقليل حين وقعت بالانصب تسرح شعرها ولما يردانها التي تجعدت واضطربت، ونساءت بغموض: لم تخرج ساتيني أو كيت كالمعتاد؟

كان كامبي قد غادر الفناء. ومشت رينيسب إلى المنزل، فلم

تسارعت خطواتها حتى قاربت الركض. وقابلتها ساتيبي فجأة؛ لا بد أنها كانت في الضريح. كم كانت طريقة ساتيبي في المشي غريبة... تترنح من جانب لآخر وتتعثر كأنها لا ترى. وعندما رأت رينيسب توقفت ووضعت يدها على صدرها.

فوجئت رينيسب بمنظر وجه ساتيبي فسألتها بلهفة: ما الأمر يا ساتيبي؟ هل أنت مريضة؟

كان صوت ساتيبي وهي تجيبها نعيماً، وكانت عينها تنتقل من جانب لآخر: لا، لا، بالطبع لا.

- كأنك مريضة. هل أنت خائفة؟ ما الذي حدث؟

- ما الذي يمكن أن يحدث؟ لا شيء بالطبع.

- أين كنت؟

- ذهبت إلى الضريح بحثاً عن يحموس. لم يكن هناك، لا أحد هناك.

بقيت رينيسب تحديق إليها. إنها ساتيبي أخرى، فقدت كل حيويتها وثباتها.

- هيا يا رينيسب، فلنعد إلى المنزل.

وضعت ساتيبي يدها المرتجفة على ذراع رينيسب وهي تحثها للعودة من حيث أنت، وما أن لامستها حتى شعرت رينيسب بتمرد مفاجئ وصاحت: لا؛ سوف أذهب إلى الضريح.

قالت رينيسب في نفسها: هذا يعني أن أحدهم خرج ليتمشى. ربما لحقت ساتيبي بيحموس إلى الضريح لكي توبخه أكثر، ولكن أين كانت كبت؟ فليس من عادتها أن تبعد عن أولادها فترة طويلة.

ومرة أخرى عاودها شعور خفي مزعج، وفكرت: أين نوفريت؟

وكان حينئذ قد قرأت أفكارها فأجابتها: نوفريت ذهبت إلى الضريح منذ وقت طويل. حسناً، إن حوري كفء لها...

وضحكت حينئذ ضحكة كريمة وأضافت: إنه ذكي أيضاً. ثم مالت قليلاً إلى رينيسب وقالت: أتسى لو تعرفين كم كنت نعيسة من كل ما يجري! لقد أتتني في ذلك اليوم وأصابع كبت ظاهرة على خدها ووجهها يتزف دماً، ثم طلبت من كاميني أن يكتب وأن أروي ما رأيته، ولم أستطع بالطبع أن أدعي بأنني لم أراه. آه، إنها ذكية! وأنا أفكر طول الوقت في أمك العزيزة...

دفعتها رينيسب بعيداً وخرجت إلى وهج شمس الغروب الذهبية. كانت على المنحدرات ظلال عميقة وبدا العالم رائعاً في ساعة الغروب تلك. تسارعت خطوات رينيسب وهي تصعد الممر المنحدر إلى الضريح لتلجأ إلى حوري كما كانت تفعل وهي طفلة عندما تكسر ألعابها وعندما تخاف أو تقلق. كان حوري كالصخور نفسها؛ صامداً لا يتحرك ولا يتغير!

قالت رينيسب في نفسها مرتبكة: سوف يكون كل شيء على ما يرام عندما أذهب إلى حوري.

- ربما شاهدت أفعى وجفلت... تنام على هذا النمر بعض
الأفاعي السامة في الشمس أحياناً.

أفاح؟ نعم، أفاح. سوبك والأفعى... أفعى ظهرها مكسور
مينة تحت الشمس وعينا سوبك تنوهجان! وفكرت: سوبك...
نوفريت؟

لم راودها شعور مفاجئ بالارتياح عندما سمعت صوت حوري
وهو يسأل: ماذا حدث؟

التفتت بارتياح. كان حوري ويحموس قد صعدا معاً، وكانت
ساتيبي تشرح بلهفة أن نوفريت وقعت على الأغلب عن السلم
الأعلى.

قال يحموس: لا بد أنها صعدت لتبحث عنا. كنت أنا وحوري
خارجين لتري قنوات الري. لقد خرجنا منذ ساعة على الأقل،
وعندما رجعنا رأيناكما تقفان هنا.

قالت رينسب وقد فاجأها أن صوتها اختلف: أين سوبك؟

وشعرت بالتفاته حوري الحادة عند هذا السؤال، وبدا يحموس
محتاراً وهو يقول: سوبك؟ لم أراه طول فترة بعد الظهر، منذ غادر
المنزل غاضباً.

كان حوري ينظر إلى رينسب. ورفعت رينسب عينها فالتفت
عيونها، ثم رأت حوري يشيح بنظرة وينظر ساهماً إلى جسد نوفريت
فعلبت بالتأكيد فيم كان يفكر. وهمس متسائلاً: سوبك؟

- أقول لك: لا أحد هناك.

- أحب أن أنظر إلى النهر وأجلس هناك.

- لكن الشمس في طريقها إلى الغروب والوقت متأخر.

أطبقت أصابع ساتيبي بشكل سيء على ذراع رينسب،
فالتزعت هذه يدها وحتقت: دعيني أذهب يا ساتيبي.

- لا، أرجعي معي.

لكن رينسب أفلتت وتجاوزتها في طريقها إلى الجرف. كان
هناك شيء ما، أجبرتها غريزتها أن هناك شيئاً ما. وتسارعت خطواتها
حتى أصبحت تركض... ثم رأت ذلك؛ رأت كومة غامقة اللون تقع
في ظل الصخرة.

أسرعت حتى صارت بجانب الشيء. ولم يفاجئها المشهد؛
فقد توقعته!

كانت نوفريت ممددة ووجهها مقنوب وجسمها مكسر وملتبس
وعيناها كانتا مفتوحين وقد ايضاً.

انحنى رينسب ولمست الخد البارد المتصلب، ثم وقفت مرة
أخرى تنظر إليها ولا تكاد تسمع ساتيبي التي جاءت خلفها قائلة: لا
بد أنها وقعت... كانت تمشي عبر النمر المنحدر فوقعت.

فكرت رينسب وقالت: أجل، هذا ما حدث؛ لقد وقعت
نوفريت من السلم الأعلى وارتطم جسمها بصخور الكلس!

الفصل العاشر
الشهر الرابع من فصل الشتاء
اليوم السادس

-١-

جلس إمحوتب قبالة أمه إيزا يخاطبها بغضب: كلهم يروون
القصة نفسها!

- وهذا أمر بيعت على الرضا على الأقل.

- الرضا؟ الرضا؟! إنك تستعملين كلمات غريبة!

ضحكت إيزا وقالت: أنا أعرف ما أقوله يا بني.

تحدث إمحوتب بصوت منذر: هل يقولون الحقيقة؟ هذا ما
يجب أن أتأكد منه.

- أنت لست مثل الآلهة لتستطيع معرفة ما في الصدور.

هز إمحوتب رأسه وقال: هل كان حادثاً؟ عليّ أن أضع في

١٠٧

سمعت رينيسب نفسها تقول: آه، لا، لا، لا!

قالت ساتيبي بالحاح مرة أخرى: لقد سقطت عن الممر. إنه
ضيق في الأعلى وخطير...

سويك يحب القتل... "ما أفعله أستمتع بفعله"... سويك يقتل
الأفعى... سويك يلتقي بنوفريت عند هذا الممر الضيق...

سمعت رينيسب نفسها تهمس بوهن: إننا لانعلم!

ثم سمعت صوت حوري الوقور يرحج ويؤيد ما أكدته ساتيبي،
فشعرت بالارتياح وكان عيناً ثقيلاً زُحزح عن كاهلها: لا بد أنها
سقطت عن الممر.

التقت عيناه بعيني رينيسب، وفكرت: هو وأنا نعلم. سوف
نعلم دائماً... وسمعت صوتها وهو يقول مرتعشاً: لقد سقطت عن
الممر.

وكصدي أخير سمعت صوت بحموس الحنون يقاطع موافقاً:
لا بد أنها سقطت عن الممر.

١٠٦

الفتاة معك إلى الشمال؛ لقد أخبرتكَ بذلك في حينه.

- إذن فأنت نعتقدين...

قالت إيزا مؤكدة: أنا أعتقد بما أخبرت به، إلا إذا تعارض ذلك مع ما رأيت بأم عيني أو سمعته بأذني. أظن أنك استجوبت حينيت، فماذا قالت عن الموضوع؟

- إنها متألمة كثيراً لأجلي.

رفعت إيزا حاجبيها وقالت: حقاً؟ إنك تثير دهشتي.

قال إمحوتب بدفء: حينيت تملك قلباً كبيراً.

- بالتأكيد، وتملك لساناً طويلاً أيضاً، وإذا كان ألمها لخسارتك هو رد فعلها الوحيد فيجب أن أعتبر الحادثة أمراً منتهياً بالتأكيد. هناك العديد من القضايا الأخرى التي تتطلب انتباهك.

نهض إمحوتب وقال وهو يستعيد تظاهره بالأهمية: نعم، بالتأكيد؛ يحموس ينتظرنني في القاعة لنتناقش مجموعة من القضايا العاجلة... قرارات عدة بحاجة إلى موافقتي، والأحزان الخاصة لا ينبغي لها أن توقف عجلة الحياة.

أسرع خارجاً، وابتسمت إيزا ابتسامة ساخرة. ثم توجهت وجهها مرة أخرى وتهدت وهزت رأسها.

-٢-

كان يحموس ينتظر والده مع كاميني، وقال يحموس إن

الحسبان أن إعلاني عن نواياي تجاه ناكري الجميل هؤلاء ربما أثار بعض الدعر في نفوسهم.

- نعم، بالفعل؛ لقد أثرت المشاعر. كانوا يتصايحون في القاعة وكان يمكنني أن أسمع ما يقال في غرفتي هنا. وبالمناسبة، هل كانت تلك نواياك حقاً؟

تحرك إمحوتب بقلق وهو يتمتم: لقد كتبت في ساعة غضب، وكانت عائلتي نحتاج أن تتعلم درساً فاسياً.

- أي أنك كنت تخيفهم فقط. أهذا صحيح؟

- أمي العزيزة، هل بهم ذلك الآن؟

- فهمت؛ لم تكن تعلم ماذا تنوي أن تفعل... تفكير مشوش كالمعتاد.

ضبط إمحوتب أعصابه بجهد كبير وقال: إنني أعني - ببساطة - أن هذه اللحظة ذاتها لا بهم الآن. موت نوفرث هو المهم الآن... لكن كان أحد أفراد عائلتي عقوقاً وغير متزن في غضبه بحيث تسؤل له نفسه إيذاء الفتاة فإني لا أعرف ما يجب علي أن أفعل.

- إذن فمن حسن الحظ أنهم جميعاً يروون القصة ذاتها، لم يلمح أي شخص آخر لأمر معاير، أليس كذلك؟

- أهدأ.

- إذن فلم لا تعتبر الحادثة أمراً منتهياً؟ كان عليك أن تأخذ

Chassey

وأعرف أن أية مصاريف في هذا الأمر غير ضرورية قد استهدفت إرضائي فقط، لكنني لست فاحش الثراء والجارية هي مجرد جارية. أظن أننا سنلغي التعاويذ الباهظة الثمن، ثم دعني أرز، هناك طريقة أو طريقان لتقليل المصاريف، فلتقرأ علي فقرات التكاليف يا كاميني.

فتح كاميني ورق البردي، وتهدد بحموس بارتياج.

-٣-

قالت كيت وهي تخرج ببطء من المنزل تجاه البحيرة حيث كان الأطفال يلعبون قريباً من أمهاتهم: كنتِ على حق يا ساتيني... إن جارية ميتة ليست كجارية حية.

نظرت ساتيني إليها وهي شاردة مغمضة عينيها، وسألت رينيسب بسرعة: ماذا تعنين يا كيت؟

- لم تكن الملابس ولا الجواهر، ولا حتى إرث إمحوتب الذي سيؤول إلى أولاده، لم يكن ذلك كله ليكفي الجارية وهي على قيد الحياة، أما الآن فإن إمحوتب مشغول بتخفيض تكاليف الجنازة! فرغم كل شيء: لماذا يضيع أمواله على امرأة ميتة؟ نعم يا ساتيني، لقد كنت محقة فيما قلته.

همست ساتيني: ماذا قلت؟ لقد نسيت.

واقفتها كيت: هذا أفضل. وأنا أيضاً، وكذلك رينيسب.

نظرت رينيسب إلى كيت دون أن تتكلم. كان في صوت كيت

حوري بشرف على أعمال التحنيط والدفن وترتيب المراحل لأعمال الجنازة.

استغرقت رحلة إمحوتب إلى المنزل بعد تسلمه أخبار وفاة توفريت عدة أسابيع، وكانت التحضيرات للجنازة الآن قد شارفت على الانتهاء. عُطِّست الجثة طويلاً في الماء المالح، وأعيدت إلى حالة تشبه مظهرها الطبيعي ودهنت بالزيت والأملاح، ثم لُفَّت بالضمادات وشجيت في تابوتها.

أوضح بحموس أنه جهَّز غرفة دفن صغيرة قرب الضريح الصخري المعد للاحتفاظ بجثة إمحوتب نفسه، ثم تحدث في التفاصيل. وعبر إمحوتب عن موافقته فقال بلطف: لقد تصرفت جيداً يا بحموس... لقد أظهرت قدرة جيدة على الحكم والتصرف وحافظت على هدوئك وورزانتك.

احمَرَ وجه بحموس أمام هذا الإطراء غير المتوقع، وأكمل إمحوتب: آبي ومونتو يطلبان أجراً عالياً للحنيط، فهذه الأوعية من الفخار - مثلاً - غالية الثمن ولا حاجة لمثل هذه المبالغة، هؤلاء المحتفلون الذين وظفتهم عائلة غوفير يظنون أنهم يستطيعون طلب أي سعر خيالي يريدونه... كان سيكلفنا أقل لو أننا ذهبنا إلى شخص أقل شهرة بدلاً من هؤلاء الجشعين.

- كان يتوجب عليّ أن أقرر هذه الأمور في غيابك، وكنت حريصاً أن أولي جاريتك التي تكن لها المعزة كل الاحترام.

أوماً إمحوتب وربت على كتف بحموس: هذا خطأ في الاتجاه الصحيح. أنت - كما أعلم - حريص فيما يختص بالشؤون المالية،

شيء فيه مسحة الوعيد مما أزعج رينيسب؛ فقد كانت تنظر إلى كيت كامرأة غبية ورفيقة وحنوعة لا يؤبه لها، لكنها الآن أخذت دور ساتيبي المسيطرة العدوانية التي أصبحت حنوعة وخائفة.

فكرت رينيسب: إن الناس لا يغيرون شخصياتهم... أم تراهم يفعلون؟

شعرت رينيسب بالحيرة. هل تغيرت كيت وساتيبي خلال الأسابيع الأخيرة أم كان التغير في الأولى نتيجة للتغير في الأخرى؟ هل أصبحت كيت عدوانية أم أنها تبدو كذلك بسبب انهيار ساتيبي المفاجئ؟

تبدو ساتيبي مختلفة بالتأكيد؛ لم يعد صوتها مرتفعاً سليطاً. كانت تتحول حول الفناء والمنزل وهي تمشي بعصبية وانكماش يخالف سلوكها السابق.

أرجعت رينيسب هذا التغير إلى الصدمة الناتجة عن وفاة نوفريت، لكن المدهش أن تستمر طول هذه الفترة. لم تستطع رينيسب أن تمنع نفسها من التفكير في أنه كان من المتوقع من شخصية كشخصية ساتيبي أن تفرح وتهنئ علانية لموت الجارية المفاجئ المبكر، ولكنها كانت تنكمش بعصبية كلما ذكر اسم نوفريت. حتى يحموس بدا مستثنى من توبيخها وتسلطها، فبدأ هو بسلك سلوكاً أكثر ثقة وتصميماً. وعلى أية حال فقد كان التغير الذي أصاب ساتيبي نحو الأفضل، أو هكذا ظنت رينيسب.

ورغم ذلك فإن شيئاً في هذا الأمر جعل رينيسب تشعر بعدم الارتياح.

فجأة - وقد جفلت - أدركت رينيسب أن كيت كانت تنظر إليها وهي متجهمة، تنتظر موافقة على شيء قالت، ثم عادت لتقول: رينيسب نسبت أيضاً.

فجأة شعرت رينيسب بموجة من التمرد تجتاحها! كيف تملئ كيت أو ساتيبي أو أي شخص آخر عليها ما يجب أن تذكره أو تساء؟ وردت على نظرة كيت بتحدٍ وثبات، فقالت كيت: يجب على النساء في هذا المنزل أن يقفن متضامناً.

استرجعت رينيسب صوتها، فقالت بوضوح وتحدٍ: لماذا؟
- لأن مصالحيهن واحدة.

هزت رينيسب رأسها بعنف نافية هذه الفكرة وفكرت بارتباك: "إنني شخص مثلما أنا امرأة، أنا رينيسب". ثم قالت بصوت مرتفع: ليس الأمر بمثل هذه البساطة.

- هل تريدان إثارة المتاعب يا رينيسب؟

- لا، ولكن ماذا تعين بالمتاعب؟

- من الأفضل نسيان كل ما قلناه في ذلك اليوم في القاعة الكبرى.

ضحكت رينيسب وقالت: أنت غبية يا كيت، ولكن الخدم والعييد وجدتي وحيثيت قد سمعوا الحديث... لماذا تظاهرين بأن الأمور لم تحدث وقد حدثت؟

قالت ساتيبي بفتور: كنا غاضبات ولم نعلم ما قلناه. كفي عن

كانت الشمس قد غربت عندما رآها حوري وهو يمر عبر
الفتاء، فجاء وجلس بجانبها وهو يقول: الوقت متأخر يا رينيسب،
الشمس تغرب. يجب أن تدخلني إلى البيت.

هدأها صوته الرزين الهادئ كالمعتاد، فالتفت نحوه تسألته:
هل يجب أن تنصامن نساء البيت الواحد معاً؟

- من يقول هذا يا رينيسب؟

- كيت وساتبيي.

- وأنت؟ تريدان الاستقلال بتفكيرك؟

- آه، تفكيري! لا أعرف كيف أفكر، كل شيء مشوش في
عقلي... الناس مشوشون... كل شخص مختلف عما كنت أظنه. كنت
أظن دائماً أن ساتبيي صريحة وثابتة ومسيطر، لكنها الآن ضعيفة
ومتردة، بل خانعة. فأية واحدة إذن هي ساتبيي الحقيقية؟ لا يمكن
أن يتغير الناس هكذا بين عشية وضحاها!

- ليس في يوم! نعم.

- وكيت التي كانت دائماً خنوعة تسمح للجميع بالسيطرة عليها
تسيطر هي الآن علينا جميعاً! حتى يحموس يبدو مختلفاً، يصدر
الأوامر ويتوقع الطاعة!

- وكل ذلك بربك يا رينيسب؟

- نعم، لأنني لا أفهم أحداً. حتى حينئذ أشعر أحياناً أنها
مختلفة تماماً عن مظهرها!

المحدث في الأمر يا كيت، إذا كانت رينيسب تريد إثارة المتاعب
فدعها.

سخطت رينيسب وقالت: لا أريد إثارة المتاعب، لكن من
الغباء أن نتظاهر.

كيت: بل إنها حكمة، يجب عليك التفكير في تبتى.

- تبتى بخير.

ابتسمت كيت وقالت: كل شيء بخير الآن وقد ماتت
نوفريت.

كانت ابتسامة هادئة راضية. ومرة أخرى شعرت رينيسب بشيء
من الثمرد، لكن كلام كيت كان صحيحاً رغم ذلك: "الآن وقد ماتت
نوفريت أصبح كل شيء على ما يرام!"

ساتبيي، وكيت، وهي، والأطفال... كلهم آمنون يعيشون
بسلام دون خوف من المستقبل، فقد غادرت الغريبة المتطفلة
المزعجة إلى الأبد. ولم تقدر رينيسب على تفسير هذه المشاعر
الغريبة التي تضايقها. لماذا هذا الإحساس بالطولة في الدفاع عن فتاة
ميتة لم تحبها، فتاة كانت شريرة وماتت؟ لماذا تشفق الآن عليها؟ إن
الذي تشعر به هو شيء أكثر من الشفقة، لعله الخوف من الآتي.

هزت رينيسب رأسها بحيرة، ثم جلست قرب البحيرة بعد أن
دخل الآخرون لتخفف من اضطرابها وتحاول - بلا نجاح - تفسير
هذا الاضطراب والغموض في عقلها ونفسها.

- آه! لا! لم تكن هناك حاجة...

- أرايت؟ لقد قلت ذلك بلسانك؟ تلك هي كلمة الحقيقة: الحاجة. إنك لست كما كنت تبدين يوماً، الطفلة السعيدة غير الأبوة التي كانت تنفيل الأمور كما هي في ظاهرها، ولست مجرد واحدة من نساء المنزل، بل أنت رينيسب التي تريد أن تفكر في نفسها وتتساءل بشأن الآخرين.

قالت رينيسب ببطء: كنت أتساءل بشأن نوفريرت...

- عمم كنت تتساءلين؟

- كنت أتساءل: لِمَ لا أستطيع نسيانها؟ كانت سيئة وقاسية وحاولت إيذاءنا، ثم ماتت. لِمَ لا أستطيع ترك الموضوع عند هذا الحد؟

- ألا تستطيعين ترك الأمر عند هذا الحد؟

- نعم؟ إنني أحاول ذلك، ولكنني...

سكنت ووضعت يدها على عينيها بحيرة، ثم استأنفت: أشعر أحياناً أنني أعرف عن نوفريرت يا حوري.

- تعرفين؟ ماذا تعرفين؟

- لا أستطيع شرح ذلك، ولكن ذلك يراودني بين الحين والآخر. كأنها هنا، بجانبني... أشعر كأنني هي، أحس بما كانت تشعر هي به. كانت تعيسة يا حوري، أنا أعلم ذلك الآن رغم أنني

ضحكت رينيسب كأنها تضحك من أمر تافه، لكن حوري لم يضحك معها، بل ظل وجهه متجهماً وهو يفكر: إنك لم تفكري كثيراً في الناس من قبل، أليس كذلك يا رينيسب؟ لو كنت قد فكرت لأدرت...

وسكنت قليلاً ثم قال: هل تعرفين أن في كل القبور باباً زائفاً غير حقيقي.

حدقت إليه رينيسب وقالت: نعم.

- حسناً، والناس يتصرفون كذلك؛ يستخدمون مظاهر خادعة غير حقيقية. إذا كانوا يشعرون بالضعف وعدم الكفاءة فإنهم يخلقون باباً من الثقة بالنفس والتهديد والوعيد والسلطة الهائلة، ثم يصدّقون هم أنفسهم - بعد فترة - هذا المظهر الزائف الذي أليسوا لأنفسهم ويظن الجميع أنهم كذلك، لكن الأحداث والمواقف تكشفهم لأن الحقيقة صخرة ثابتة لا بد أن تظهر. كبت حقت بالرقعة والخضوع كل ما تريد... زوجاً وأطفالاً. لقد سهّل الغياب الحياة بالنسبة لها، ولما هدّدها الواقع على شكل خطر داهم ظهرت على حقيقتها. إنها لم تتغير يا رينيسب؛ لقد كانت تلك القوة والقسوة موجودة دائماً.

قالت رينيسب بصيانية: لكنني لا أحب ذلك يا حوري؛ فهو يجعلني أشعر بالخوف. الجميع يختلفون عما كنت أظنهم عليه. وماذا عني؟ أنا دائماً مثلما أنا.

ابتسم حوري وقال: هل أنت كذلك؟ إذن لماذا جلست هنا كل تلك الساعات وأنت مقلّبة الجبين تفكرين وتكتئين؟ هل كانت رينيسب القديمة، رينيسب التي ذهبت مع خاي تفعل ذلك؟

- ولكنني أظن يا رينيسب أنه من الأفضل أن تقولها طالما أنها في رأسك، أنت تظنين ذلك؟

- أنا؟ نعم.

أحني حوري رأسه مفكراً وتابع: وأنت تظنين أن سوبك هو الذي فعل ذلك؟

- ومن غيره؟ أنت تذكره مع الأفعى، وأنت تذكر ما قاله ذلك اليوم، يوم وفاتها قبل أن يغادر القاعة الكبرى؟

- أذكر ما قاله؛ أجل، لكن أكثر الناس أقوالاً ليسوا عادة أكثرهم أفعالاً.

- ولكن ألا تعتقد أنها قد قُلت؟

- بلى يا رينيسب، أظن ذلك. ولكن هذا مجرد رأي، ليس لدي أي دليل، ولا أظن أنه سيتوفر أي دليل أبداً. ولذلك شجعت إمحوتب على أن يقبل الحكم بأن الأمر حادثة. لقد دفع أحدهم نوفريت ولن نعرف من هو أبداً!

- اتعني أنك لا تظنه كان سوبك؟

- لا أظن، ولكننا كما قلت: لن نعرف أبداً، فمن الأفضل ألا نشغل بالنا.

- فإذا لم يكن سوبك فمن تظنه؟

لم أدرك ذلك في حينه، ولم تكن تريد إيذاءنا جميعاً إلا بسبب تعاستها تلك.

- لا يمكنك معرفة ذلك يا رينيسب.

- بالطبع لا أعرف ذلك، لكن هو ما أشعر به. ذلك الشقاء وتلك المرارة والحقد الأسود، رأيت في وجهها ذات مرة ولم أفهمه! لا بد أنها أحببت شخصاً ما ثم حدث خطأ ما، ربما مات أو ذهب بعيداً، لكن الحوادث جعلها تريد إيذاء الناس وجرحهم. يمكنك قول ما تريد لكنني أعلم أنني على حق. لقد أصبحت جارية لذلك العجوز والدي، وقد أنت هنا ونحن كرهناها، ففكرت بجعلنا نساء مثلها... أجل، هكذا كان الأمر.

نظر حوري إليها بفضول: تبدين واثقة يا رينيسب، لكنك لم تعرفي نوفريت جيداً.

- ولكنني أشعر أنني مصيبة يا حوري. إنني أشعر بنوفريت، وأحياناً أجدها بجاني تماماً.

- فهمت.

توقفاً عن الحديث ومرت فترة صمت، وخيم الظلام على المكان، ثم قال حوري يهدوء: أنت تظنين أن نوفريت لم تمت بطريق الصدفة بل ألقيت إلى الأسفل؟

شعرت رينيسب بمقت جارف لسماع رأيها يُصاغ في كلمات محددة، فقالت: لا، لا؛ لا تقلها.

Charney

الفصل الحادي عشر الشهر الأول من فصل الصيف اليوم الحادي عشر

- ١ -

انتهت المراسم النهائية وتُلبت التعاويذ، وأخذ مونتو كاهن
هاثور مكنسة أعشاب هيدن فكنس الغرفة جيداً فيما كان يثلو بعض
التعاويذ لإزالة آثار الأرواح الشريرة قبل أن يغلق الباب للأبد. ثم
أغلق باب القبر ووضع كل ما نقى من آثار تدل على المحتلطين:
الأوعية المملوءة بالأملاح والخرق التي لامست الجثة في غرفة
صغيرة مجاورة تم إغلافها أيضاً.

جعل إمحوتب كتفيه على شكل زاوية قائمة وأخذ نفساً عميقاً
وقد اختفت من وجهه علامات الخشوع التي كانت تقتضيها الجنائز،
وتم دفن نوفريت حسب العقوس المقررة دون اقتصاد في النفقات
(النفقات غير الضرورية في رأي إمحوتب).

وتبادل إمحوتب أمجاملات مع الكهنة الذين انتهت وظيفتهم

١٢١

هز حوري رأسه وقال: لئن كنت لدي فكرة فإنها تحتمل
الخطأ، ولذلك فمن الأفضل عدم القول.

قالت رينيسب باستياء: ولكننا لن نعرف أبداً.

تردد حوري ثم قال: ربما يكون ذلك أفضل شيء.

- عدم المعرفة؟

- عدم المعرفة، نعم.

ارتجفت رينيسب وقالت: إنني خائفة يا حوري!

www.lilias.com

١٢٠

النهاية؛ فأحياناً يكون ما نتخيله نهاية مجرد بداية، وهو أمر سيئ تماماً.

قالت رينيسب بغضب: ما الذي تتحدثين عنه يا حبيبت وإلي أي شيء تلمحين؟

- أنا لا ألتح يا رينيسب، لا أفعل شيئاً مثل هذا. لقد دُفنت نوفرث والكل راضون، فالأمور على ما يرام.

- هل سألتك والدي عن رأيك في وفاة نوفرث؟

- نعم، بالتأكيد يا رينيسب، وكان حريصاً أن أخبره رأيي.

- وبم أخبرته؟

- قلت إن الأمر كان حادثة. وماذا يكون غير ذلك؟ وقلت: لا يمكن أن يؤدي أحد من أفراد عائلتك الفتاة، فهم لا يجرون على ذلك، إنهم يحترمونك كثيراً. ربما يتدمرون، ليس أكثر من ذلك... وقلت له: صدقتي لا يوجد شيء من ذلك القبيل!

هزت حبيبت رأسها وضحكت.

- وهل صدقت والدي؟

هزت حبيبت رأسها مرة أخرى برضا: والدك يعلم كم أنا مخلصة لمصالحه، وسوف يصدق دائماً ما نقوله حبيبت العجوز. إنه يقدرني ولو لم يقدرني أحد منكم، وعلى أية حال فأخلاصي لكم هو جائزة في ذاته، ولا أنتظر الشكر.

المقدسة الآن واستعادوا سلوك الرجال العاديين، ورجع الجميع إلى المنزل حيث كانت المرطبات في انتظارهم. وتناقش إمحوتب والكاهن في التغييرات السياسية الحديثة. كانت طيبة تتقدم بسرعة لكي تصبح مدينة قوية، ومن المحتمل أن تتوحد مصر مرة أخرى في ظل حاكم واحد خلال فترة وجيزة، وربما يعود العصر الذهبي لبناء الأهرام.

تحدث موتو باحترام وإعجاب عن الملك نيحيت، قال: ... جندي من الطراز الأول، ورجل وريح أيضاً، ولن يستطيع الشمال الفاسد الجبان أن يقف في وجهه. نحتاج إلى مصر موحدة، وسوف يعني ذلك مستقبلاً مضيئاً لطيبة.

نظرت رينيسب خلفها إلى الصخرة وغرفة القبر المغلق، وهمست: إذن فهذه هي النهاية!

وانتابها شعور بالارتياح. كانت تخشى أمراً لا تعرف كنهه... ربما خشيت انفجاراً أو اتهاماً يحدث في آخر لحظة، لكن كل شيء جرى بهدوء يستحق الثناء. دُفنت نوفرث وتُليت عليها التعاويذ الدينية كافة، وكانت النهاية.

قالت حبيبت بصوت خفيض: أرجو ذلك... أرجو ذلك حقاً يا رينيسب!

التفت رينيسب إليها متسائلة: ماذا تعنين يا حبيبت؟

تجنبت حبيبت النظر إليها وقالت: أمل أن تكون هذه هي

وتسلل كأنها... كأنها تخاف من ظليها. لا بد أنك لاحظت ذلك يا رينيسب،

- نعم، لقد لاحظنا ذلك حقاً.

- سألتها إن كانت مريضة وعرضت عليها أن أدعو الطبيب، لكنها قالت إنها لا تعاني من شيء، وإنها على ما يرام.

- أعلم.

- إذن فقد سألتها ولم تقل لك أي شيء؟

أكدت على سؤاله، وتعاطفت رينيسب معه بقلق لكنها لم تستطع قول أي شيء لمساعدته.

قال يحموس: إنها تصر على أنها بخير، لكنها لا تنام في الليل جيداً وتصرخ في نومها، فهل تعاني من محنة لا نعرف عنها شيئاً؟

هزت رينيسب رأسها وقالت: لا أستطيع أن أرى إمكانية ذلك، فالأطفال على ما يرام ولم يحدث شيء هنا سوى موت نوفريت، ولا يمكن أن تحزن ساتيبي بسبب هذا الأمر.

ابتسم يحموس ابتسامة باهتة وقال: بالتأكيد، بل العكس تماماً، بالإضافة إلى أن هذا التغيير بدأ معها قبل موت نوفريت كما اعتقد.

كانت نيرة صوته غير واثقة، ونظرت إليه رينيسب بسرعة. قال يحموس بالحاح: قبل موت نوفريت، ألا نظنين ذلك؟

- ولكنك كنت مخلصاً لنوفريت أيضاً.

- لماذا نظنين ذلك يا رينيسب؟ كنت مضطراً لإطاعة الأوامر مثل غيري.

- كانت تظنك مخلصاً لها.

ضحكت حينئذ مرة أخرى وقالت: لم تكن نوفريت ذكية كما كانت تظن نفسها... فتاة واثقة بنفسها وتظن أنها تمتلك الأرض. حسناً، إنها الآن أمام العالم الآخر لتحاسب، ولن يساعدها وجهها الجميل. وعلى أية حال فقد تخلصنا منها.

ثم خفضت صوتها وقالت وهي تلمس إحدى التعاويذ التي كانت تعلقها: أتمنى ذلك على الأقل!

-٢-

- رينيسب، أريد الحديث إليك بشأن ساتيبي.

- أجل يا يحموس؟

نظرت رينيسب بتعاطف إلى وجه أخيها الرقيق القلق، قال يحموس ببطء وحزن: سلوك ساتيبي غامض، لا أستطيع أن أفهمها.

هزت رينيسب رأسها بحزن وعجزت عن قول شيء يخفف عنه، وقال يحموس: لقد لاحظت هذا التغير فيها منذ مدة. إنها تجف وتترجف عند سماعها أي صوت غريب، ولا تأكل جيداً،

انزعج بحموس قليلاً، وقال: إيزا تطلب مني أن أكون شاكراً لهذا التغيير وأن أمل في استمراره.

ترددت رينيسب ثم قالت: وهل سألت حينيت؟

تجهم بحموس وقال: حينيت؟ لا، بالتأكيد لن أتحدث مع حينيت في أمر كهذا. يكفيها ما لديها من غرور؛ لقد أفسدها والدي.

- نعم، أعلم ذلك. إنها مملّة، لكن رغم ذلك... حسناً، حينيت تعلم ما يجري دائماً.

- هل يمكنك سؤالها يا رينيسب وإخباري بما تقوله؟

- سأفعل إن أحببت.

أخبرت رينيسب سؤالها حتى استطاعت الاختلاء بحينيت في غرفة الحياكة، وأدهشها أن هذا السؤال جعل حينيت تشعر بعدم الارتياح ولم تستجب لجشعها المعتاد في الاستغابة. لمست حينيت إحدى التماويذ التي ترتديها ونظرت خلفها قائلة: لا شأن لي بالموضوع... ليس من شأني ملاحظة ما إذا كان أي شخص على سجيته أم لا؟ إنني أهتم بشؤوني فقط، إذا كان ثمة مشكلة فلا أحب أن أتورط فيها.

- مشكلة؟

رمتها حينيت بنظرة سريعة بطرف عيناها وقالت: لا مشكلة تهمنا، على أية حال فليس لدينا - أنا وأنت يا رينيسب - ما نوثخ أنفسنا بشأنه، وهذا يريحني كثيراً.

- لم ألاحظه إلا بعد وفاتها.

- ولم تقل لك أي شيء؟ هل أنت واثقة؟

هزت رينيسب رأسها بالثفي وقالت: أتعلم يا بحموس؟ لا أظن أن ساتيبي مريضة. كأنها تبدو لي خائفة!

هتف بحموس بدهشة كبيرة: ولماذا تكون ساتيبي خائفة؟ ومم تخاف؟ كانت ساتيبي دائماً شجاعة كاللبوة.

- أعلم ذلك، ولكن الناس يتغيرون. هذا غريب.

- أتظنين أن كيت تعلم شيئاً؟ هل تحدثت ساتيبي إليها؟

- من المرجح أنها ستحدث إليها أكثر مني، ولكن لا أظن ذلك، بل أنا واثقة أنها لم تتحدث معها.

- وماذا تظن كيت؟

- كيت؟ إنها لا تفكر في أي شيء.

كانت رينيسب ترى أن كل ما فعلته كيت هو استغلال ضعف ساتيبي غير المعتاد للحصول على أحسن الملاءات الجديدة لنفسها ولأطفالها، وهو شيء لم يكن ليُسمح لها بفعله لو أن ساتيبي كانت على طبيعتها وكان المنزل سيوضح بالتزايدات الحادة، فسلمت ساتيبي بالأمر تماماً.

قالت رينيسب: هل تحدثت مع إيزا؟ جدتنا تعرف كثيراً عن النساء وعللهن.

- اتعنين أن ساتيبي... ماذا تعنين؟

- لا أعني أي شيء يا رينسب، وأرجوك ألا تفهمي أنني أعني شيئاً. أنا أفضل بقليل من خادمة في هذا المنزل، وليس من شأني إعطاء رأيي في أمور لا تهمني، إذا سألتني فإن هذا التغيير هو الأفضل، وإذا توقف الأمر عند هذا الحد فإنه جيد. ولأن أرجوك يا رينسب، يجب أن أتأكد أنهم يضعون التاريخ المناسب على الملاحظات. أولئك النساء مهملات... دائماً يتحدثن ويضحكن ويهملن عملهن!

واقبتها رينسب غير مفتحة بإجاباتها وهي تغادر غرفة الحياكة، ثم مشت بعضه إلى المنزل فدخلت بهدوء إلى غرفة ساتيبي، وارتدت ساتيبي صارخة عندما لمست رينسب كتفها: لقد أخفيتني، لقد ظننت...

- ما الأمر يا ساتيبي؟ ألا تريدين إخباري؟ إن يحموس قلق من أجلك و...

رفعت ساتيبي أصابعها إلى شفتيها وقالت وهي تتلعثم بعصبية وعيناها متسعان خائفتان: يحموس؟ ماذا... ماذا قال؟

- إنه قلق، لقد كنت تصرخين في نومك.

أمسكتها ساتيبي من ذراعها وسألتهما بقلق: رينسب، هل قلت... ماذا قلت؟

بدت عيناها متسعيتين من الخوف وقالت: هل يظن يحموس...؟ ماذا أخبرك؟

- أنا ويحموس نظنك مريضة... وتعبة.

- تعبئة؟

- أنت كذلك يا ساتيبي؟

- ربما، لا أعرف. الأمر ليس كذلك.

- أنت خائفة، أليس كذلك؟

حدقت ساتيبي إليها وفي عينيها عداوة مفاجئة وقالت: لماذا تقولين هذا؟ ممّ أخاف؟ ما الذي سيخيفني؟

- لا أعلم، لكن ذلك صحيح، أليس كذلك؟

بجهد كبير استعادت ساتيبي شخصيتها القديمة وألقت برأسها إلى الوراء وصاحت بصوت مرتفع: لست خائفة من أي شيء ولا من أي شخص. كيف تقولين هذا الكلام يا رينسب؟ لن أسمع لك بالتحدث عني مع يحموس. أنا ويحموس متفاهمان... نوفريت ميتة وخلاصنا منها أمر جيد، هذا ما أقوله. أخبري أي شخص يسألك بأن هذا هو ما أشعر به.

- نوفريت؟

غضبت ساتيبي فجأة، فكأنما عادت إلى طبيعتها: نوفريت... نوفريت... نوفريت! لقد مللت من سماع هذا الاسم. لا تريد سماع هذا الاسم في هذا المنزل بعد الآن، والحمد لله على خلاصنا منها.

انخفض صوتها فجأة مع دخول يحموس الذي قال بقسوة غير

Chasey

ضرباً، فهذا ما تحتاجه؟ فهي من النوع من النساء الذي يستمتع بذلك ولا بد أن يحموس بخنوعه وضعفه كان تجربة كبيرة بالنسبة إليها.

صرخت رينيسب بحدة: يحموس عزيز ولطيف بالجميع، وهو رقيق كالمرأة... إن كانت النساء رقيقات.

قالت الكلمات الأخيرة مشككة، وضحكت إيذا قائلة: استدرارك جيد يا حقيدي. ليست النساء وديعات، وليحيهن إيزيس إن كن كذلك! قلة من النساء من يحبين الأزواج العطوفين اللطفاء؛ المرأة - عادة - تحب رجلاً قوياً مثل سوبك أو فتى ذكياً يجيد الغناء الجميل ويختار أجمل قصائد الحب مثل كاميني، أليس كذلك؟

توردت وجتا رينيسب لكنها حاولت أن تمالك نفسها وقالت بحدة: لا أعرف ماذا تعنين؟

نظرت إيذا إلى رينيسب بعينها شبه العمياوين وقالت: كلكم تظنون أن إيذا العجوز لا تعرف ما يجري، لكنني أعرفه جيداً... ربما أعلم بالأمر قبل أن تعلموه أنتم يا ابنتي. لا تغضبي، هكذا الحياة يا رينيسب. كان خاي زوجاً جيداً لك ولكنه يحرق بقاربه الآن في بحور القرايين، وسوف تعثر الأخت على أخ آخر يضطاد سمكة في أنهار هذه الحياة الدنيا، ولا يعني هذا أن كاميني سوف يكون نافعاً، فريشة الحجر ولقافة البردي هي حلمه... إنه شاب جذاب ويملك ذوقاً جيداً في الأغاني، ولكنني لست واثقة - لهذا السبب - أنه الرجل المناسب لك. نحن لا نعرف كثيراً عنه، فهو من الشمال. ورغم أن إسحوتب راضٍ عنه إلا أن إسحوتب غمي وقد يخدعه أي شخص بالبنفاق والرياء. انظري إلى حيثيت مثلاً...

معتادة: اسكتي يا ساتيبي، لو سمعتك والدي لتجددت المتاعب. كيف يمكنك التصرف بمثل هذا الغباء؟

ولئن كانت قسوة يحموس واستياؤه أمراً غير طبيعي، فكذلك كان انهيار ساتيبي الخانع؛ فقد همست: أنا أسفة يا يحموس.

- حسناً، كوني أكثر حذراً في المستقبل. لقد أثرت أنت وكيت معظم المتاعب من قبل، أنتن النساء ليس عندكن إحساس...

همست ساتيبي مرة أخرى. إنني أسفة!

خرج يحموس وقد اتخذت كنفاه شكلاً مربعاً، وكانت مشبه أكثر ثباتاً من المعتاد كأن حقيقة كونه فرض سلطته مرة أخرى قد أفادته.

مضت رينيسب ببطء إلى غرفة إيذا أمله أن تجد عند جدتها راباً يساعدها، لكن إيذا التي كانت تأكل العنب باستمتاع رفضت أن تأخذ الأمر بجديّة. قالت: ساتيبي؟ ساتيبي؟ لم كل هذه الحيلة بشأنها؟ هل تحبون أن تسيطر عليكم؟ ولماذا تثيرون ضجة لأنها تصرفت تصرفاً صحيحاً مرة في حياتها؟ لقد عاد يحموس إلى رشده. وعلى أية حال فالأمر ممتاز هكذا، وأخشى أن لا يستمر ما لم يحافظ يحموس عليه.

- يحموس؟

- نعم؛ أتمنى أن يكون يحموس قد عقل أخيراً وأوسعها

قالت رينيسب بحدة: أنت مخبطة تماماً.

- حسناً، أنا مخبطة، فوالدك ليس غيباً.

- لم أعن ذلك، عنت...

تجهمت إيزا وقالت: أعلم ما تعنين يا ابنتي. لكنك لا تعرفين. لا تعرفين أهمية أن تجلسي باسترخاء مثلما أفعل أنا خالية الذهن من موضوع الإخوة والأخوات هذا ومن الحب والكره، وتأكلي طير السمّان المطهو جيداً ثم كعكة بالعمل وبعض الكرات والكرفس مع العنب السوري ولا تهتمي بالعالم حولك، ولا تنظري إلى كل المشكلات والألام وتعلمي أن أياً منها لن يؤثر فيك بعد الآن، وتري ابنك يجعل من نفسه أضحوكة لأجل فتاة جميلة وترهبها تنفيذ الأمور كما تريد... ذلك يجعلني أضحك. اسمعي، لقد أحببت تلك الفتاة رغم أنها كانت تحمل الشر في داخلها. أجل، الطريقة التي جرحت بها نقاط ضعفهم الواحد نلو الآخر. سوبك مثل البالون المثقوب، وأبي الطفل ويحموس الممزج كزوج مضطهد... كان مشهداً يشبه النظر في صفحة بركة صافية واضحاً ودقيقاً. لقد جعلتهم يرون أشكالهم الحقيقية كما يراهم العالم كله. ولكن لماذا كرهتك أنت يا رينيسب؟

قالت رينيسب يشك: هل كانت تكرهني؟ حاولت ذات مرة أن تكون صديقتين.

- ورفضت؟ لقد كرهتك حقاً يا رينيسب.

سكنت إيزا وفكرت قليلاً، ثم قالت: هل يكون ذلك بسبب كاميني؟

تصاعدت الدماء إلى وجه رينيسب وقالت: كاميني؟ لا أعرف ماذا تقصدين.

فكرت إيزا: هي وكاميني كلاهما من الشمال، ولكنك كنت أنت التي استحوذت على اهتمام كاميني.

قالت رينيسب بسرعة: يجب أن أذهب لرؤية تيتي.

أسرعت رينيسب وخداها يلتهبان عبر الفناء إلى البحيرة، ولحقت بها ضحكة إيزا الحادة المسرورة.

ناداها كاميني من الشرفة: لقد نظمت أغنية جديدة يا رينيسب، هل تسمعيتها؟

هزت رأسها بالرفض وأسرعت. كان قلبها يخفق بغضب... كاميني ونوفريت، نوفريت وكاميني! لماذا تسمح لإيزا العجوز - بحبها الخيبت للخصام - أن تضع مثل هذه الأفكار في رأسها؟ ولماذا تهتم؟ على أية حال فمماذا يهم؟ إنها لم تكن تهتم بكاميني أبداً... فتى طارئ ذو صوت ضحوك وكتفين تذكيرانها بخاي.

خاي... خاي!

كررت اسمه بالحاج، لكن صورته - لأول مرة - لم تظهر أمامها بوضوح. كان خاي في عالم آخر، كان في حفول القرايين!

- رينيسب...

كرر حوري اسمها مرتين قبل أن تسمعه وتقطع تأملاتها في النيل.

- كنت مستغرقة في التفكير يا رينيسب؟ فيم كنت تفكرين؟
- كنت أفكر في خاي.

قالتنا بنحدر، فنظر حوري إليها لحظات ثم ابتسم وقال:
فهمت.

بدت على رينيسب علامات القلق التي رآها حوري، وقالت بسرعة مفاجئة تخاطب حوري: ماذا يحدث لعمري عندما يموت؟ أيعلم أحد فعلاً؟ كل تلك النصوص وكل تلك الأشياء التي كتبت على التوابيت بعضها في غاية الغموض كأنها لا تعني أي شيء... الأمر محير.

أوما حوري بلطف فقالت منسائلة: فما الذي يحدث حقاً عندما نموت؟

- لا أستطيع إخبارك يا رينيسب؛ يجب أن تسأل أحد الكهنة تلك الأسئلة.

- سوف يجيبني بالأجوبة المعهودة، أريد أن أعرف.

- لن يستطيع أي منا المعرفة حتى نموت شخصياً.

ارتجفت رينيسب وقالت: لا تقل ذلك.

- هل أزعجك شيء ما يا رينيسب؟

صمتت رينيسب ثم قالت: نعم، أزعجتني إيزا، ولكن أخبرني يا حوري: هل... هل كان كاميني ونوفريت يعرفان بعضهما بعضاً جيداً قبل أن يأتيا هنا؟

وقف حوري صامتاً لحظة، ثم قال وهو يمشي إلى جانب رينيسب وهما في طريق العودة إلى المنزل: فهمت، إذن هذا هو الأمر.

- ماذا تعني بقولك: "هذا هو الأمر"؟ سألتك سؤالاً فقط.

- لا أملك له جواباً. نوفريت وكاميني كانا قد تعارفا في الشمال، أما مدى المعرفة فلا أدري، وهل يهم ذلك؟

- لا؛ بالطبع لا. الأمر ليس بذي أهمية قط.

- نوفريت ميتة.

- ميتة ومحنطة ومخترم عليها في قبرها، وهذا هو الأمر.

حوري بهدوء: وكاميني لا يبدو عليه الحزن.

قالت رينيسب وقد ضدمت لهذه الفكرة: نعم، ليس حزناً...

آه يا حوري، أنت رجل طيب!

ابتسم وقال: لقد أصلحت أسد رينيسب الصغيرة، والآن لديها

ألعاب أخرى.

وقف الاثنان بنظران إلى يحموس وساتبي اللذين كانا بهيطان من العمر العلوي. وأدركت رينيسب فجأة أنهما يقتربان من البقعة التي سقطت منها نوفريت، وكانت ساتبي متقدمة ويحموس يمشي خلفها بقليل. وفجأة استدارت ساتبي لتكلم يحموس، وفكرت رينيسب... ربما كانت تقول له إن هذا هو المكان الذي وقع فيه الحادث.

وفجأة تضلبت ساتبي في مكانها وتوقفت وكأنها نحمدت تحديق إلى الممر خلف يحموس، وارتفعت ذراعاها كأنها قد رأت منظرًا فظيعاً أو لكي تحمي نفسها من ضربة. وصرخت بشيء ما، ثم تعثرت وتمايلت، ثم أسرع يحموس نحوها... وسمعت صرخة رعب، واندفعت نحو الهاوية متجهة نحو الصخور تحتها.

راقبت رينيسب سقوطها بدهشة... كانت ساتبي مستلقية جثة مكشوفة كما كانت نوفريت من قبل!

نهضت رينيسب وأسرعت إليها، وكان يحموس ينادي ويجري عبر الممر. وصلت رينيسب حيث كانت جثة زوجة أخيها فانحنت عليها، كانت عينا ساتبي مفتوحتين ورموشها ترتعش وشفثاتها تنحركان وهي تحاول الحديث، واقتربت رينيسب منها أكثر فراعتها نظرة الرعب في عيني ساتبي.

ثم أتى صوت المرأة المحتضرة، كان صوتها نعيماً أجش: نوفريت...

مال رأس ساتبي إلى الخلف وأغلق فمها. ودار حوري لملاقاة يحموس، وصعد الرجلان معاً، ثم التفتت رينيسب نحو أخيها قائلة: ما الذي صرخت به قبل أن تقع؟

حين وصلنا إلى المنزل تجنبت رينيسب الدخول إليه قائلة: لا أريد الدخول بعد؛ أشعر أنني أكرههم جميعاً. لا، ليس حقاً... أنت تفهم، ولكنني عبدة ونافذة الصبر وكل شيء يبدو لي غريباً. ألا يمكننا الصعود إلى الضريح؟ إن المكان جميل جداً ويجد المرء نفسه هناك... فوق كل شيء.

- هذا ذكاء منك يا رينيسب. المنزل والزراعة والمزارع أنفال نافهة تشد الإنسان إلى دائرة ضيقة من الهموم والتفكير، يجب أن تتجاوز الطين والأرض والضحجة إلى النهر ومصر كلها، ومنجد الحياة أجمل وأكثر متعة ونحن نتأمل ونفكر في مصر قوية موحدة كما كانت في الماضي.

- وماذا يهمنا في ذلك؟

ابسم حوري وقال: الأمر لا يهم رينيسب الصغيرة، فهي لا تهتم إلا بأسدها الخشبي.

- إنك تسخر مني يا حوري. إذن فهل يهملك الأمر؟

- لماذا يجب أن يهمني؟ أنا مجرد مدير أعمال الكاهن. لماذا يجب أن أهتم أن تكون مصر عظيمة أو صغيرة؟

أشارت رينيسب إلى الصخرة فوقهما وقالت: انظر.

كان يحموس وساتبي يتزلان عائدتين من الضريح.

- بعض نفاثات الكنان التي لم يستعملها المحتطون... قال يحموس إنه سوف يقلب من ساتبي أن تشير عليه ماذا يفعل بها.

الفصل الثاني عشر الشهر الأول من فصل الصيف اليوم الثاني عشر

- إذن فهذا ما كنت تعنيه؟

أقلت رئيسب تلك الكلمات على حوري تأكيداً لا سؤالاً،
ثم أضافت بخوف ورعب متزايدين: ساتبي هي التي قتلت نوفريت
إذن؟

كانت تجلس في مدخل غرفة حوري الصحرية الصغيرة قرب
الضريح وقد أسندت ذقنها إلى راحتيها تأمل الوادي أسفل منها.
فكرت وكأنها تحلم إلى أي مدى كانت كلماتها صحيحة بالأمس:
أحقاً لم يمض سوى يوم واحد على تلك الأقوال؟ ومن مكانها هنا
على هذا المرتفع بدا لها المنزل والناس المسرعون حوله غير ذي
أهمية أو معنى، تماماً كعش نمل.

وحدهما الشمس في جلال قوتها وإشعاعها، ووحده النيل،
ذلك الشريط المضي الشاحب في ضوء هذا الصباح... وحدهما
الشمس والنيل كانا خالدَيْن باقين. لقد مات حاي وماتت نوفريت

كان تنفس يحموس متقطعاً يكاد لا يستطيع الحديث، قال:
نظرت خلفي، من وراء كتفي، كأنها رأت شخصاً يأتي عبر الممر.
لكن أحداً لم يكن هناك، لم يكن هناك أحد أبداً.

واقفه حوري: لم يكن هناك أحد.

وانخفض صوت يحموس إلى همسة خائفة: ثم صرخت...

- ماذا قالت؟

- قالت... قالت: نوفريت!

Chassey

والقاسية دائماً، ولم تكن تخشى التنفيذ، ومنذ ذلك الحين تحولت إلى ما يشبه الشبح بطريقة حيرتنا جميعاً، لم لم نفكر في التفسير الصحيح؟

نظرت نظرة سريعة إلى الأعلى وقالت: ولكنك فكرت.

- لقد كنت مقتنعاً منذ بعض الوقت بأن مفتاح لغز موت نوفريت يكمن في التغيير العجيب في شخصية ساتيبي. كان التغيير كبيراً ومهماً إلى الحد الذي يؤكد وجود سبب ما له.

- ولكنك لم تقل شيئاً.

- لم يكن في استطاعتي يا رينيسب، فليس لدي دليل. الأدلة يجب أن تكون حقائق صلبة راسخة.

جادلته رينيسب: لكنك قلت - ذات مرة - إن الأشخاص لا يتغيرون حقاً، والآن تعترف بأن ساتيبي قد تغيرت فعلاً.

ابتسم حوري وقال: تصليحين للترافع في محاكم نومارتش! لا يا رينيسب؛ ما قلته كان صحيحاً لأن الأشخاص هم أنفسهم لا يتغيرون: لقد كانت ساتيبي كسوبك، كلها كلمات قوية جريئة، وكان يمكنها فعلاً أن تنتقل من الكلام إلى الفعل، ولكنني أعتقد أنها واحدة من أولئك الذين لا يعرفون الأمور وحقائقها إلا بعد حدوثها، إذ لم يسبق لها - قبل ذلك اليوم - أن خافت من أي شيء. وعندما دهمها الخوف أخذها على حين غرة، فأدرت - وقتها - أن الشجاعة الحقيقية هي الثبات في وجه المجهول، ولم تكن لديها مثل تلك الشجاعة.

وساتيبي، وفي يوم ما سمعت هي ويموت حوري. ولكن النهر سيستمر في فيضانه من متابعه في الجنوب مروراً بطيبة، وبهذا القرية، إلى مصر السفلى حيث عاشت نوفريت سعيدة هائلة، ليصب أخيراً في «المناء العظيم» مودعاً مصر كلها.

ساتيبي ونوفريت... تابعت رينيسب تفكيرها بصوت عالٍ لأن حوري لم يكن يجيبها: هل تعلم؟ كنت واثقة تماماً أن سوبك هو...

ثم قطعت حديثها، فقال حوري وهو يفكر: الأفكار المسبقة.

- ما أغباتي! كان يجب أن أدرك ذلك منذ أخبرتني حيثيت أن ساتيبي خرجت تمشي في هذا الاتجاه وقالت إن نوفريت خرجت قبلها في الاتجاه نفسه، كما كان واضحاً أن ساتيبي قد لحقت بنوفريت وأنهما قد التقتا عند المسر فدفعت ساتيبي بها إلى الأسفل... كانت قد قالت قبل وقت قصير إنها أكثر رجولة من كل إخوتي.

صمت رينيسب وارتجفت ثم تابعت: وعندما التفتت بها (وكان يجب أن أعرف آنذاك) رأيتها هلعة وحاولت إقناعي بالعودة معها. لم تُرد أن أجد جثة نوفريت... لا بد أنني كنت عمياء إذ لم أدرك الحقيقة، ولكنني كنت خائفة جداً على سوبك.

- أعرف ذلك، كان ذلك بسبب الأفعى؟

- نعم، هكذا كان الأمر. ثم رأيت ذلك الحلم... سوبك المسكين، كيف أسأت الحكم عليه؟ كما قلت: إن التهديد لا يعني التنفيذ. كان سوبك يحب التفاخر بالحديث وساتيبي هي الصريحة

- لقد كانت نوفريت مشهورة بالكره، وأظنها أحياناً كرهت كل شخص في هذا المنزل، ولكنك لم تؤذيها بشيء.

- نعم، أبداً.

- ولذلك فليس في عقلك أنت ما يورثك من هذا الأمر.

- هل تعني - يا حوري - أنني إذا عبرت هذا الممر وحدي عند الغروب في ذات الوقت الذي ماتت فيه نوفريت وإذا أدت رأسي فلن أرى شيئاً؟ هل أكون آمنة؟

سوف تكونين آمنة يا رينيسب لأنك إذا مشيت عبر الممر فسوف أمشي معك، ولن يصيبك أي أذى.

لكن رينيسب تجهمت وهزت رأسها وهي تقول: لا يا حوري؛ سوف أمشي وحدي.

- لماذا يا رينيسب الصغيرة؟ ألا تخافين؟

- بلى، أظن أنني سأعاف، ولكن علي أن أفعل هذا رغم ذلك. إن كل من في المنزل يرتجفون ويرتعشون ويذهبون إلى المعابد لكي يشترروا التعاويذ، ويقولون إن المشي ليس ملائماً في هذا الممر في ساعة المغيب. ولكن ما قتل ساتيبي لم يكن السحر، بل الخوف. الخوف بسبب عمل شرير ارتكبته، فليس أشد من انتزاع الحياة من إنسان شاب قوي يتمتع بالحياة. أما أنا فلم أرتكب أي عمل شرير، ولذلك فحتى لو كرهتني نوفريت فعلاً فإن كراهيتها لن تؤذي. هذا ما أؤمن به. ومع ذلك فإن من الأفضل للمرء أن يموت من أن يعيش في خوف دائم، ولذلك فإنني سأغلب على خوفي.

همست رينيسب بصوت خافت: عندما دهم الخوف... أجل، هذا ما أصابنا منذ موت نوفريت. كان ظاهراً على وجه ساتيبي لنراه جميعاً، كان يطل من عينيها عندما ماتت، عندما قالت: "نوفريت"، كأنها قد رأت...

سكنت رينيسب عن الكلام، والتفتت لمواجهة حوري وفي عينيها سؤال: ماذا رأت يا حوري؟ هناك على الممر؟ نحن لم نر شيئاً، فلم يكن هناك شيء.

- بالنسبة لنا لم يكن هناك شيء.

- فماذا عنها إذن؟ هل رأت نوفريت قادمة لتنتقم؟ ولكن نوفريت ميتة وقبرها مختوم، ما الذي رآته إذن؟

- الصورة التي صورها عقلها.

- هل أنت متأكد؟ لأن الأمر لو لم يكن مجرد صورة...

- أكملني يا رينيسب، لو لم يكن مجرد صورة؟

- حوري! هل انتهى الأمر الآن؟ الآن وقد ماتت ساتيبي هل انتهى الأمر حقاً؟

- نعم، نعم يا رينيسب؛ أنت - على الأقل - لا داعي لأن تخافين.

همست رينيسب: لكن إيزا تقول إن نوفريت كرهتني!

- نوفريت كرهتك؟

- هكذا تقول إيزا.

- هذا كلام شجاع يا رينيسب.

- ربما هذا الكلام أشجع فعلاً من حقيقة مشاعري يا حوري.

ابتسمت ووقفت على قدميها وهي تضيف: ولكن كان من المفيد قوله.

نهض حوري ووقف بجانبها قائلاً: سوف أذكر كلماتك تلك يا رينيسب، أجل، والطريقة التي أرجعت بها رأسك إلى الخلف عندما قلتها تظهر الشجاعة والصدق التي كنت أشعر دائماً بأنك تحلين بهما.

وأخذ يديها بين يديه وقال: انظري يا رينيسب، انظري من هنا إلى الوادي والنهر وما وراءهما. تلك هي مصر؛ أرضنا التي مزقتها الحروب والتزاعات لسنوات طويلة وقسمتها ممالك صغيرة. مصر هذه ستعود قريباً موحدة وقوية كما كانت، وعندما ستحتاج مصر إلى رجال ونساء شجعان مثلك يا رينيسب، لا مثل إمحوتب المشغول دائماً بأرباحه وخسائره أو سوبك الكسول الثرثار، ولا أولاداً مثل أبيي يفكرون فقط فيما يمكن أن يحققوه لأنفسهم، ولا حتى مثل يحموس الرقيق حي الضمير. لقد استطعت وأنا جالس هنا بين الموتى عملياً أن أحسب الأرباح والخسائر، استطعت أن أرى الأرباح التي لا يمكن حسابها بالمال والخسائر التي هي أهم من خسارة المحصول، أنظر إلى النهر وأرى حياة مصر الذي كان قبل أن نولد وسوف تستمر بعد أن نموت. إن الحياة والموت ليسا على ذلك الجانب من الأهمية يا رينيسب؛ إنني مجرد حوري مدير أعمال إمحوتب، ولكنني عندما أنظر إلى مصر أعرف معنى السلام. أجل،

أشعر بأنني لست مستعداً لأن أستبدل به منصب حاكم المقاطعة، هل تفهمين ما أعني يا رينيسب؟

- أظن ذلك يا حوري... قليلاً. أنت تختلف عن الآخرين هناك؛ لقد أدركت ذلك منذ زمن بعيد. وأحياناً عندما أكون معك هنا أشعر بما تشعر به، ولكن بشكل باهت ينقصه الوضوح. ولكنني أدرك ما تعنيه. عندما أكون هنا فإن كل شيء هناك في المنزل لا يعود ذا معنى بالنسبة لي، تلك المشاجرات والكراهية والجلبة والهرج المتواصل... هنا يهرب المرء من كل ذلك.

ثم توجهت وقالت متلعثمة: أحياناً أنا... يسعدني الهروب، ولكنني رغم ذلك لا أعلم، فإن شيئاً ما هناك يدعوني إلى العودة.

ترك حوري يدها وتراجع خطوة إلى الخلف، وقال بلطف: نعم، أفهم؛ إنه غناء كاميني.

- ماذا تعني يا حوري؟ لم أكن أفكر في كاميني.

- ربما، ولكن أغانيه تدعوك إلى العودة.

حدثت إليه رينيسب وازدادت تهماً وقالت: إنك تقول أشياء غريبة يا حوري. كيف للمرء أن يسمعه يغني من هنا؟ إن المسافة بعيدة جداً.

تهدد حوري بلطف وهز رأسه، ولمعت عيناه بشكل حزينها فشعرت قليلاً بالغضب والحيرة لأنها لم تستطع أن تفهم ما يعنيه!

• • •

الفصل الثالث عشر الشهر الأول من فصل الصيف اليوم الثالث والعشرون

-١-

- هل يمكنك الحديث إليك قليلاً يا إيزا؟

نظرت إيزا بحدة إلى حبيبتي التي كانت عند مدخل الغرفة وقد
علت وجهها ابتسامة متملقة. قالت: ما الأمر؟

- إنه أمر غير مهم في الواقع، أو أنني أظنه كذلك على الأقل،
ولكنني وددت أن أسأل...

قاطعتها إيزا بحدة: هيا إذن، ادخلي، وأنت (ونقرت بعصاها
العبدة السوداء التي كانت تحيط الخرز) أذهبي إلى المطبخ، أحضري
لي بعض الزيتون وحضري لي شرباً من عصير الرمان.

أسرعت الفتاة الصغيرة وأومات إيزا إلى حبيبتي بنقاد صبر،
فقالت حبيبتي: إنه هذا يا إيزا.

التي تحصلين عليها من نشر قصص السحر السخيفة هذه؟
كانت حبيبت تهز برأسها بشدة وهي تردد: كلنا يعرف ما الذي
أصاب ساتيبي ولماذا أصابها.

- ربما نعرفه، وربما كان بعضنا يعرف من قبل. صحيح
يا حبيبت؟ كنت أظن دائماً أنك تعرفين عن وفاة نوفريت أكثر منا
جميعاً.

- آه يا إيزا، أنت بالتأكيد لا تظنين لحظة...

قاطعتها إيزا: ما الذي لا أظنه؟ أنا لا أخشى التفكير يا حبيبت.
لقد رأيت ساتيبي تتجول في المنزل في الشهرين الأخيرين وهي تبدو
في غاية الخوف، وقد خطر لي منذ أمس أن أحدهم كان يهددها
بمعلوماته، وربما هددتها بإخبار يحموس أو إمحوتب ذاته.

انفجرت حبيبت مطلقة موجة حادة من الاحتجاجات
والهتافات، فأغمضت إيزا عينيها وانكأت إلى الخلف في مقعدها
وقالت: لا أظن أنك ستعرفين لحظة بارتكاب مثل هذا الأمر، أنا
لا أتوقع منك ذلك.

- لماذا أفعل ذلك؟ لماذا أفعل ذلك؟

- ليست لدي فكرة أنت تفعلين أموراً كثيرة يا حبيبت ولا
أجد سبباً مقنعاً لها.

- لعلك تظنين أنني كنت أحاول أن أجعلها تشتري صمتي.
أقسم بالله أني أبتدئ...

نظرت إيزا إلى الشيء الذي تحمله حبيبت، وكان صندوق
جواهر صغيراً ذا غطاء متحرك مغلق من الأعلى بزرين اثنين. قالت:
ماذا بشأنه؟

- إنه لها، ولقد عثرت عليه الآن في غرفتها.

- عمن تتحدثين؟ ساتيبي؟

- لا، لا يا إيزا. بل الأخرى.

- تعنين نوفريت؟ ماذا في ذلك؟

- كل جواهرها ومراصمها وعطورها... كل شيء. كان قد دُفن
معها.

نزعنا إيزا الرباط عن الزرّ وفتحت الصندوق. كان فيه عقد
من حمرز العقيق الأحمر ونصف تيممة مصقولة خضراء قسمت إلى
نصفين. قالت إيزا: ليست شيئاً مهماً، ربما غفل عنها المحتنون.

- ولكنهم أخذوا كل شيء.

- المحتنون ليسوا أفضل من غيرهم؟ وهم ينسون أحياناً.

- أقول لك يا إيزا: لم يكن هذا في غرفتها عندما تفقدتها آخر
مرة.

نظرت إيزا إلى حبيبت بحدة وقالت: ما الذي تحاولين قوله؟
إن نوفريت قد عادت من العالم السفلي وهي هنا في هذا المنزل؟
لست غبية يا حبيبت رغم أنك تحيين النظار بذلك أحياناً، ما المنعة

Chassey

- أهدنا ما أخبرتك به؟ لم أتهمها بذلك، وها هو الصندوق.
يبدو أنه نخر عليه في غرفة نوفريت.

أخذه إمحوتب منها وقال: نعم، لقد أعطيتها إياه.

وفتحه ثم قال: ليس فيه شيء كثير. يا لإهمال المحتظين إذ لم يضعوه في القبر مع بقية حاجاتها الشخصية! إهمال لا يتناسب مع ما يتقاضونه من أجور عالية. ولكن كل هذه الضجة كانت بلا سبب.

- بالتأكيد.

- سوف أعطي الصندوق لكيت... لا، بل لرينيسب لأنها تصرفت دوماً بلباقة مع نوفريت. مستحيل أن يحصل الرجل على الهدوء... تلك النساء؛ دموع لا تنتهي ومشاجرات ومشاحنات!

- حسناً يا إمحوتب، على الأقل نقصت امرأة واحدة الآن.

- نعم؛ المسكين يحموس! أشعر يا أمي أن... ربما كان ذلك للفضل. لقد أنجبت ساتيني أولاداً أصحاء لكنها كانت زوجة سيئة في نواح أخرى، وكان يحموس يستسلم لها كثيراً، وقد انتهى الأمر الآن. يجب أن أقول إنني مسرور بتصرفات يحموس في الفترة الأخيرة؛ إنه يبدو أكثر ثقة بنفسه وأقل خوفاً وأكثر حكمة.

- كان دائماً ابناً جيداً ومطيعاً.

- نعم، نعم، ولكنه كان ميثالاً إلى التباطؤ وبخشي المسؤولية أحياناً.

قالت إيزا بجفاء: إن المسؤولية هي الأمر الذي لم تسمح له يوماً بتحملة.

- لا تزعجي الآلهة! أنت أصدق من الصدق يا حينيت، وربما لم تكوني تعرفين شيئاً عن وفاة نوفريت، ولكنك تعرفين معظم الأمور التي تجري في هذا المنزل. وإذا كان لي أنا أن أقسم فسأقسم بأنك أنت وضعت هذا الصندوق في غرفة نوفريت بنفسك، رغم أنني لا أستطيع أن أتخيل لماذا؟ ولكن وراء ذلك سبباً. يمكنك خداع إمحوتب بحيلك تلك، ولكنك لا تستطيعين خداعي. ولا تتحبي! إنني امرأة عجوز لا أطيق الناس الذين يتحبون. اذهبي وانتحي أمام إمحوتب فإنه يحب ذلك.

- سوف أخذ الصندوق إلى إمحوتب وأقول له...

- سوف أسلمه الصندوق بنفسني. اذهبي يا حينيت وكفي عن نشر تلك الخرافات السخيفة. لقد أصبح المنزل أكثر هدوءاً بدون ساتيني، ونفعتنا نوفريت وهي ميتة أكثر مما فعلت وهي حية، فدعي الجميع الآن - وقد تم سداد الدين - يعودون إلى أعمالهم بسلام.

-٢-

قال إمحوتب منكراً وهو يدخل بضجة غرفة إيزا بعد بضع دقائق: ما هذا؟ حينيت منزعجة... لقد جاءت إلي والدموع تجري على خديها. ألا يستطيع أحد في هذا المنزل أن يظهر العطف الذي تستحقه هذه المرأة المخلصة؟

ضحكت إيزا بلامبالاة، وأكمل إمحوتب: لقد اتهمتها بسرقة صندوق جواهر.

ابتسمت إيزا وقالت: أنا واثقة أنك تأمل ذلك. لا تقتصد في نفقاتي إذا سمحت. فلن يبدو ذلك جيداً! أريد عديداً من الأدوات لكي تسليبي في العالم الآخر، كثيراً من الطعام والشراب وكثيراً من دمي العبيد ورقعة ألعاب كبيرة مزخرفة ومجموعة من العطور وأدوات تجميل... كما أنني أصر على أعلى الجرار، الجرار المرمرية.

- نعم، نعم؛ بالتأكيد. سوف تحظين بالاحترام والتقدير عندما يأتي ذلك اليوم الحزين. يجب أن أعترف بأن شعوري قد تغير نحو ساتيبي. لا يريد المرء إثارة فضيحة ولكن في ظل الظروف...

ولم يكمل إمحوتب جملته بل أسرع خارجاً، وانتمت إيزا بسخوية وهي تدرك أن تلك الجملة «في ظل الظروف» هي أقرب حد يكاد به إمحوتب يعترف بأن وفاة نوفريت لم تكن حادثاً عرضياً.

- كل هذا سيتغير. إنني أعد صكاً للمشاركة سيتم توقيعه في غضون بضعة أيام، وسوف أشرك معي ابنائي الثلاثة.

- وفيهم أبي؟

- سوف تُجرح مشاعره إن استثنيت، إنه فتى عزيز عطوف.

- وليس بطيباً أبداً في طموحاته!

- كما قلت. وسوبك أيضاً، كنت مستاء منه في الماضي لكنه بدأ صفحة جديدة ولم يعد يضيع وقته، كما أنه يطبعني ويطبخ يحموس.

- ها أنذا أسمع ترانيم المديح! حسناً يا إمحوتب، يجب أن أقول إنك تفعل الصحيح. لقد كانت إثارة أبنائك تصرفاً سيئاً، ولكنني أظن أن أبي لا يزال صغيراً جداً على ما تقترحه... من السخافة إعطاء صبي في مثل هذا العمر مركزاً محددًا، كيف تستطيع السيطرة عليه؟

بدأ إمحوتب ساهماً يفكر: لعل فيما نقولين بعض الصواب. ثم نهض قائماً وقال: يجب أن أذهب، فالأف الأمور تنتظر المتابعة: المحتفظون واستعدادات من أجل جنازة ساتيبي... هذه الوفيات مكلفة، مكلفة جداً، لا سيما أنها متتابعة!

قالت إيزا تواسيه: أرجو أن تكون هي الأخيرة حتى يحين موعدني.

- أتمنى أن تعيشي سنوات طوالاً يا أمي العزيزة.

الفصل الرابع عشر الشهر الأول من فصل الصيف اليوم الخامس والعشرون

- ١ -

رجع أفراد العائلة من محكمة نوماتش، وتم تصديق صك المشاركة، وعم جو من المرح. كان أبي مستثنى من جو المرح هذا لأنه أبعد عن المشاركة في اللحظة الأخيرة نظراً لصغر سنه، فصار متجهماً وتغيب عن المنزل متعمداً.

وطلب إمحوتب إعداد وليمة كبيرة من الطعام والشراب احتفاءً بالمناسبة، وقال ليحموس معزياً: يجب أن تنسى حزنك علي ما فقدت يا بني، ولتفكر فقط في الأيام الجيدة القادمة، فليس في الحياة سعة لحزن طويل.

شرب إمحوتب ويحموس وسوبك وحوري الشراب، ثم جاءت الأخبار أن أحد الثيران قد سُرق فخرج الرجال الأربعة مسرعين كي يحققوا في الأمر.

وجرع جرعة أخرى من الشراب، فقال له يحموس: كن على حذر؛ لقد أكلت اليوم قليلاً، وأحياناً عندما يشرب المرء...

ثم سكت وقد لوى شفتيه فجأة، فقال سوبك: ما الأمر يا يحموس؟

- لا شيء، ألم مفاجئ، أنا... لا شيء.

ورفع يده ليمسح جبينه الذي امتلأ بالعرق.

- أنت لا تبدو على ما يرام.

- كنت الآن بخير.

- ما لم يضع أحد في الشراب سمّاً.

وضحك سوبك من كلمته ومد يده نحو الإبريق، ثم تصلبت ذراعه في الحال وانحنى جسده إلى الأمام بتأثير موجة من الألم، وشهق: يحموس، يحموس، أنا... أيضاً...

انحنى يحموس الذي كان يتزلق إلى الأمام أكثر، وخرجت منه صيحة مكبوتة. كان سوبك يتلوى من الألم ورفع صوته: النجدة! أرسلوا في طلب الطبيب... الطبيب!

أسرعت حبيبت إليهما من المنزل هاتفية: هل ناديتما؟ ماذا قلتما؟ ما الأمر؟

وجلبت صيحتها المنذرة الآخرين، فيما كان الأخوان يصرخان من الألم.

وعندما دخل يحموس الفناء مرة أخرى بعد ساعة كان متعباً ويشعر بالحر، فذهب حيث كانت آنية الشراب لئلا تزل على المنضدة، وملاً كأساً برونزية وجلس في الشرفة يرتشف شرابه بهدوء. ثم جاء بعده بقليل سوبك وهو يهتف بسرور: والآن، لمزيد من الشراب، لنحتفل بمستقبلنا الذي أصبح مضموناً أخيراً... إنه يوم سعيد لنا يا يحموس.

واقفه يحموس: نعم، بالتأكيد؛ سوف يسهل لنا الحياة.

- أنت دائماً معتدل في مشاعرك يا يحموس.

ضحك سوبك وتناول كأساً من الشراب واجترعه ثم قال: لنزّ هل يظل والدنا رجعيّاً كما كان أم أننا نستطيع أن نجعله رجلاً عصريّاً؟

نصحه يحموس قائلاً: لو كنت مكانك لأخذت الأمور على مهل، إنك متهور دائماً.

ابتسم سوبك لأخيه بمحبة، فقد كان مزاجه رائقاً، وقال ساخراً: حكمتك القديمة: التقدم ببطء وثقة.

ابتسم يحموس وقال: إنها - في النهاية - أفضل طريق. ثم إن أبي كان في غاية الكرم، فلا يجب أن نفعل أي شيء يسبب له القلق.

نظر سوبك نحوه بفضول وقال: أنت تحب والدنا حقاً؟ أنت مخلوق محب يا يحموس، أما أنا فلا أهتم بأحد، لا أحد سوى سوبك... فليحي حياة طويلة!

عليها، وسائبي التي أذنتك مانت. ألا يكني هذا؟ وسويك الذي كان يتحدث ضدك دون أن يؤذيك عملياً مات أيضاً... يا إيزيس، لا تدعي يحموس يموت أيضاً، احببه من كرهه توفريت وحفدها!

نظر إمحوتب وهو يذرع المكان جيئةً وذهاباً إلى ابته، فانفجرت أساريره بالمحبة والعطف: تعالي هنا يا رئيسب، يا طفلي العزيزة!

ركضت إليه فأحاطها بذراعيه فسألته: ماذا يقول الطبيب يا أبي؟

قال إمحوتب بحزن: ربما ينجو يحموس، أما سويك فأنت تعلمين...

- نعم، نعم! ألم تسمعنا نتحب؟

حشرح إمحوتب حشجة محزنة: توفي عند الفجر سويك القوي الوسيم!

- يا لهذا الشر والفسوة! ألا نستطيع أن نفعل شيئاً؟

- لقد فعلنا كل ما في استطاعتنا؛ قدّمنا جرعات من الترياق تدفعه إلى التقيؤ، وعصيراً من الأعشاب الفعالة، ونلبت التعاويذ المقدسة والترانيل المطلوبة، ولكن دون جدوى! ميرسو طبيب ماهر، وإن لم يستطع إنقاذ ابني فستكون إرادة الآلهة أن يموت.

ارتفع صوت الطبيب الكاهن في ترنيمة أخيرة ثم خرج من الغرفة وهو يمسح العرق عن جبينه، وسأله إمحوتب بلهفة: خيراً؟

قال يحموس بصوت منخفض: الشراب، السم... أرسلوا في طلب الطبيب.

فصرخت حيثيت بحدة: مزيد من النحر! حقاً إن هذا المنزل ملعون! أسرعوا، أسرعوا! أرسلوا في طلب ميرسو الكاهن والطبيب الماهر المجرب.

-٢-

أخذ إمحوتب يذرع المكان جيئةً وذهاباً في قاعة المنزل الرئيسية. كان رداؤه الكتاني متجعداً وملوثاً ولم يستحم ولم يغير ملابسه، وكان وجهه متجعداً من القلق والخوف. وانبعثت من جانب المنزل أصوات العويل، فريق من النساء يتدبن وحيثيت تقودهن بتحيبها الموجه المرتفع.

وكان الطبيب الكاهن ميرسو يكافح محاولاً معالجة جسد يحموس الهامد، وجذب صوته رئيسب من جناح النساء، إلى القاعة الرئيسية. وتوقفت هناك راجية بحرارة أن تنفع كلمات الكاهن وأدعيته شيئاً: يا إيزيس، أعتقنا من الشر والدم ومن غضب الرب! احميننا من الميت أو الميتة ومن العدو أو العدو ممن يعاديننا...

تنهد يحموس بضعف، وشاركت رئيسب بقديها في الدعاء، وتذكرت توفريت... هل هي التي آذت أخويها لتنتقم من العائلة؟ همست: لم يؤذك يحموس يا توفريت رغم أن سائبي كالت زوجته، لا يمكن أن تحمله مسؤولية أعمالها؛ إنه لم يكن يستطيع السيطرة

Chassey

عاد الخادم يرافقه فتى أسود يرتدي ثوباً من جلد الأسد وله
عينان تعبران عن خوف وغباء. خاطبه إمحوتب بحدة: أعد ما قلت
لي قبل قليل.

نكس الولد رأسه وجعل يعبث بملايه ويشدها بيديه
المرتعشتين، فصرخ إمحوتب: تحدث.

جاءت إيزا وهي تعرج وتستند على عصاها وتحقق بعينها
المعتمتين وقالت: إنك ترعب الطفل. خذني يا ريتستب. أعطه هذا
العناب. هيا يا صبي، أخيرنا بما رأيته.

حدق الصبي إليهم، وشجعتة إيزا: لقد مررت بالأمس أمام
بوابة الفناء ورأيت شيئاً. قل لنا، ما هو؟

- ماذا رأيته؟

هز الصبي رأسه وهو ينظر حوله وهمس: أين سيدي
يحموس؟

تحدث الكاهن بحزم وعطف: إن رغبة سيدك يحموس أن
تخيرنا بروايتك. لا تخف، لن يؤذيك أحد.

أضاء وجه الفتى وقال: لقد كان سيدي يحموس قريباً، سوف
أنفذ رغبته.

ثم سكت، وبدأ أن إمحوتب على وشك الانفجار، ولكن نظرة
من الطيب أوقفته.

وتحدث الصبي بعصبية وثرثرة سريعة وهو يلتفت حوله كأنه

- سيشفى ابنك؛ إنه ما زال ضعيفاً ولكن زال خطر السم،
والتأثير الشرير في تناقص.

- يحموس شرب كمية قليلة، أما سوبك فقد أفرط في
الشراب... هكذا هما دائماً حتى في الطعام والشراب: يحموس حذر
ويطفي، وسوبك جريء ومتهور. هل كان الشراب مسمماً بالتأكيد؟

- نعم، لا شك في ذلك؛ تأكدت من هذا، فقد فحص
مساعدتي الشراب وجربه في الحيوانات فماتت فوراً.

- ولكنني شربت منه قبل ساعة من وقت شربهما ولم أشعر
بشيء.

- لم يكن الشراب مسمماً عندها، لا بد أنه سُمم بعد ذلك.

كؤر إمحوتب قبضته وقال: لا أحد يجرؤ أن يضع السم لأبنائي
في هذا البيت. هذا مستحيل، ما من كائن يجرؤ على ذلك!

هز ميرسو رأسه بتموض وقال: أنت أفضل من يحكم في هذا
يا إمحوتب.

وقف إمحوتب وهو يحك أذنه بعصبية، وقال فجأة: عندي
قصة أريد أن تسمعها.

صغق بيديه فحضر خادمه وطلب منه أن يحضر الراعي، والتفت
إلى ميرسو: سأريك فتى قليل العقل بضيء الفهم لا يسيطر تماماً على
قواه الذهنية، ومع ذلك فإن له نظراً، ونظرة قوي. وهو مخلص لأبني
يحموس كثيراً لأنه كان لطيفاً معه ومشفقاً على عاهته.

أجابه الفتى بحماسة وثقة كأنه قد غلب خوفه وأصبح أخيراً
واثقاً تماماً مما يقول: ثلاث سلاسل من الخرز تتدلى منها أسود
ذهبية من الأمام.

سقطت عصا إيزا إلى الأرض وأطلق إمحوتب صيحة مكتومة:
إذا كنت تكذب أيها الصبي...

ارتفع صوت الفتى واضحاً وحاداً: إنها الحقيقة، أقسم أنها
الحقيقة.

كان يحموس مستلقياً في الغرفة الجانبية، ونادى بصوت
ضعيف: ما الأمر؟

اندفع الصبي عبر الباب المفتوح وجثم قرب الأريكة التي
يستلقي عليها يحموس وهو يقول: سيدي، سوف يعذبونني.

أدار يحموس رأسه بصعوبة على المسند الخشبي المدور: لا
تدعوا أحداً يؤذي الطفل؛ إنه بسيط صادق.

قال إمحوتب: بالطبع، بالطبع، ليس من داع لذلك. من
الواضح أن الصبي قد أخبرنا بما يعرفه ولا أظنه يخترع ما يقوله.
انطلق أيها الصبي ولا نعد إلى الفطيع البعيد. أبق قريباً من المنزل
لنستطيع دعوتك عندما نحتاج إليك.

نهض الصبي ورمى يحموس بنظرة مترددة قائلاً: أنت مريض
يا سيدي يحموس؟

بخشى شيئاً مجهولاً أن يسمعه: كان ذلك بسبب ذلك الحمام اللعين.
لحقته بعصاي عندما عبر أمام بوابة الفناء الكبيرة، ونظرت من البوابة
إلى المنزل، لم يكن ثمة أحد في الشرفة ولكن كان هناك طاولة عليها
إناء شراب. ثم أتت امرأة، سيده خرجت من البيت وجاءت إلى
الشرفة، مشت إلى إناء الشراب ومدت يديها فوقه ثم... ثم عادت
إلى المنزل كما اعتقد. لست متأكداً أنها عادت لأنني سمعت صوت
خطوات خلفي، واستدرت لأرى سيدي يحموس عائداً من الحقل
فمضيت خلف الحمام ودخل سيدي يحموس إلى الفناء.

- ولم لم تحذر يحموس؟ لم لم تفعل شيئاً؟

- لم أعرف أن خطأ حدث. لم أزل شيئاً سوى تلك السيدة تقف
هناك تبسم، ثم مدت يدها فوق إناء الشراب... لم أر شيئاً آخر!

الكاهن: من كانت السيدة يا فتى؟

هز الصبي رأسه وقد خلا وجهه من التعبير: لا أعرف؛ لا بد
أنها كانت إحدى نساء البيت، وأنا لا أعرفهن. كان الفطيع ينتظرنني
في نهاية الحقل... كانت سيده ترتدي ثوباً من الكتان المصبوغ.

جفلت ريشنب، وقال الكاهن وهو يراقب الصبي: ربما
خادمة؟

هز الصبي رأسه وقال: لم تكن خادمة. كانت تضع باروكة على
رأسها وترتدي الجواهر، والخادمة لا ترتدي جواهر.

إمحوتب: جواهر؟ أي جواهر؟

تؤذيك لأن الشراب كان نظيفاً حين شربته. من أذى جاريتك المتوفاة من عائلتك؟

أجابه إمحوتب باختصار: امرأة توفيت.

- فهمت، تعني زوجة ابنك يحموس؟

قال إمحوتب بعصبية: ما الذي نستطيع فعله أيها الكاهن المسجل؟ كيف يُبطل هذا الشر؟ كان يوماً نحساً عندما أدخلت تلك المرأة إلى بيتي.

أقبلت كبت من جناح النساء وعيناها منتفختان من الدموع ووجهها ذو الملامح العادية بيدو عليه العزم والتصميم مما جعله متميزاً. كان صوتها العميق الأجنس يهتز من الغضب، وقالت: كان يوم مجيئك بتوفريت يوم نحس بالفعل يا إمحوتب... لقد جاءت لتقضي على أذكى أبنائك وأجملهم، وجلبت الموت لساتبي وسوبك، ويحموس نجا بصعوبة، فمن التالي؟ هل سترك تلك المرأة الأطفال وهي التي سبق أن ضربت ابنتي الصغيرة أنك؟ لا يد من فعل شيء ما يا إمحوتب.

ردد إمحوتب وهو ينظر إلى الكاهن بتوسل: لا يد من فعل شيء.

قأوما الكاهن برأسه بهدوء مترقع: هناك طرق ووسائل يا إمحوتب نستطيع تنفيذها عندما نتأكد من الحقائق. إنني أفكر في زوجتك الأولى أسابت، فهي تنحدر من عائلة ذات نفوذ ويمكنها أن

ابتسم يحموس ابتسامة باهتة وقال: لا تخف، لن أموت. اذهب الآن ونفذ ما طلب منك.

ذهب الصبي وهو يتسم بسعادة، وقحص الكاهن عيني يحموس وحس نبضه، ثم أوصاه بالنوم وخرج مع الآخرين إلى القاعة الرئيسية مرة أخرى. وقال لإمحوتب: هل تعرفت إلى الوصف الذي أعطاه الصبي؟

أوما إمحوتب بالإيجاب وقد احمرّ خده فأصبحا بلون أرجواني داكن، وقالت رينستب: توفريت فقط كانت ترتدي ثوباً من الكتان المصبوغ، كانت «موضة» جديدة أحضرتها من مدن الشمال، وتم دفن تلك الأثواب معها.

قال إمحوتب: وسلاسل الخرز الثلاث ورأس الأسد الذهبي كنت أنا الذي أعطيتها لها... ليس في المنزل حلية أخرى تشبهها، كانت ثمينة وغير عادية. وقد دُفنت معها كل حليها سوى طوق من خرز العقيق الأحمر.

ثم فرد إمحوتب ذراعيه وقال: ما هذا الأذى والقصاص؟ جاريتي التي عاملتها جيداً وقدرتها ودفنتها حسب الطقوس الملائمة ولم أقتصد في النفقات (والجميع يشهد على ذلك) ولم أدعها تتذمر من شيء... لقد فعلت من أجلها كثيراً وكنت مستعداً أن أعاقب أبنائي من أجلها، فلماذا إذن تعود هكذا من عالم الموتى لتؤذيني أنا وأبنائي؟

قال ميرمو بهدوء: يبدو أن هذه المرأة الثمينة لم تكن تريد أن

تستشير الألهة في عالم الموتى لتتدخل وتحمي عائلتك من نوفريت.
يجب أن نشاور.

ضحكت كيت ضحكة قصيرة وقالت: لا تنتظروا كثيراً، فالرجال متشابهون دائماً. نعم، حتى الكهنة... يجب فعل كل شيء وفقاً للأنظمة والقوانين! يجب أن تنصرفوا بسرعة والأمر واقع مزيد من الموتى في هذا المنزل.

دارت ثم خرجت. وهمس إمحوتب: امرأة ممتازة متفانية في سبيل أبنائها وزوجة مطيعة، لكنها تنصرف برعونة أحياناً ولا تحترم سيد هذا البيت، وأنا أغفر لها هذا في مثل هذا الظرف، فكلنا ذاهلون لا نكاد نعرف ماذا نفعل.

ثم أحاط رأسه بيديه، فقالت إيزا: بعضنا لا يعرف ما يفعله إلا نادراً.

وماها إمحوتب بنظرة غاضبة، واستعد العليبي للمغادرة فخرج إمحوتب معه إلى الشرفة وهو يتلقى منه التعليمات بشأن الاعتناء بالعريض. ونظرت رينيسب إلى جدتها متسائلة.

كانت إيزا تجلس بهدوء متجهمة وتعاير وجهها غريبة، فسألتها رينيسب بخوف: فيم تفكرين يا جدتي؟

- التفكير هو الأمر الضروري يا رينيسب؛ إذ تحدث أمور غريبة في هذا المنزل تجعل المرء يفكر.

ارتعشت رينيسب وقالت: إنها تخيفني!

- وتخيفني أنا أيضاً، لكن ربما ليس للسبب نفسه.

ويابمأة مألوفة أمالت الباروكة الموضوعة على رأسها، فقالت رينيسب: لكن يحموس لن يموت، سوف يعيش.

أومأت إيزا قائلة: نعم؛ لقد أدركه كبير الأطباء في الوقت المناسب، ورغم ذلك فربما لا يكون محظوظاً هكذا في مناسبة أخرى.

- هل نظنين أن أحداثاً أخرى كهذه سوف تحصل؟

- أظن أنه يجدر يحموس وبك وبأبي، وربما يكتب أيضاً، أن تكونوا في غاية الحذر مما تأكلونه وتشربونه. تأكدوا أن العبيد يتذوقون كل شيء أولاً.

- وأنت يا جدتي؟

ابتسمت إيزا ابتسامتها الساخرة وهي تقول: أنا امرأة عجوز يا رينيسب، وأحب الحياة إلى حد لا يبلغه إلا العجائز الذين يتذوقون كل ساعة وكل دقيقة بقيت لهم. إن فرصتي في الحياة أكبر لأنني سوف أكون أكثر حذراً منكم جميعاً.

- ووالدي؟ نوفريت لن تمنى الشر والأذى لوالدي بالتأكيد؟

- والدك؟ لا أعلم، لا أعلم؛ لا أستطيع رؤية الأمور بوضوح بعد. غداً عندما أتكر في الأمر كله سأكلم ذلك الراعي مرة أخرى، فقد كان في قصته شيء ما...

قطعت حديثها وتجهمت، ثم نهضت وأخذت تعرج ببطء وهي

الفصل الخامس عشر الشهر الأول من فصل الصيف اليوم الثلاثون

-١-

سبب العنور على القلادة رعباً كبيراً لرئيسنوب، ومن هول
الصدمة أعادتها سريعاً إلى صندوق الجواهر وأعدت الغطاء مكانه
وعقدت الحبل مرة أخرى. حثتها غريزتها على إخفاء فعلها هذا، بل
إنها نظرت بخوف خلفها لتتأكد من أن أحداً لا يراقبها.

قضت ليلة لم تعرف فيها طعم النوم، تنقلب بقلق وتسد رأسها
ثم تبعده عن السنادة الموضوعة على سريرها. ومع حلول الصباح
قررت أن تبوح بسرها لشخص ما، فلم تكن تستطيع حمل عبء هذا
الكشف وحدها. لقد نهضت مرتين في الليل وهي تخشى أن ترى
جسد نوفرير يقف قريباً منها، لكنها لم تر شيئاً.

أخذت رئيسنوب عقد الأسد من صندوق الجواهر وأخفته
في ثيابا ثوبها الكتاني، وما أن فعلت ذلك حتى اندفعت حيثبيت

تتكن على عصاها عالدة إلى مضجعها. وذهبت رئيسنوب إلى غرفة
أخيها. كان نائماً، فخرجت بهدوء، وبعد لحظة من التردد ذهبت
إلى غرفة كيت. وقفت عند الباب دون أن يلاحظها أحد تراقب كيت
وهي تغني أغنية لأحد أبنائها لكي ينام، وكان وجهها هادئاً وبدت
كعادتها بحيث شعرت رئيسنوب - للتحفة - أن المأساة التي حصلت
قبل أربع وعشرين ساعة كانت مجرد حلم.

ودارت ببطء وذهبت إلى شقتها. كان على الطاولة ضمن
صناديق أدوات التجميل خاصتها صندوق الجواهر الصغير الذي
كان لنوفرير، فالتقطته رئيسنوب ونظرت إليه وهي تحمله بيدها.

لقد سبق لنوفرير أن لمست وأمسكته، لقد كان صندوقها
الخاص. ومرة أخرى عاودت رئيسنوب موجة من الإشفاق شعرت
بها من قبل أن تموت نوفرير.

كانت نوفرير تبسة، وربما جعلت تلك التبسة حقداً
وكراهية، وما زال هذا الكره قائماً، إنها لا تزال تسعى للانتقام...
أه لا، هذا غير صحيح، بالتأكيد لا.

وبحركة عاقية فتحت الصندوق فوجدت خرز العقيق الأحمر
والنخمة المكسورة وشيئاً آخر... أخرجت رئيسنوب - وقلبي يخفق
بعنف - قلادة الخرز الذهبي والأسد الذهبي بتدلي منها.

Chassey

فإنها سوف تتولى الأيسم لمجرد جارية أن تقضي على أولادها. أه! أجل، سنعمل على تحقيق العدالة. إن حوري يصوغ الرسالة الآن.

كان في نية رينيسب أن تذهب إلى حوري وتخبره بعثورها على قلادة الأسد، ولكن إذا كان حوري مشغولاً مع الكهنة في معبد إيزيس فلا فائدة من التفكير في محاولة العثور عليه وحيداً.

هل تتوجه إلى والدها؟ هزت رينيسب رأسها غير مقتنعة. لقد زال إيمانها الطفولي بقدرة والدها الكلية الآن وأدركت كيف يتهار بسرعة عند حدوث الأزمات ويحل التفاوض الفارغ محل القوة الحقيقية. لو لم يكن بحموس مريضاً لوسعها إخباره، رغم أنها كانت تشك في أن تجد عنده أية نصيحة عملية، فمن الأرجح أنه سيصر على وضع الأمر أمام إمحوتب.

وشعرت رينيسب بضرورة تفادي هذا الأمر مهما كان الثمن. سوف يكون أول أمر يفعله إمحوتب هو نشر السر، وقد كان حدس رينيسب يلح عليها للاحتفاظ بهذا السر، مع أنها لم تكن تعرف سبباً لذلك.

لا، لقد كانت بحاجة إلى مشورة حوري دون غيره، فهو يعرف التصرف الصحيح. سوف يأخذ منها القلادة وفي الوقت نفسه يأخذ قلقها وحيرتها. سوف ينظر إليها بعينه الهادئين العطفين فتشعر على الفور أن الأمور على ما يرام.

وشعرت رينيسب - لحظة - بإغراء يدفعها لمفاتيح كيت، ولكن كيت لم تكن مقنعة لها؛ إنها لا تستمع جيداً أبداً، ولكن ماذا

وعيناها لامعتان حادثان وفيهما سرور من لديه أخبار طازجة بذبحها؛ تخيلي يا رينيسب، أليس الأمر رهيباً؟ ذلك الصبي الراعي كان مستغرقاً في النوم هذا الصباح قرب صناديق الحنطة والجميع يهزونه ويصرخون فيه، ولكن يبدو الآن أنه لن يستيقظ أبداً. كأنه شرب عصير الخشخاش، ربما فعل ذلك، فإذا كان الأمر كذلك فمن أعطاه إياه؟ لا أحد هنا، أنا متأكدة من ذلك، وليس بعقل أن يكون قد تناوله بنفسه... أه! ربما كان في وسعنا أن نعلم بالأمس كيف تمت الحادثة التي شاهدها.

ارتفعت يد حبيب إلى إحدى التعميدات التي ترتديها وقالت: فليحينا آمون من أرواح الموتى الشريرة! لقد روى الصبي ما شاهده، روى كيف شاهدها، ولذلك عادت وأعطته شراب الخشخاش لينام للأبد. أه، إنها امرأة قوية نوفريت تلك! لقد كانت في الخارج كما تعلمين، خارج مصر. أقسم أنها تمكنت من تعلم كل أنواع السحر البدائي. لسنا آمنين في هذا المنزل، لا أحد منا آمن. يجب أن يضحى والدك بعدد من الثيران لأمون، بل يقطع كامل إن اقتضت الحاجة، فليس هذا وقت الاقتصاد... يجب أن نحمي أنفسنا. يجب أن نستجدي أمك، هذا ما ينوي إمحوتب فعله، هكذا يقول الكاهن ميرسو... رسالة رسمية إلى الموتى، وحوري مشغول الآن في كتابة نصها. كان في نية والدك أن يوجهها إلى نوفريت ويقول لها فيها: الموقرة نوفريت، ما هو السر الذي فعلته بك؟ إلخ. لكن القضية - كما أوضح الأب الروحي ميرسو - نحتاج إلى إجراءات أقوى من هذه. كانت أمك أشابت سيدة عظيمة، وكان خالها يشغل منصب النومارتن وشقيقها كبير الخدم عند وزير طيبة، وإذا علمت بالأمر

-٢-

عند أول ذكر للقلادة نظرت إيزا حولها بسرعة، ثم وضعت إصبعاً على شفتيها ورفعت يدها مشيرة بالصمت، وعيبت رينيسب بردائها فأخرجت القلادة وأعطتها لإيزا. أمسكت بها إيزا لحظة قريباً من عينيها اللتين خف نورهما، ثم أخفتها في ثوبها وقالت بصوت منخفض قوي: لا تتكلمي بالمزيد الآن. إن الكلام في هذا المنزل يعني الكلام مع مئات من الأذان. لقد استلقيتُ مستيقظة معظم الليل أفكر، وهناك كثير مما يجب فعله.

- لقد ذهب والدي وحوري إلى معبد إيزيس ليتشاور مع الكاهن ميرسو في إعداد رسالة إلى أمي كي تدخل.

- أعلم. دعني والدك يهتم بأرواح الموتى، أما أفكاري أنا فتتعامل مع أشياء هذا العالم. حين يعود حوري أحضره هنا إليّ، هناك أمور يجب أن نقال ونبحث، وأنا أنتي بحوري.

قالت رينيسب بسعادة: حوري يعلم كيف يتصرف.

نظرت إليها إيزا بغضول وقالت: أنت غالباً ما تذهبين لرؤيته في الضريح، أليس كذلك؟ ما الذي تتحدثان فيه أنت وحوري؟

هزت رينيسب رأسها وأجابته بغموض: النهر، ومصر، وتغير الضوء، واللوان الرمل في الأسفل، والصخور... لكننا نجلس صامتين في معظم الأوقات. إنني أجلس هناك فأجد الهدوء والسكينة، فلا توبخ أو بكاء من الأطفال، ولا ضجيج من الداخلين والخارجين.

١٧٣

لو أخذها المرء بعيداً عن الأطفال؟ لا، لا، لن يجدي ذلك نفعاً. كيت لطيفة ولكنها غبية.

فكرت رينيسب: كاميني؟

كان في فكرة إبلاغه أمر بهيج، كان يمكنها رؤية وجهه بوضوح تام وهي تفكر فيه حيث تتغير تعابيرها من التحدي اللاهي إلى الاهتمام إلى الخوف عليها، وربما ليس عليها؟

لم هذا الشك الخبيث الكامن في أعماقها أن نوفريت وكاميني كانا على علاقة أقوى مما كانا يظهران؟ لأن كاميني ساعد نوفريت في حملتها لإبعاد محبوب عن عائلته؟ لقد احتج بأن الأمر لم يكن بيده، فهل كان هذا صحيحاً؟ كان من السهل قول ذلك. كل ما يقوله كاميني كان يبدو سهلاً وطبيعياً وصحيحاً أيضاً، كان يتمايل بطريقة رائعة وهو يمشي، التفاتة رأسه وكتفيه البرونزيين وعينيها اللتين تنظران... تنظران إليها!

وانقطعت أفكار رينيسب بارتياك. لم تكن عينا كاميني رقيقتين أمتين كعيني حوري، بل كانتا متطبلتين متحدثتين. دفعت أفكار رينيسب الدم إلى وجنتيها والبريق إلى عينيها، ولكنها قررت ألا تخبر كاميني. سوف تذهب إلى إيزا، فقد أثارت إعجابها أمس رغم أنها عجوز، فهي ذات نظرة للأمر وإحساس ذكي عملي لا يتوفر في سواها من العائلة.

فكرت رينيسب: إنها عجوز، ولكنها ستعرف.

١٧٢

- إنه مشغول بمراقبة تخزين القمح، أبي جعله مسؤولاً عن ذلك.

ابتسمت إيزا قائلة: هذا سوف يسعد ذلك المغفل الصغير، وسوف يتحول مختلاً بأهميته. عندما يعود ليأكل اطلبي منه أن يأتي لرؤيتي.

- نعم يا إيزا.

- وأما بالنسبة لذلك الأمر رينيسب، فالزمني الصمت.

- ٣ -

- هل أردت رؤيتي يا جدتي؟

وقف آبي مبتسماً ومغروراً يحمل وردة بين أسنانه البيضاء. بدا مسروراً من نفسه ومن الحياة بشكل عام، وجعلت إيزا تضيق عينيها كي تستطيع الرؤية أفضل وهي تنظر إلى آبي متفحصاً. قالت: هلا أعطيتني لحظات من وقتك الثمين؟

لم تؤثر فظاظتها في آبي الذي قال: صحيح أنني مشغول جداً هذا اليوم، يجب أن أهتم بكل شيء لأن والدي قد ذهب إلى المعبد...

- صغار بني آوى تعري عالياً.

لكن آبي كان رابط الجأش، قال: هيا يا جدتي، لا بد أن لديك ما تقولينه لي غير ذلك.

١٧٥

بوسعي هناك أن أمارس حرية التفكير دون أن يقاطعني حوري، ثم أنظر أحياناً لأجده يراقبني ويتسم نحن الاثنين... عادة ما أكون سعيدة هناك.

قالت إيزا ببطء: أنت محفوظة يا رينيسب؛ فقد عثرت على السعادة التي تكمن داخل قلب كل شخص. إن السعادة لدى معظم النساء تعني الدخول والخروج والاشتغال بأمور تافهة، إنها الاهتمام بالأطفال والضحك والحديث والشجار مع النساء الأخريات وتبادل الحب والكراهة مع الرجل... إنها مصنوعة من أمور صغيرة متصلة مثل الخرز في العقد.

- أكاثت حياتك هكذا يا جدتي؟

- معظمها. أما الآن، وأنا عجوز أجلس وحدي وقد ضعف بصري وأمشي بصعوبة، فإني أدرك أن في الداخل حياة مثلما في الخارج حياة. ولكنني الآن أكبر بكثير من أن أتعلم حقيقة هذه الحياة الداخلية. ولذلك تشاهدتني في الخارج أوبخ خادمتي الصغيرة وأستمع بالطعام الجيد الطازج وأنذوق الأنواع المختلفة من الخبز الذي نخبزه وأستمع بالعب التناضح وعصير الرمان... هذه الأمور تبقى عندما يذهب الآخرون، والأطفال الذين كنت أحبهم كثيراً ماتوا. كان والدك دائماً غيباً، لقد أحبته عندما كان طفلاً يحبو، لكنه يزعمني الآن يحو الأهمية الذي يحيط به نفسه. ومن بين أحفادي فإني أحبك أنت يا رينيسب، وبمناسبة الحديث عن الأحفاد أين آبي؟ لم أره اليوم ولا أمس.

١٧٤

حدق الصبي إليها بدهشة صريحة، ثم حلّ العبوس محل
الفرحة التي كانت تملو وجهه وسقطت الزهرة من فمه.

- لماذا فعلت ذلك؟ أي شأن لك فيه؟

- شؤون عائلتي هي شؤوني.

- وهل استمع إليك والدي؟

قالت إيزا بغلظة: ليس في اللحظة نفسها، لكنني سوف أعلمك
درساً يا طفلي الوسيم: النساء يعملن بأساليب ملتوية ويعرفن ما هي
نقطة الضعف عند الرجل؛ تذكر أنني أرسلت حينئذ مع رقعة اللعب
إلى الشرفة في تلك الأمسية المنعشة.

- أذكر ذلك، لقد لعبت أنا والوالدي معاً فماذا في ذلك؟

- لقد لعبت ثلاثاً أشواط، وفي كل مرة ولأنك لاعب ذكي
كنت تهزم والدك.

- نعم.

أغمضت إيزا عينيها وقالت: هذا كل شيء، والدك مثل سائر
اللاعبين الأقل شأنًا، لم يتحمل هزيمته... خصوصاً من صبي فتى،
وهكذا فقد تذكر كلماتي وقرر أنك كنت بالتأكيد أصغر من أن تُعطى
حصة في الشراكة.

حدق إليها أبي لحظة، ثم ضحك ضحكة عابسة وقال: أنت
ذكية يا إيزا. ربما تكونين عجوزاً، ولكنك ذكية. أنا وأنت نملك
حتمًا العقل في هذه العائلة. لقد هزمتني في اللعبة الأولى على

- بالتأكيد لذي غير ذلك. وأبدأ فأقول: هذا منزل يمر بفترة
من الحداد، جثة أخيك سوبك لا تزال بين أيدي المحنطين. وزعم
ذلك فإن وجهك مرح كأنك في يوم احتفال!

ابتسم أبي وقال: أنت لست منافقة يا إيزا، فهل تريدني مني
أن أكون منافقاً؟ أنت تعلمين جيداً أنني وسوبك لم نكن على وفاق؛
كان يفعل كل ما يمكنه كي يعيفني ويزعجني. كان يعاملني كأنني
طفل ويعطيني أكثر الأعمال إهانة وطفولية في الحقل، وغالباً ما
كان يتهرني ويسخر مني، وعندما أراد والدي أن يشركني مع أخوتي
الأكبرين أقتعه سوبك بعدم فعل ذلك.

احتذت إيزا وقالت: ما الذي يجعلك تظن أن سوبك هو الذي
أقتعه بذلك؟

- أخبرني كاميني بهذا.

رفعت إيزا حاجبيها وأزاحت باروكتها جانباً وحكّت رأسها،
ثم قالت: كاميني؟ هذا يثير الاهتمام!

- قال كاميني إنه سمعه من حينئذ، ونحن نتفق جميعاً أن
حينئذ تعلم كل شيء دائماً.

خاطبته إيزا بغلظة: ولكن هذه إحدى الأحوال التي أخطأت
حينئذ بها. كان يحموس وسوبك بريان أنك لا تزال صغيراً لتولي
العمل بلا شك، ولكنني كنت أنا، أجل، أنا التي أقتعت والدك بعدم
ضمك إلى الشراكة.

- أنت يا جديتي؟!

سويك هو الذي أقتع إِمحوتب بألاً يُشرك آبي في صك الشراكة؟
انخفض صوت حبيبت إلى درجة نحيبه المعتادة: أنا مشغولة
في هذا المنزل ولا وقت لديّ أضيعه في إخبار الناس بالأمور، ولماذا
كاميني من بين الأشخاص كافة؟ كيف أتحدث إليه بكلمة إن لم يأت
هو إليّ ويتحدث معي؟ إنه ذو أسلوب لطيف، ولا بد أن تعترفي
بذلك يا إيزا. وأنا لست الوحيدة التي تراه كذلك. آه، نعم! وإذا
أرادت أرملة شابة أن تتزوج من جديد... حسناً، فإنها تعجب عادةً
بفتى وسيم، وإن لم أكن أعلم رأي إِمحوتب في ذلك. إن كاميني
مجرد كاتب صغير في النهاية.

- دعي هذا، هل أخبرته أن سويك هو الذي عارض أن يكون
آبي شريكاً؟

- لا أستطيع أن أذكر ما قلت وما لم أقل. لم أذهب وأخبر
أحدًا بشيء، أنا واثقة من ذلك، ولكن الشائعات انتشرت هنا وهناك،
وأنت تعلمين أن سويك كان يقول وكذلك يحموس بأن آبي صبي
لا يتفع، فلعل كاميني سمعه يقول ذلك ولم يحصل عليه مني. أنا
لا أترثر أبداً، ولكن اللسان مُخلق للمرء لكي يتحدث به، وأنا لست
خرساء ولا صماء.

- أنت لست كذلك بالتأكيد. اللسان - يا حبيبت - يكون أحياناً
سلاحاً، وأحياناً ربما سبب اللسان الوفاة! أرجو ألا يكون لسانك قد
سبب وفاة أحد يا حبيبت.

- آه يا إيزا! ماذا تقولين وفيّ تفكرين؟ أنا مخلصه لهذه العائلة

رفعة اللعب، ولكنك سوف تزين، سوف أفوز بالثانية... فاحذري
يا جدتي!

- إنني أنوي الحذر، ودعني - بالمقابل - أنصحك أن تحذر
أنت نفسك. لقد توفي أحد أخويك والثاني كان مشرفاً على الموت،
وأنت أيضاً ابن أهلك، وربما تسلك الطريق نفسه.

ضحك آبي وردد باحتقار: لا أخاف كثيراً من ذلك.

- لماذا؟ أنت أيضاً هددت نوفريت وأهنتها.

- نوفريت!

قالها باحتقار واضح، فسأته إيزا بحدة: ما الذي تفكر فيه؟

- إن لديّ أفكار يا جدتي، وأؤكد لك أن نوفريت وحيلها
لن تغلقتني. دعها تفعل أسوأ ما تستطيع.

انطلقت صرخة خلفه ودخلت حبيبت وهي تصيح: صبي غبي،
طفل طائش! تتحدى الموتى؟ بعد أن نذوقنا جميعاً مدى قدرتها،
ولست ترتدي أي تعويذة لتحميك منها!

- تحميتي؟ سوف أحمي نفسي. ابتعدي عن طريقي يا حبيبت،
سوف يعرف أولئك الفلاحون الكسالى ماذا يعني أن يشرف عليهم
سيد حقيقي.

خرج آبي من الغرفة وهو يدفع حبيبت جانباً، وقطعت إيزا
نحيب حبيبت: استمعي يا حبيبت وكفّي عن الهتاف بشأن آبي، فلعله
يعرف ما يفعله، وأجيبيني عن سؤالي هذا: هل أخبرت كاميني أن

سويك هو الذي أقتع إِمحوتب بألاً يُشرك آبي في صك الشراكة؟
انخفض صوت حبيبت إلى درجة نحيبه المعتادة: أنا مشغولة
في هذا المنزل ولا وقت لديّ أضيعه في إخبار الناس بالأمور، ولماذا
كاميني من بين الأشخاص كافة؟ كيف أتحدث إليه بكلمة إن لم يأت
هو إليّ ويتحدث معي؟ إنه ذو أسلوب لطيف، ولا بد أن تعترفي
بذلك يا إيزا. وأنا لست الوحيدة التي تراه كذلك. آه، نعم! وإذا
أرادت أرملة شابة أن تتزوج من جديد... حسناً، فإنها تعجب عادةً
بفتى وسيم، وإن لم أكن أعلم رأي إِمحوتب في ذلك. إن كاميني
مجرد كاتب صغير في النهاية.

- دعي هذا، هل أخبرته أن سويك هو الذي عارض أن يكون
آبي شريكاً؟

- لا أستطيع أن أذكر ما قلت وما لم أقل. لم أذهب وأخبر
أحدًا بشيء، أنا واثقة من ذلك، ولكن الشائعات انتشرت هنا وهناك،
وأنت تعلمين أن سويك كان يقول وكذلك يحموس بأن آبي صبي
لا يتفع، فلعل كاميني سمعه يقول ذلك ولم يحصل عليه مني. أنا
لا أترثر أبداً، ولكن اللسان مُخلق للمرء لكي يتحدث به، وأنا لست
خرساء ولا صماء.

- أنت لست كذلك بالتأكيد. اللسان - يا حبيبت - يكون أحياناً
سلاحاً، وأحياناً ربما سبب اللسان الوفاة! أرجو ألا يكون لسانك قد
سبب وفاة أحد يا حبيبت.

- آه يا إيزا! ماذا تقولين وفيّ تفكرين؟ أنا مخلصه لهذه العائلة

رفعة اللعب، ولكنك سوف تزين، سوف أفوز بالثانية... فاحذري
يا جدتي!

- إنني أنوي الحذر، ودعني - بالمقابل - أنصحك أن تحذر
أنت نفسك. لقد توفي أحد أخويك والثاني كان مشرفاً على الموت،
وأنت أيضاً ابن أهلك، وربما تسلك الطريق نفسه.

ضحك آبي وردد باحتقار: لا أخاف كثيراً من ذلك.

- لماذا؟ أنت أيضاً هددت نوفريت وأهنتها.

- نوفريت!

قالها باحتقار واضح، فسأته إيزا بحدة: ما الذي تفكر فيه؟

- إن لديّ أفكار يا جدتي، وأؤكد لك أن نوفريت وحيلها
لن تغلقتني. دعيتها تفعل أسوأ ما تستطيع.

انطلقت صرخة خلفه ودخلت حبيبت وهي تصيح: صبي غبي،
طفل طائش! تتحدى الموتى؟ بعد أن تذوقنا جميعاً مدى قدرتها،
ولست ترتدي أي تعويذة لتحميك منها!

- تحميتي؟ سوف أحمي نفسي. ابتعدي عن طريقي يا حبيبت،
سوف يعرف أولئك الفلاحون الكسالى ماذا يعني أن يشرف عليهم
سيد حقيقي.

خرج آبي من الغرفة وهو يدفع حبيبت جانباً، وقطعت إيزا
نحيب حبيبت: استمعي يا حبيبت وكفّي عن الهتاف بشأن آبي، فلعله
يعرف ما يفعله، وأجيبيني عن سؤالي هذا: هل أخبرت كاميني أن

Chassey

الفصل السادس عشر الشهر الثاني من فصل الصيف اليوم الأول

-1-

انتهت المداولات في المعبد وتمت الصيغة النهائية للعرضة التي أعدّها حوري واثنان من كتبة المعبد، وأخيراً تمّ اتخاذ الخطوة الأولى. وقرر الكاهن أن مسودة العرضة يجب أن تُقرأ على الجميع:

إلى روح الموقرة آشايث،

هذه الرسالة من أخيك وزوجك. هل تنسى الأخت أخاها؟ هل تنسى الأم أبناءها الذين ولدتهم؟ ألا تعلم الروح الموقرة آشايث أن روحاً شريرة تهدد أبناءها؟ لقد توفي سوبك ابنها وانتقل إلى أوزيريس من أثر السم. لقد عاملتك بكل احترام وأنت حية، وأعطيتك الجواهر والثياب والمراهم والعمود والزيوت، وأكلنا

كلها... إنني مستعدة لأن أموت في سبيل أي واحد منها. آه، إنهم يستحقون بإخلاص حنيت العجوز، لقد وعدت أنهم...

قاطعتها إيزا: ها قد أتى طائري السمين المطبوخ بالكراث والكرفس. إن رائحته شهية وهو مطبوخ جيداً، وما دمت متقانية يا حنيت فلتتناولي لقمة من أحد الجوانب لمجرد التأكد من أنه ليس مسموماً.

صرخت حنيت: إيزا... مسموم! كيف تقولين هذا وهو مطبوخ في مطبخنا؟

- حسناً، يجب أن يتذوقه شخص ما من باب الاحتياط فقط، ومن الأفضل أن تكوني أنت يا حنيت ما دمت مستعدة أن تموتي في سبيل فرد من أفراد العائلة. لا أظن الموت بهذه الطريقة مؤلماً. هيا يا حنيت، انظري كم هو سمين وشهي! لا أريد أن أخسر عبدتي الصغيرة؛ إنها صغيرة ومرحة، وأنت عشت أحلى أيامك يا حنيت ولا يهم ما يصيبك. افتحى فمك... لذيذ؟ أليس كذلك؟ لماذا أصبح وجهك أخضر هكذا؟ ألم تعجبك دغابتي الصغيرة؟ لا أظنها أعجبتك. ها ها ها!

انفجرت إيزا ضاحكة، ثم سيطرت على نفسها فجأة وجلست تأكل طبقها المفضل بنهم.

* * *

إمحوتب لأنه أصغى للوسوسات الشريرة لتلك المرأة
وتوعد بظلم أبنائك الذين ولدتهم، فلتعلمي أنه ليس
وحده الذي يعاني بل أبنائك أنت أيضاً، فاغفري لأخيك
إمحوتب كل ما فعله إكراماً للأولاد.

انتهى رئيس الكنيسة من القراءة، وأوماً ميرسو موافقاً وقال: أظننا
لم نغفل شيئاً، إنها صياغة جيدة.

نهض إمحوتب وقال: أشكرك أيها الكاهن الممجل. سوف
تصلك عطاياي غداً قبل أن تغرب الشمس: قطعان وزيت وكتان.
هل نحدد اليوم الذي يتلو ذلك كموعده للاحتفال، حيث نضع اللقافة
المكتوبة في غرفة القرايين في القير؟

- اجعله بعد ثلاثة أيام؛ فيجب أن تُسَخ اللقافة وتحضَّر
الطقوس الملائمة.

- كما تشاء، إنني متلهف لكيلا يحدث مزيد من الأذى.

- أفهم قلقك هذا يا إمحوتب، فلا تخف. سنستجيب روح
أشايث الطيبة لهذا النداء. إن لدى أقرانها السلطة والنفوذ ويستطيعون
تحقيق العدالة عندما تمس الحاجة إليها.

- أشكرك يا ميرسو، وأشكر رعابتك ومعالجتك ابني بحموس.
هيا يا حوري، لدينا عمل كثير. دعنا نعدُّ إلى المنزل. لقد أزيلت
هذه العريضة كثيراً من همي بالتأكيد، لن تتخلى أشايث عن أخيها
المسكين المحتار.

الطعام المذبذب معاً وجلسنا بهدوء ومحبة والموائد أمامنا
عامرة. وعندما مرهت لم أذخر جهداً كي أساعدك.
فأحضرت لك رئيس الأطباء. ثم تمّ دفنك بكل احترام
وبالمراسيم المناسبة، وقدمت إليك كل الأشياء التي
تحتاجينها في حياتك الأخرى: الخدم والشيران والطعام
والشراب والحواهر والثياب، وخذدت عنك سنوات
عدة ولم أقدم على اتخاذ جازية لي إلا بعد مرور سنوات
طويلة طويلة، وذلك لأعيش كما ينبغي لرجل لم يتقدم
كثيراً في السن.

إن هذه الجازية هي التي ترتكب الشر تجاه أبنائك. ألا
تعلمين بذلك؟ لعلك لا تعلمين، فلو أن أشايث تعلم
لكانت أسرعت لكي تساعد أبنائها.

هل يعني هذا أن أشايث تعلم والشر لا يزال يُرتكب لأن
الجازية أقوى بسحرها؟ هذا ضد رغبتك أيها الموقرة
أشايث. وتذكري أن لك في «حقول القرايين» أقران
عظماً ومساعدين أقران منهم النيل العظيم أبي، كبير
خدم الوزير. اطلبي مساعدته، ومنهم خالك انقوي
العظيم ميريبتاح الذي تولى منصب انومارتر. أخبريه
بهذه الحقيقة، دعي الأمر يعرض في محكمتك واستدعي
الشهود. دعهم يشهدون ضد نوفريت أنها فعلت كل
هذا الشر. دعي الحكم يصدر لندان نوفريت ودعهم
يحكمون عليها ألا ترتكب مزيداً من الشر بحق هذا
المنزل!

آه أيها الموقرة أشايث! إذا كنت غاضبة من أخيك

عندما دخل حوري فناء البيت وهو يحمل لفافة البردي كانت رينيسب تنتظره، وجاءت تجري من البحيرة تناديه: حوري.

- نعم يا رينيسب.

- هلاً أتيت معي إلى إيزا؟ إنها تنتظرك وتريدك.

- حسناً، ولكن دعيني أُر إن كان إمحوتب...

ولكن كان أبي قد أمسك إمحوتب واندمجا في حديث خاص، فقال حوري: دعيني أضع هذه اللقافات جانباً هي والأشياء الأخرى، وسوف آتي معك يا رينيسب.

بدت إيزا مسرورة عندما دخلت عليها رينيسب ومعها حوري. قالت رينيسب: ها هو حوري يا جدتي، لقد أحضرته إليك فوراً.

- جيد، هل الجو لطيف في الخارج؟

اندهشت رينيسب قليلاً وقالت: أظن... أظن ذلك!

- أعطيني عصاي إذن؛ سوف أتمشى قليلاً في الفناء.

لم تكن إيزا تغادر المنزل كثيراً، ولذلك دهشت رينيسب وقادت المرأة العجوز وهي تضع يدها تحت مرفقها، وخرجوا عبر القاعة الرئيسية إلى الشرفة.

- هلا جلست يا جدتي؟

- لا يا طفلي، سوف أتمشى حتى البحيرة.

كان تقدم إيزا بطيئاً، ورغم أنها كانت تمشي بصعوبة إلا أنها كانت ثابتة القدمين ولم تظهر علامات التعب. وتلفتت حولها ثم اختارت بقعة مزروعة بالأزهار قرب البحيرة تظللها شجرة جميز. قالت: بإمكاننا التحدث الآن ولا أحد يسمع حديثاً.

أيدها حوري قائلاً: أنت حكيمة يا إيزا.

- ما يقال هنا يجب ألا يعرفه أحد سوانا نحن الثلاثة. إنني أُنق بك يا حوري، فأنت تعمل معنا منذ كنت صبيّاً صغيراً وكنت دائماً مخلصاً وكتوماً وحكيماً، ورينيسب هي أعز أحفادي عليّ. يجب ألا يلحق بها أي ضرر يا حوري.

- لن يلحق بها ضرر يا إيزا.

لم يرفع حوري صوته، لكن نبرته ونظرة وجهه عندما قابلت عينه عين السيدة العجوز أَرْضتها كثيراً.

- أحسنت يا حوري بقولك هذا، كلام هادئ متأن، ولكنه كلامٌ من يعني ما يقوله. أخبرني بما تم ترتيبه اليوم.

سرد حوري عليها كيف تم إعداد العريضة ومضمونها، واستمعت إيزا بانتباه ثم قالت: استمع إلي الآن يا حوري وانظر إلى هذا...

أخرجت قلادة الأسد من ثوبها ودفعتها إليه وهي تقول: أخبريه يا رينيسب أين عثرت عليها.

أخبرته رينيسب، ثم قالت إيزا: حسناً يا حوري، فما هو رأيك؟

اعتمد على إيماننا الخرافي الذي يعزو تلك الأفعال لروح نوفريت...
إنه افتراض مناسب تماماً.

صرخت رينيسب: من الذي يريد أن يقتل يحموس وسوبك؟
- ليس أحد الخدم، فهم لا يجروون. وهذا ما يترك أمامنا قلة
من الأشخاص نختار من بينهم.

- أحد منا نحن؟ ولكن هذا يا جدتي... مستحيل!

قالت إيزا بجفاف: أسألني حوري، لاحظي أنه لا يحتج.

التفتت رينيسب إليه هاتفة: حوري! بالتأكيد...

هز حوري رأسه بهدوء وقال: أنت صغيرة وثقيل بالناس
يا رينيسب. إنك تظنين جميع من تعرفينهم وتحبينهم كما يبدو
لك، ولا تعرفين القلب البشري وما يمكن أن يطوي عليه من مرارة
وشر.

- ولكن من؟ أيهم؟

- دعونا نعد إلى القصة التي رواها الراعي: رأى امرأة ترتدي
ثوباً من الكتان المصوغ وعليها قلادة نوفريت، فإذا لم تكن روحاً
إذن فقد رأى حقاً ما قال إنه رآه، مما يعني أنه رأى امرأة تحاول
متعمدة أن تبدو مثل نوفريت، ربما كانت كيت، وربما حيتيت، وربما
أنت يا رينيسب! من تلك المسافة يستطيع أي شخص أن يرتدي
ثوباً نسائياً وباروكة... صمتاً، دعوني أتابع... الاحتمال الآخر أن
الفتى كان يكذب وأنه روى القصة كما دُرِبَ عليها، وأنه كان يطيع

صمت حوري لحظة ثم قال: أنت امرأة حكيمة وأكبر منا سناً،
فما هو رأيك أنت؟

- أنت لست من الذين يحبون إطلاق الأحكام السريعة غير
المستندة إلى حقائق يا حوري. كنت تعلم منذ البداية كيف ماتت
نوفريت، أليس كذلك؟

- لقد شككت في الأمر يا إيزا، كان مجرد شك.

- نعم، ونحن لدينا شكوك فقط. ولكننا نحن الثلاثة هنا،
عند البحيرة، نستطيع الحديث في شكوكنا دون الإشارة إليها
لاحقاً. تبدو لي الآن ثلاثة تفسيرات للأمور المأساوية التي حدثت.
الأول: أن الراعي قال الحقيقة وأن ما رآه هو حقاً شيخ نوفريت
العائد من الموت، وأن لديها تصميماً شريفاً على الانتقام لنفسها
أكثر بإحداث مزيد من الأسى والحزن لعائلتنا. هذا جائز، وقد قال
الكهنة والآخرين إنه جائز، ونحن نعلم أن الأرواح الشريرة قد تسبب
المرض أحياناً. ولكن يبدو لي - أنا المعجوز التي لا تميل إلى تصديق
ما يقوله الكهنة - أن هناك احتمالات أخرى.

حوري: وما تلك؟

- لافترض أن نوفريت قتلها ساتيبي، وأن ساتيبي تخيلت
نوفريت بعد مرور بعض الوقت وفي البقعة نفسها، وأنها - بسبب
خوفها وشعورها بالذنب - وقعت وماتت. كل هذا واضح، ولكن
لنأت الآن إلى افتراض آخر، وهو أن شخصاً ما أراد بعد ذلك لسبب
ما زلنا نجهله أن يقتل اثنين من أبناء إمحونب، وأن هذا الشخص

قالت رينيسب متعجبة مرتعبة: ولكن لماذا؟ لماذا؟!

- عندما نعرف لماذا نكون قريين جداً من معرفة كل ما نريد، ولا يمكننا الاهتداء إلا من خلال النظر إلى الذين استُهدفوا بالجريمة. فلنتذكر أن سوبك انضم إلى يحموس فجأة بعد أن بدأ يحموس بالشرب، ولهذا فإن من المؤكد أن القاتل كان يريد يحموس، ولعل ذلك الشخص أراد قتل سوبك أيضاً.

- ولكن من يريد قتل يحموس؟ يحموس من بيتنا جميعاً ليس له أعداء بالتأكيد، كان دائماً هادئاً وعطوفاً.

قال حوري: ولهذا فمن الواضح أن الدافع لم يكن نابعاً من الكره الشخصي، فكما تقول رينيسب: ليس يحموس من ذلك الطراز من الرجال الذين يجلبون لأنفسهم العداوة.

إيزا: لا، إن دافع الجريمة أكثر غموضاً من ذلك؛ فهو إما أن يكون عداوة للعائلة كلها أو أن ما يقف خلف كل هذه الجرائم هو تلك الشهوة غير المشروعة لما في أيدي الغير التي حذرتنا منها تعاليم بناحوتيت، حين وصفها بأنها الصرة التي تجمع كل أنواع الشر والكيس الذي ينطوي على كل ما يمكن للمرء أن يلام عليه.

حوري: أدرك الاتجاه الذي يسير إليه تفكيرك يا إيزا، ولكن لكي نتوصل إلى نتيجة فعلينا التنبؤ بالنتائج المستقبلية لهذا الجرائم.

أومات إيزا برأسها بشدة وانزلقت باروكتها الضخمة إلى أذنها، ورغم أن ذلك جعلها تبدو مضحكة وغريبة إلا أن أحداً لم يضحك. قالت: أعطنا تنبؤاً كهذا يا حوري.

شخصاً يأمره، وربما كان الفتى أبله إلى الحد الذي لم يدرك فيه الهدف من القصة التي أغري أو ارتشى ليقولها. لن نعرف الحقيقة الآن لأن الصبي مات، وهذه نقطة توحى بالكثير. إنها تدفعني إلى الاعتقاد بأن الصبي قد روى قصة تم تليسيها له، ولو حُقق معه جيداً فإن هذه القصة كانت ستتهار. ومن السهل مع قليل من الصبر كشف كذبة الصبي.

حوري: إذن فأنت تظنين أن بين ظهرائنا من يدس السم؟

- نعم. وأنت؟

- أظن ذلك أيضاً.

نظرت رينيسب إلى الاثنين برعب، وأكمل حوري: ولكنني لا أستطيع معرفة الدافع.

قالت إيزا: أواففك، ولذلك يملكني القلق، إذ لا أعرف من هو الهدف التالي.

قاطعتها رينيسب: ولكن... شخص منا؟

كانت نيرة صوتها لا تزال مستنكرة، فقالت إيزا بحزم: نعم يا رينيسب... أحدها: حينيت أو كيت أو أبي أو كاميني، أو حتى إمحوتب. نعم، أو إيزا أو حوري...

ثم ابتسمت وأضافت: أو حتى رينيسب.

حوري: أنت على حق يا إيزا؛ يجب أن نضع أنفسنا موضع الشك.

Chassey

وقالت: نعم، أخيره كاميني. هل كان ذلك بإيحاء من حبيبت أو لا؟
هذه مسألة أخرى. ولكن تبقى الحقيقة أن آبي طموح ومغرور. كان
مستاءً من سلطة أخويه وهو بالتأكيد يعتبر نفسه - كما أخبرني قبل
مدة - العقل القيادي الأكبر لهذه العائلة.

سأل حوري: هل قال لك هذا؟

- كان لطيفاً بحيث أشركني معه في امتلاك قدر معين من
الذكاء!

تعجبت رينسب وقالت: أنتظين أن آبي قام متعمداً بتسميم
يحموس وسويك؟

- أنا أعتبر ذلك مجرد احتمال. كل ما نتحدث عنه الآن مجرد
شكوك، فلم نحصل على الدليل. لقد قتل الناس إخوانهم منذ بدء
الخليقة، وهم على علم أن الآلهة تكره مثل هذا الأمر ومع ذلك
دفعتهم شرور الكراهية والطمع بما في يد إخوانهم. فإن كان آبي
هو من فعل ذلك فلن يكون من السهل إقامة الدليل على فعلته لأنه
ذكي.

هز حوري رأسه موافقاً.

- ولكن ما نتحدث عنه هنا - كما قلت - مجرد شكوك،
وسوف نستمر في دراسة كل أفراد هذا المنزل في ضوء هذا الشك.
وكما قلت فلنني أستثني الخدم لأنني لا أظن أبداً أن أحداً منهم يجرؤ
على فعل مثل هذا الأمر، ولكنني لا أستثني حبيبت.

صمت حوري لحظات. بدت في عينيه علامات التفكير،
وانتظرت المرأتان، ثم تحدث أخيراً: لو أن يحموس مات كما كان
مخططاً له فإن المستفيدين الرئيسيين هم أبناء إمحوتب الباقون،
سويك وآبي، صحيح أن جزءاً من الممتلكات كان سيؤول بلا شك
لأبناء يحموس، ولكن إدارتها سوف تكون بأيديهما، وبالتحديد
بيد سويك. سويك سيكون بلا شك المستفيد الأكبر، إذ كان من
شأنه أن يحل مكان الكاهن في غياب إمحوتب، وسوف يخلفه في
هذا المنصب بعد وفاته، ولكن رغم كونه المستفيد من الجريمة إلا
أن من المستحيل أن يكون سويك هو الشخص المذنب طالما أنه
شرب بنفسه من الشراب المسموم كثيراً حتى الموت. لهذا - حسبما
أرى - فإن وفاة هذين الاثنين تفيد شخصاً واحداً، وهذا الشخص
هو آبي.

قالت إيزا: أنا أوافقك. ألاحظ أنك نافذ البصيرة يا حوري،
وأنا أقدر لك هذه المقدرة، لكن دعنا نفكر في آبي: إنه صغير وناقد
الصبر وذو مزاج سيء، وهو في سن من يظن أن تحقيق رغباته أهم
شيء في الحياة. لقد شعر بالغضب والاستياء من أخويه الكبارين
وظن أنه قد تم استنائه بغير حق من المساهمة في الشراكة العائلية،
ويبدو أيضاً أن كاميني قد أخبره بأمور غير حكيمة.

- كاميني؟

قاطعتها رينسب، ثم استدركت اندفاعها فخرجت وعضت
على شفتيها، وأدار حوري رأسه كي ينظر إليها، وجرحتها تلك
النظرة الطويلة الرقيقة النافذة. رفعت إيزا رأسها ونظرت إلى الفتاة

إيزا: ابني غبي! كل الرجال يحبون الإطراء، وحينئذ تبذل الإطراء يسخاء كما تبذل المراهم في الحفلات! ربما كانت حقاً متفانية نحوه، أحياناً أظن أنها كذلك، ولكنها ليست مخلصه لأي شخص آخر في هذا المنزل بالتأكيد.

احتجت رينيسب: لكنها لن تقتل بالتأكيد، ولماذا تريد أن تسم أياً منا؟ ماذا يفعلها هذا؟

- لا شيء، لا شيء. أما السبب فلا أعلم ماذا يدور في رأس حينئذ، فيم تفكر وما هو شعورها، لكنني أظن أحياناً أن خلف هذا السلوك المتدلل والمتزلزل أمراً غريباً. وإذا كان هذا صحيحاً فإن أسبابها هي أسباب لن أفهمها أنا أو أنت أو حوري.

أوماً حوري برأسه وقال: هناك تعفن بدأ من الداخل، لقد حدثت رينيسب عنه ذات مرة.

- ولم أفهمك آنذاك، ولكنني بدأت أفهم الأمر بطريقة أفضل الآن، لقد بدأ بقدم توفريت، لقد رأيت آنذاك كيف أن أبا منا لم يعد كما كنت أحسبه، لقد جعلني ذلك أشعر بالخوف، والآن... كل شيء حولنا خوف!

وحركت يدها بإيماءة تنم عن العجز، فقال حوري: الخوف هو المعرفة الناقصة. عندما تعرف لن يكون هناك مزيد من الخوف يا رينيسب.

وتابعت إيزا: ثم هناك كيت أيضاً.

صرخت رينيسب: حينئذ؟ لكن حينئذ مخلصه لنا جميعاً ولا تتوقف عن تكرار ذلك.

إيزا: من السهل التلطف بالكاذب على أنها حقيقة. لقد عرفت حينئذ منذ سنوات عديدة، عرفت حين أنت هنا مع أمك وهي شابة، وكانت إحدى فتيات أمك، فقيرة سيئة الحظ. لم يكن زوجها يهتم بها وكانت عادية المظهر غير جذابة، وتوفي طفلها الوحيد، وقدمت إلى هنا وهي تعلن إخلاصها لأمك، ولكنني كنت أرى عينيها تراقبان أمك وهي تتجول في المنزل والفناء، وأنا أخبرك يا رينيسب: لم يكن فيهما حب أبداً، بل كان فيهما الحسد. أما إعلانها أنها تحبكم جميعاً فلا أثق به.

حوري: أخبريني يا رينيسب، هل تحبين حينئذ؟

قالت رينيسب بتردد: لا... لا أستطيع. لقد كنت أويخ نفسي دائماً لأنني كنت أكرهها.

قال حوري: ألا تظنين أن ذلك كان لأنك تعلمين - غريباً - أن كلامها هذا زائف؟ هل سبق لها أن أظهرت لكم حينها العتيد على شكل خدمات حقيقية؟ ألم تعمل دائماً على نشر الشقاق بينكم عن طريق الهمس وتكرار الأمور التي تؤدي إلى الفتنة وإثارة الغضب؟

- بلى، بلى، هذا صحيح.

ضحكت إيزا ضحكة جافة وقالت: لديك عينان وأذنان أيها المحترم حوري.

قالت رينيسب: لكن والذي يثق بها ويحبها.

نظرت إليه إيذا بعض الوقت ولم تتحدث، ثم قالت أخيراً: أنا على استعداد لدفع الكثير لأعرف ما الذي يدور في ذهنك.

لم يجب حوري فوراً، بل قال بعد لحظات بدا خلالها أنه يفكر: إن المؤشر الوحيد على ما يدور في ذهن الناس يكمن في سلوكهم. إذا تصرف الرجل تصرفاً غريباً ولم يكن على سجيته...

رينيسب: فعندها تشك فيه؟

- نعم، هذا ما أعنيه بالضبط. إن الرجل الذي يملك عقلاً شريراً ونواياه شريرة يكون مدركاً واعياً لهذه الحقيقة، وهو يعلم أنه يجب أن يخفيها مهما كان الثمن، ولذلك فإنه لا يجرؤ على إظهار أي سلوك غير عادي.

إيذا: هل قلت الرجل؟

- الرجل والمرأة... الأمر سيان.

رسمه إيذا بنظرة حادة ثم قالت: فهست. وماذا بشأننا؟ ماذا عن الشكوك فينا نحن الثلاثة؟

- يجب مواجهة هذا أيضاً. لقد كنت أنا موضع ثقة: صنع العقود، والتصرف في المحاصيل كان دائماً بيدي، وكنت أتعامل مع كل الحسابات، وربما أكون قد زيفتها كما اكتشف كاميني أنه قد جرى في الشمال، وربما تحبّر حموس من حساباتي ولعله بدأ يشك في الأمر، لهذا لم يكن لي بد من التخلص من حموس.

وابتسم حوري من كلامه، فقالت رينيسب: آه، حوري! كيف

يستطيع أن يعلم ما يدور في قلب الإنسان؟ يستطيع رجل ذو عزم وإصرار أن يلعب دوراً، فهل غضب كاميني بشدة من وفاة نوفريت وهل يسعى إلى الانتقام لها بالفعل؟ وإذا كانت ساتيني قتلت نوفريت فهل يجب أن يموت بحموس زوجها أيضاً؟ أجل، وسوك أيضاً الذي هددها، وربما كيت التي تضايقها قليلاً، وأبي الذي كان يكرهها أيضاً؟ إن الأمر يبدو خيالياً، لكن من يستطيع أن يعرف؟

سكتت إيذا ونظرت إلى حوري الذي سألتها: من يستطيع يا إيذا؟

نظرت إليه بدهاء وقالت: ربما تستطيع أنت يا حوري! أنت تظن أنك تعرف، اليس كذلك؟

وصمت حوري لحظة ثم قال: لدي فكرة عمّن وضع السم في الشراب وعن السبب، ولكنها فكرة لم تتضح بعد.

وسكتت لحظة ثم تجهم وهز رأسه بالنفي وقال: لا، لا أستطيع أن أوجه اتهاماً محددًا.

- إننا نتحدث هنا عن شكوك. تابع يا حوري، تكلم.

هز حوري رأسه: لا يا إيذا، إنها مجرد فكرة ضبابية، وإن كانت صحيحة فالأفضل ألا تعرفي. ربما تكون المعرفة خطيرة، والشيء ذاته ينطبق على رينيسب.

- إذن فالمعرفة خطر عليك يا حوري؟

- نعم، هي كذلك. أظن - يا إيذا - أننا جميعاً معرضون للخطر رغم أن رينيسب ربما كانت أقلنا تعرضاً له.

الفصل السابع عشر الشهر الثاني من فصل الصيف اليوم الأول

-١-

هرعت حبيبت إلى غرفة إيزا حين دخلتها وقالت: إذن فقد
كنت خارج المنزل. هذا أمر لم تفعليه منذ عام تقريباً.
كانت عيناها تنظران باستفسار إلى إيزا. قالت إيزا: للعجائز
نزواتهن.

- لقد رأيتك تجلسين عند البحيرة... مع حوري ورينسب.
- إنهما جليسان راتعان كلاهما. هل يحدث شيء ولا توبنه
يا حبيبت؟

- لا أعلم ماذا تفصدين! كنت تجلسين هناك بوضوح ويستطيع
الجميع أن يراك.

- ولكن ليس قريباً فيستطيع الجميع سماعي.

١٩٩

تستطيع أن تقول مثل هذه الأمور؟ لن يصدقك من يعرفك جيداً.
- لا أحد يعرف أحداً آخر يا رينسب، دعيني أخبرك بهذا
مرة أخرى.

إيزا: وأنا؟ إلام تشير الشكوك في حالتي؟ حسناً، إنني عجوز،
وحين يشيخ العقل فإنه يمرض أحياناً فيكره ما كان يحبه، ربما كرهت
أحفادي وسعيت للقضاء على أقربائي... إنه مرض الروح الشريرة
الذي يصيب كبار السن أحياناً!

رينسب: وأنا؟ لماذا أحاول أنا قتل إخوتي الذين أحبهم؟

- إذا مات يحموس وسويك وأبي فسوف تكونين آخر أبناء
إمخوتب وسوف يؤول كل شيء إليك، وستجدين زوجاً وتكونين
وزوجك وصيبن على أولاد يحموس وسويك.

وابسم حوري ثم أكمل قائلاً: لكتنا لا نشك فيك
يا رينسب.

وقالت إيزا: بل إننا نحبك أيضاً.

* * *

١٩٨

Chassey

يسمح لنفسه أن يظهر على وجهه ملامح لم يكن ليظهرها في مناسبة أخرى. لهذا فإني أسألك مرة أخرى: لماذا تبسمين بمثل هذا الرضا الخفي؟

- إن ما تقولينه فظيع... فظيع جداً!

- أنت خائفة.

- ومن لا يشعر بالخوف ومثل هذه الأمور تحدث في المنزل؟ نحن كلنا خائفون، أنا واثقة من ذلك... وتلك الروح الشريرة تعود من الموت لكي تعذبنا! ولكنني أعلم ما الأمر، لقد كنت تستمعين إلى حوري. ماذا قال عني؟

- وما الذي يعلمه حوري عنك يا حينيت؟

- لا شيء، لا شيء أبداً. يجب أن تسألني ما الذي أعرفه أنا

عنه؟

اتسعت عينا إيزا وقالت: حسناً، ما الذي تعرفينه؟

- أنتم كلكم تحتقرون المسكينة حينيت؛ تظنون أنها بشعة وغريبة، ولكنني أعرف ما يدور هنا. هناك الكثير من الأمور التي أعرفها، بالتأكيد. ربما أكون غبية ولكن يمكنني أن أعرف كم حبة فاصولياء تُزرع في صف واحد... ربما أكثر مما يرى الناس الأذكياء مثل حوري. عندما يلتقي حوري بي في أي مكان فإنه يتظاهر وكأنني غير موجودة وكأنه يرى شيئاً خلفي، شيئاً غير موجود. من الأفضل له أن ينظر إليّ... ربما يظن أنني نافهة وغريبة، ولكن الأذكياء ليسوا

ضحكت إيزا فشمخت حينيت بأنفها بغضب وقالت: لا أعلم لماذا أنت قاسية عليّ يا إيزا وتغمزين دائماً من فتاتي. إنني مشغولة بعملتي ولا وقت لدي لأستمع إلى محادثات الآخرين، ولماذا أهتم بما يقولونه؟

- لقد تساءلت دائماً.

- لولا خاطر إمحوتب الذي يقدرني...

قاطعتها إيزا بحدة: أجل، لولا خاطر إمحوتب. إنك تعتمدين عليه، أليس كذلك؟ ولو حدث أي شيء لإمحوتب...

كان دور حينيت في المقاطعة: لن يحدث شيء لإمحوتب.

- كيف تعرفين يا حينيت؟ هل في هذا المنزل أمان؟ لقد حدث

شيء ليحموس وسوبك.

- هذا صحيح، لقد مات سوبك وكاد يحموس أن يموت.

فانحنت إيزا إلى الأمام وقالت باهتمام: حينيت، لماذا ابتسمت

حين قلت هذا؟

بُغت حينيت وهتفت بدهر: أنا؟ ابتسمت؟ إنك تحلمين يا إيزا. هل من الممكن أن أبتسم في مثل هذه اللحظة ونحن نتحدث عن أمر رهيب كهذا؟

- صحيح. إنني شبه عمياء، ولكنني أحياناً وبقليل من الضوء أستطيع الرؤية جيداً. يحدث أحياناً عندما يتحدث شخص ما إلى شخص آخر يعلم أنه لا يرى جيداً أن لا يكون المتحدث حذراً، إذ

أدركت أنها كانت خائفة من الانضمام إلى كيت والنظر إلى وجهها العادي والهادئ خوفاً من أن تجد فيه وجه قاتل، وراقبت حينئذ وهي تهرع إلى الشرفة وقد ازداد شعورها بالاشمئزاز. ثم دارت بيأس نحو باب الفناء، وبعد لحظة التفت بأبيي يدخل مرفوع الرأس وابتسامة مرحة على وجهه الوقح.

وجدت رينسب نفسها تحديق إليه... أبيي، طفل العائلة المدلل، الصبي الوسيم العنيد الذي تذكره عندما غادرت مع خاي.

- ما الأمر يا رينسب؟ لماذا تنظرين إليّ بهذه الطريقة الغريبة؟

- هل كنت كذلك؟

ضحك أبيي وقال: إنك تبدين غيبة مثل حينئذ.

هزت رينسب رأسها قائلة: حينئذ لست غيبة، بل ماكرة جداً.

- إنها تمنك كثيراً من المكور، أعلم ذلك. في الحقيقة هي مصدر إزعاج في هذا المنزل... إني أتوي التخلص منها.

فنحت رينسب فمها وأغلقتة، وهمست: تتخلص منها؟

- ما الذي أصابك يا أختي العزيزة؟ هل أصبحت أيضاً ترين أرواحاً شريرة مثل ذلك الراعي الأسود المسكين الغبي؟

- أنت تظن أن الجميع أغبياء.

هم دائماً الذين يعرفون كل شيء. كانت ساتيبي تظن أنها ذكية، وأين هي الآن؟ أريد أن أعرف.

توقفت حينئذ وعلامات الانتصار تبدو عليها، ثم بدا أن وخزة ضمير قد اعترتها فانكمشت قليلاً وهي تنظر إلى إيزا بعصبية. ولكن بدا أن إيزا كانت مستغرقة في حيل أفكارها، علت وجهها نظرة دهشة شديدة، نظرة خائفة. ثم قالت ببطء وتأمل: ساتيبي...

قالت حينئذ بصوتها المتحجب كالمعتاد: أنا أسفة يا إيزا لأنني فقدت أعصابي. لا أعلم حقاً ماذا انتابني، لم أعن شيئاً مما قلت...

قاطعتها إيزا وهي تنظر إلى الأعلى: اذهبي يا حينئذ. سواء عنيت ما قلته أم لم تعنه فلا أهمية لذلك، ولكنك قلت عبارة أيقظت أفكاراً جديدة في عقلي. اذهبي يا حينئذ، وإني أحذرك... كوني حذرة فيما تقولين وتفعلين. لا تريد مزيداً من الوقيات في المنزل... أرجو أن تكوني قد فهمت.

«كل شيء مخيف!»

وجدت رينسب هذه الكلمات تندفع إلى شفتيها بتلقائية خلال جلسة المشاورات عند البحيرة، ولكنها لم تبدأ بإدراك حقيقة تلك الكلمات إلا لاحقاً. خرجت لكي تنضم إلى كيت والأطفال حيث كانوا مجتمعين قرب الجناح الصغير، ولكنها وجدت أن قدميها تتعثران، ثم توقفت لإرادياً.

يتكلمون بحكمة ويستعملون كلمات طويلة. يمكنك أن تلومي الشريعة
نوفريت إن أحببت، ولكن يحموس، أخاك العزيز... انتهى.

- ألا تخاف على نفسك يا أبي؟

- أخاف؟ أنا؟

ضحك أبي وهو يرجع برأسه إلى الخلف، فقالت رينيسب:

لم تكن نوفريت تحبك كثيراً يا أبي.

- لا يمكن شيء أن يؤذي يا رينيسب إلا إذا سمحت أنا
بذلك؛ إنني لا أزال صغيراً ولكنني من أولئك الذين ولدوا لينجحوا.
أما أنت يا رينيسب فسوف يكون من الأفضل لك أن تنضمي إلي،
اتسمعين؟ إنك غالباً ما تعامليني على أنني طفل مستهتر، ولكنني
أكثر من ذلك. سوف تلحظين تغيراً في كل شهر، وقريباً جداً لن
يكون في هذا المكان سوى إرادتي أنا. ربما أعطى والدي الأوامر
ولفظها بصوته، ولكن العقل الذي يقررها هو عقلي.

وتقدم خطوة إلى الأمام، ثم توقف وقال بعدم اهتمام: لهذا

احذري يا رينيسب من أن أغضب منك.

وفيما وقفت رينيسب تنظر خلفه سمعت صوت خطوات

ودارت لترى كيت تقف خلفها.

- ماذا كان أبي يقول يا رينيسب؟

قالت رينيسب ببطء: يقول إنه سيكون السيد هنا قريباً.

- هل قال هذا؟ إنني أرى غير ذلك.

- لقد كان ذلك الراعي غيباً بالتأكيد. ولكن ما تقوليه صحيح؛

أنا لا أتحمّل الغباء. لقد شاهدت كثيراً منه، ويمكنني أن أخبرك
بأنه ليس أمراً مسلياً أن يجد المرء نفسه مع أخوين بطيئين أكبر منه لا
يستطيعان الرؤية أبعد من أنفيهما. والآن وقد ابتعدا عن الطريق ولم
يبق سوى والدي لاتعامل معه فسوف تلحظين الفرق قريباً. سوف
يفعل والدي ما أطلبه.

نظرت رينيسب إليه. بدا وسيماً ومتغطرساً، وكان منتشياً بتأثير
شعور بحياة منتصرة ونشطة، وقد بدا لها ذلك أكثر من المعتاد. يبدو
أن وعياً داخلياً يسمح له بهذا الإحساس بالحياة والرضا.

قالت رينيسب بحدة: أخواني لم يبتعدا عن الطريق كما قلت،
فيحموس ما زال حياً.

نظر إليها أبي بشيء من التهكم الوقح وقال: وأحسبك تعتقدين
أنه سوف يشفي؟

- لم لا؟

ضحك أبي وردد: لم لا؟ حسناً، ببساطة أنا لا أتفق معك.
لقد انتهى يحموس؛ ربما يشفي قليلاً ويجلس ويتأوه تحت الشمس،
ولكنه لم يعد رجلاً. لقد سُقي من الآثار الأولية للسم، ولكن يمكنك
الرؤية بنفسك بأنه لم يتحسن أكثر من ذلك.

- ولم لا يتحسن؟ يقول الطبيب إنه لن يمر وقت طويل قبل
أن يعود قوياً كما كان من قبل.

هز أبي كتفيه وقال: الأطباء لا يعرفون كل شيء... إنهم

- كل شيء على ما يرام يا والدي. كنا نجني الشعير،
والمحصول جيد.

- نعم، والشكر للإله لأن الأمور تجري على ما يرام في
الخارج. أتمنى أن تتحسن الأمور في الداخل أيضاً، ولكن ينبغي عليّ
أن أتق بأشائيت؛ إنها لن ترفض مساعدتنا في محنتنا. إنني قلق بشأن
يحموس ولا أستطيع أن أفهم تبعه، ذلك الضعف غير المبرر.

ابتسم أبي بتهمك وقال: يحموس كان ضعيفاً دائماً.

قال إمحوتب بلطف: هذا ليس صحيحاً، بل كانت صحته
جيدة دائماً.

قال أبي بتأكيد: إن الصحة تعتمد على روح الرجل. لم تكن
لدى يحموس الروح والحيوية، بل إنه كان يخشى حتى من إعطاء
الأوامر.

قال إمحوتب: هذا لا ينطبق عليه مؤخراً. لقد أظهر يحموس
في الشهور الأخيرة أنه يملك السلطة والقوة، ولقد دُهِشت للامر،
لكن هذا الضعف في أطرافه يقلقني. لقد أكد لي ميرسو أن الشفاء
سوف يكون سريعاً بمجرد زوال تأثير السم.

أزاح حوري ورق البردي جانباً، وقال بهدوء: هناك سموم
أخرى.

قال إمحوتب: ماذا تعني؟

تحدث حوري بصوت رقيق تأملي: هناك أنواع من السموم

صعد أبي درجات الشرفة بخفة إلى المنزل. بدا أن منظر
يحموس وهو مستلق على الأريكة يسعده، وقال بمرح: حسناً، كيف
حالك يا أخي؟ ألن نراك تعود إلى الزراعة؟ لا أفهم لِمَ لم يتوقف
العمل بدونك؟

قال يحموس بغضب وصوت ضعيف: لا أستطيع أن أفهم
الامر. لقد زال السم الآن فلماذا لا أستعيد قوتي؟ لقد حاولت المشي
هذا الصباح فلم تسندني قدمي. إنني ضعيف... ضعيف، والأسوأ
من ذلك أنني أزداد ضعفاً كل يوم!

هز أبي رأسه بمواساة زائفة وقال: هذا سيء بالفعل. ألم
يساعدك الطبيب؟

- مساعد ميرسو يأتي كل يوم، لكنه لا يستطيع أن يفهم حالتي.
إنني أشرب شراباً قوياً مستخلصاً من الأعشاب وتقدم القرابين يومياً
إلى الآلهة ويقدم لي غذاء خاص، والطبيب يؤكد لي أنه ليس من
سبب يمنعني من استعادة فواي بسرعة، ولكني بدلاً من ذلك أضعف
يوماً بعد آخر!

- هذا سيء.

ثم مضى أبي وهز بعني بصوت متخفص حتى وصل إلى حيث
كان وانداه وحوري مشغولين بورقة من الحسابات، وأشرق وجه
إمحوتب التليق المهوم لدى رؤيته أصغر أبنائه وأحبيهم إليه وهنفت:
ها هو أبي ابني. ماذا لديك لتقول لي عن المزرعة؟

- ولكن هذا يعني... أن هنا، في هذا المنزل.

صرخ آبي: هراء، هراء!

رفع حوري حاجبيه استغراباً وقال: دعونا نجرب، وسنعرف إن كان هذا هراء.

خرج آبي غاضباً من الغرفة، وحذف حوري إليه مفكراً وقد علت الحيرة والتجهم وجهه.

-٤-

خرج آبي من المنزل وهو في غاية الغضب فكاد أن يوقع حينئذ أرضاً فصاح بها: ابتعدي عن طريقي يا حينيت، إنك تتسللين دائماً وتقفين في الطريق.

- كم أنت قاسٍ يا آبي! لقد رضضت يدي!

- هذا أمر جيد، لقد مللت منك ومن أساليبك المتباكية. كلما سارعت بمغادرة المنزل كان هذا أفضل، وسوف أتولى طردك من البيت.

لمعت عينا حينيت بحقد وقالت: إذن فأنت سوف تطردني، أليس كذلك؟ بعد كل هذا الاهتمام والحب الذي أوليتكم إياه! لقد كنت مخلصاً للعائلة كلها... والدك يعلم هذا جيداً.

- أنا واثق أنه سمع هذا كثيراً، وكذلك نحن، وفي رأيي أنك مجرد امرأة خبيثة اللسان تحيين صنع المكائد. لقد ساعدت توفريت

المعروفة التي لا تعطي تأثيراً فورياً عفيفاً... إنها غادرة! فإذا أخذ منها القليل في كل يوم فإنها تتراكم في الجسم، وبعد شهر طويل من الضعف يأتي الموت! هذه معلومات شائعة بين النساء، إنهن يستعملنها أحياناً كي يتخلصن من أزواجهن وليجعلن الأمر يبدو طبيعياً.

شحب وجه إمحوتب وقال: هل تلمح إلى أن هذا... هذا ما يعاني منه يحموس؟

- ألمح إلى أن هذا احتمال وارد بالرغم من أن عيداً يأكل من طعامه قبل أن يقدم إليه، إلا أن مثل هذا الاحتياط لا يعني شيئاً طالما أن الكمية التي توضع في طبق واحد في أي يوم لا تكفي لإحداث أثر صار.

صرخ آبي بصوت مرتفع: حماقة، حماقة بالتأكيد! لا أصدق أن مثل هذه السموم موجودة، أنا لم أسمع بها من قبل.

رفع حوري عينيه وقال: أنت صغير يا آبي، وهناك أمور لا تزال تجهلها.

هتف إمحوتب: ولكن ما الذي يمكننا فعله؟ لقد ناشدنا آشايت وأرسلنا القرابين إلى المعبد... دون أن يعني ذلك أنني كنت أو من بالمعابد. النساء هن الساذجات بشأن هذه الأمور. ماذا يمكننا أن نفعل أكثر من هذا؟

فكر حوري وقال: دعوا طعام يحموس يُعدّ على يد عبد واحد موثوق به، ولتتم مراقبة هذا العبد دائماً.

Chassey

همس بحموس بكآبة مفاجئة: إنني أموت. نعم، إنني أموت!
تجهمت حينئذ وقالت: سوف يموت آخرون قبلك.
- ماذا؟ ماذا تعنين؟

رفع نفسه مستنداً إلى مرفقه وحدق إليها فقالت: إنني أعلم ما
الذي أقوله.

هزت رأسها عدة مرات ثم قالت: لست أنت الذي سيموت
تالياً، انتظر وسوف ترى.

- 5 -

- لماذا تجنيبتني يا رينيسب؟

اعترض كاميني طريق رينيسب متعمداً، فاحمر وجهها خجلاً
ووجدت صعوبة في إعطاء جواب مناسب؛ فقد كان صحيحاً أنها
دارت متعمدة عندما رأته كاميني قادمًا.

- لماذا يا رينيسب؟ أخبريني لماذا؟

لم يكن لديها جواب، ولم تستطع سوى أن تهز رأسها بحزن،
ثم نظرت إليه وهو يقف مقابلها. كانت تخشى أن يبدو كاميني أيضاً
مختلفاً، لكنها وجدته لم يتغير. نظرت عيناه إليها بوقار ولم تظهر
على شفاهه هذه المرة أية إهانة، وسقطت عيناه قبل أن تلتقي
بعينيته. كان كاميني قادراً على أن يشير اهتمامها دائماً، وكان قلبه

في مكانها... أنا أعرف هذا جيداً. ثم توفيت وعدتِ تنذلين إلينا
مرة أخرى، ولكنك سوف ترين... في النهاية سوف يستمع والدي
إلني وليس إلني قصصك الكاذبة.

- أنت غاضب جداً يا أبي، ما الذي أثار غضبك؟

- لا شأن لك.

- ألسن خائفاً من شيء يا أبي؟ ثمة أمور غريبة تحدث هنا.

صاح بها: لا تستطيعين إخافتي أينما العجوز الخبيثة.

ثم اندفع خارجاً من المنزل. ودارت حينئذ ببطنها إلى الداخل،
وأثار تأوه حموس انتباهها. كان قد رفع نفسه عن الأريكة وهو يحاول
المشي، ولكن قدميه خذلناه فوراً، ولولا مساعدة حينئذ السريعة
لوقع على الأرض.

- هنا يا حموس، هنا. استلقي مرة أخرى.

- كم أنت قوية يا حينئذ! لا يظن المرء ذلك عندما ينظر
إليك.

واسترخي مرة أخرى وقد وضع رأسه عند مستند الرأس
الخشبي، ثم قال: شكراً لك، ولكن ما الذي أصابني؟ لماذا هذا
الشعور كأن عضلاتي تحولت إلى ماء!

- هذا المنزل مسحور، إنه عمل تلك الشيطانة التي أتت إلينا
من الشمال... لم يأت الخير أبداً من الشمال.

يحرك مشاعرها. وأخذ قلبها ينبض بسرعة حين قال: أنا أعلم لماذا
تجيتيني يا رينيسب.

عثرت على صوتها أخيراً: لم أكن أتجنبك، ولم ألاحظك
قديماً.

ابسم كاميني الآن، وشعرت بإتسامته من صوته وهو يقول:
هذا كذب. رينيسب، رينيسب الجميلة.

شعرت بيده الدافئة القوية تمسك بذراعها فتخلصت منه قائلة:
لا تلمسني. لا أحب أن يلامسني أحد.

- لماذا تصديتي يا رينيسب؟ أنت شابة قوية وجميلة، ومن
المنافي للطبيعة أن تحزني على زوجك طول حياتك. سوف آخذك
بعيداً عن هذا المنزل، فهو مليء بالوفيات والسحر الشرير. سوف
تأتين معي وتكونين آمنة.

قالت رينيسب بجدية: وإن لم أرذ أن أذهب معك؟

ضحك كاميني فلمعت أسنانه البيضاء القوية. قال: أنت تريدان
أن تأتي ولكنك لن تعترفي بذلك. الحياة رائعة يا رينيسب عندما
تكون الأخت والأخ معاً. إنني سأحيك وسوف أجعلك سعيدة،
ولن أغني بعد ذلك لبتاح: «أعطني أختي اللينة». بل سأذهب إلى
إمحوث وأقول له: «أعطني أختي رينيسب»... أظن أنك لست آمنة
هنا، ولذلك سوف آخذك بعيداً. أنا كاتب جيد ويمكنني العمل مع
أحد النبلاء في طيبة إن أردت، رغم أنني أحب حياة الريف هنا...
الزراعة والقطيع وأغاني الحصادين والصيد. أحب أن أبحر معك في

النهر يا رينيسب، وسوف لأخذ تيتي معنا. إنها طفلة جميلة وقوية
وسأحبها وأكون أباً عظوماً عليها. هيا يا رينيسب، ماذا تقولين؟

وقفت رينيسب صامتة وكأنها تصغي إلى قلبها الذي أخذ ينبض
بسرعة. وشعرت بوهن يتسلل إلى أحاسيسها، ولكن مع هذا الشعور
بالرقة والاستسلام كان شعور آخر... شعور بالمعارضة.

قالت في نفسها: إنني أضعف أمامه بسبب قوته وكثفيه
العريضين وقمه الضاحك، ولكنني لا أعرف شيئاً عن عقله وأفكاره
وقلبه. ليس بيننا أمان ولا انسجام... ما الذي أريده؟ لا أدري، ولكن
ليس هذا ما أريده. نعم، ليس هذا.

وسمعت نفسها تقول بكلمات بدت لأذنيها ضعيفة فيها شك: لا
أريد زوجاً آخر... أريد أن أكون وحدي، أن أكون نفسي.

- لا يا رينيسب، أنت مخطئة. أنت لم تخلفي كي تكوني
وحيدة. بذاك تقولان ذلك عندما ترتجفان بين يدي... أتريين؟

سحبت رينيسب يدها بعيداً بجهد كبير وقالت: لا أحبك
يا كاميني، بل أظن أنني أكرهك.

ابسم وقال: لا أمانع في كراهيتك يا رينيسب لأن كراهيتك
أقرب ما تكون إلى الحب. سوف نتحدث في الموضوع مرة
أخرى.

ثم تركها وتحرك بسرعة. ومشت رينيسب ببطء إلى حيث
كانت كيت والأطفال يلعبون قريباً من البحيرة. تحدثت كيت إليها،

نظرت تبتي إلى الأعلى وابتسمت وهي ترى أمها، وكانت ابتسامة رزينة ومحبة تملؤها الثقة والسعادة.

فكرت رينيسب: لا، إنها ليست أنا كما أنها ليست خاي؛ إنها نفسها، إنها تبتي، إنها وحدها، كما أنا وحدي كما هو كل إنسان وحده. وإذا ما توفر الحب بيننا فسوف تكون أصدقاء طول حياتنا، ولكن إذا افتقدنا الحب فإنها سوف تكبر وتكون أنا وهي غريبتين... إنها تبتي وأنا رينيسب.

كانت كيت تنظر إليها بفضول وقالت: ماذا تريدان يا رينيسب؟ أنا لا أفهم.

لم تحب رينيسب. كيف ستعبر لكيت عن الأشياء التي لا تستطيع هي نفسها فهمها. نظرت حولها، إلى جدران الفناء والشرقة ذات الألوان البهجة ومياه البحيرة الهادئة والسرادق الممتع الصغير وأحواض الأزهار الأنيقة وأشجار البردي... كل ذلك آمن مغلق، لا شيء يخيف، وحولها الأصوات المنزلية المألوفة وثرثرة الأطفال وضجيج النساء الأجنس الحاد والعييد في المنزل وأصوات المواشي البعيدة...

قالت ببطء: لا يستطيع المرء أن يرى النهر من هنا.

دهشت كيت وقالت: لماذا يريد المرء رؤيته؟

قالت رينيسب ببطء: إنني غبية... لا أعلم.

وأمام عينيها رأت بوضوح سلسلة الحقول الخضراء المنتشرة،

لكن رينيسب أجابت بعشوائية، ورغم ذلك بدا أن كيت لم تلاحظ ذلك أو أن عقلها كان - كالعادة - مشغولاً بالأطفال فلم تولي اهتماماً للأمور الأخرى.

قالت رينيسب تقطع الصمت: هل يجب أن أتخذ زوجاً جديداً؟ ماذا تظنين يا كيت؟

أجابت كيت بهدوء ولا مبالاة: أظن أن ذلك سيكون أفضل؛ إنك قوية وشابة يا رينيسب، ويمكنك أن تنجني مزيداً من الأطفال.

- وهل هذا كل ما في حياة المرآة يا كيت؟ أن أشغل نفسي في جناح النساء وأنجب الأطفال وأقضي الأمسيات معهم قرب البحيرة تحت شجرة الجميز؟

- أجل؛ هذا هو كل ما بهم المرأة. أنت تعلمين هذا بالتأكيد. لا تحدثنني كأنك عبدة. النساء يملكن السلطة في مصر والميراث يتقل منهن إلى أولادهن. إنهن تسع حياة مصر.

نظرت رينيسب مفكرة إلى تبتي المشغولة بعمل إكليل من الزهور للعبتها، وكانت الطفلة متجهمة قليلاً وهي مستغرقة في عملها. كانت تبتي في وقت سابق تشبه خاي أباهما، تحرك شفرتها مثله وتدبر رأسها قليلاً إلى الجوانب، وكان قلب رينيسب يقفز عندها حباً وألماً. أما الآن فإن وجه خاي لم يعد واضحاً في مخيلة رينيسب، وتبتي أيضاً لم تعد تحرك رأسها أو تلوي شفرتها. كما كانت رينيسب تحضن تبتي أحياناً وهي تشعر بأنها جزء منها، بأنها تملكها، ثم تقول لنفسها: إنها أنا، كما أنها خاي!

الفصل الثامن عشر الشهر الثاني من فصل الصيف اليوم العاشر

-١-

جلس إنحونب شارد الذهن، يبدو كأنه كبير سنوات عدة...
رجل عجوز محطّم تبدو عليه ملامح الفجعة والدهشة! وأحضرت
حبّيت له الطعام وجعلت تلاطفه وتحاول إقناعه ليأكل: يجب أن
تأكل يا سيدي لتحتفظ بقوتك.

- ولماذا يجب أن أكون قوياً؟ وما هي القوة؟ كان أبي شاباً قوياً
جميلاً، وهو منقّى الآن في الماء المملح! ابني العزيز المحبوب...
آخر أبنائي!

- لا، لا يا سيدي. لا يزال لديك يحموس، ابتك الطيب
يحموس.

- إلى متى؟ إنه محكوم بالموت هو الآخر، وقد نموت
جميعاً. ما هذا الشر الذي لحق بنا؟ وكيف كان لي أن أعرف أن هذه

٢١٧

غنية وواسعة ووراءها - من بعيد - مساحة رائعة من أزهار البنفسج
الفاتحة وهي تغيب في الأفق، ويخترق نهر النيل الأزرق زرقة فاتحة
كالفضة.

وحيث أنفاسها، فقد اختفت الصور والمناظر والأصوات
المحيطة وحتّى محلها السكون والرضا الخالص. قالت لنفسها: إذا
أدركت رأسي فسأرى حوري يرفع نظره عن أوراق البردي ويتسم لي،
ثم تغرب الشمس ويخيم الظلام وأنام... سيكون هذا هو الموت.

- ماذا قلت يا رينيسب؟

جفلت رينيسب. لم تكن تعي أنها تحدثت بصوت مرتفع،
فرجعت من تخيلاتنا إلى الواقع. كانت كبت تنظر إليها بقضول وهي
تقول: لقد ذكرت «الموت» يا رينيسب... قيم كنت تفكرين؟

هزت رينيسب رأسها وقالت: لا أعلم، لم أعين...

نظرت حولها مرة أخرى. كم كان منظر العائلة هذا ممتناً:
قطرات الماء المتطابرة والأطفال يلعبون... وسجبت نفساً عميقاً.

- يا للمكان الآمن! لا يستطيع المرء أن يتخيل أن أمراً فظيلاً
سوف يحدث هنا.

ولكنهم عثروا على أبي في البحيرة في صباح اليوم التالي
ممدّداً وقد فتح ذراعيه ورجليه ووجهه إلى الأسفل في الماء، حيث
أمسكت برأسه يد في الماء حتى اختنق ومات!

٢١٦

- تلك الفتاة الملعونة وجمالها... أتمنى لو أنني لم أرها!

- نعم، بالتأكيد يا سيدي العزيز. لقد تعلّمت السحر الشرير، لا شك في ذلك.

سُمع نقر عصاً على الأرض ودخلت إيزا تخرج إلى القاعة، وضحكت بسخريّة: أليس في هذا المنزل أحد يعقل؟ أليس لديكم ما تفعلونه أكثر من لعن فتاة بائسة متوفاة أثارت إعجابك وأشعل كيدها وحقدتها التافه تصرفات غبية لزوجات أبنائك؟

- كيدها وحقدتها التافه؟ هل هذا ما تصفين به فعلها يا إيزا؟ في وقت مات فيه اثنان من أبنائي والثالث يحتضر! آه، كيف لأمي أن تقول ذلك؟

- يجب أن يقولها لك شخص ما ما دمت لا تستطيع أن تدرك الحقائق. دعك من هذه الخرافات، كيف تفعل روح فتاة ميتة كل هذا الشر؟ إن اليد التي أغرقت أبي يد حية لا ميتة، وكذلك اليد التي وضعت السم في الشراب الذي شربه يحموس وسوبك، إن لديك عدواً يا إمحوتب، نعم، عدواً في هذا المنزل. والدليل عليه أن نصيحة حوري منذ نفذت وأصبحت رئيسة هي التي تعد بنفسها طعام يحموس أو يقوم أحد العبيد بإعداده فيما هي تراقبه وتحمله هي بنفسها إليه... منذ ذلك الوقت ويحموس يستعيد قوته كل يوم. حاول أن تتوقف عن التصرف بغباء يا إمحوتب والنحيب وضرب الرأس، ودعك من حينيت التي تشجعك على هذا السخف.

- آه يا إيزا، كم تسيئين إلي!

الأشياء سوف تحصل عندما اتخذت جارية في منزلي؟ إنه أمر مقبول وصحيح يتفق مع قانون البشر والآلهة. لقد عاملتها باحترام، فلماذا إذن تحدث مثل هذه الأمور؟ أم أنها أشايت التي تريد الانتقام مني؟ أهي التي لا تريد أن تغفر؟ إنها لم تستجب لعريضتي بالتأكيد، فإن الشر ما يزال مستمراً!

- لا يا سيدي، يجب ألا تقول هذا. لم يمر وقت طويل منذ وضع الوعاء في غرفة القرايين، وما يدرينا كم تحتاج قضايا القانون والعدالة من وقت في ذلك العالم؟ إن قضايا التأجيل لا تنتهي في محكمة نورمانش وتطول أكثر عندما تصل القضية إلى الوزير... العدالة هي العدالة في هذا العالم وفي العالم الآخر: عمل ينفذ ببطء، لكنه ينتهي نهاية صحيحة.

هز إمحوتب رأسه في شك، وتابعت حينيت: وبالإضافة إلى ذلك - يا إمحوتب - يجب أن تذكر أن أبي لم يكن ابن أشايت. لقد وُلد من أختك أنخ، فلماذا يجب أن تنعب أشايت نفسها من أجله؟ ولكن الأمر مع يحموس مختلف... سوف يشفي يحموس لأن أشايت سوف تتولى ذلك.

- أعترف أن كلماتك تريحني يا حينيت. صحيح أن يحموس يستعيد الآن قواه في كل يوم، فهو ولد مخلص وجيد، ولكن... آه العزيزي أبي، تلك الحيوية وذلك الجمال!

تأوه إمحوتب مجدداً، وانتحبت حينيت بتعاطف: واحسرتاه، واحسرتاه!

Chassey

انحنى على البحيرة ليغسل وجهه دون خوف من الشخص الذي اقترب منه، وفي هذه الحالة لا يحتاج الأمر إلى قوة كبيرة.

- ماذا تحاولين أن تقولي يا إيزا؟ إن امرأة هي التي فعلت ذلك؟ هذا مستحيل... الأمر كله مستحيل. كيف يكون في هذا المنزل عدو ولا نعرفه؟ سأعرفه إن كان في البيت.

- الشر مخفي داخل القلوب ولا يظهر على الوجه يا إمحوتب.
- تعنين أحد خدمنا أو العبيد...
- ليس خادماً ولا عبداً يا إمحوتب.

- تعنين واحداً منا؟ أو ربما حوري أو كاميني؟ لكن حوري أحد أفراد العائلة وقد أثبت أنه مخلص يستحق الثقة، وكاميني... صحيح أنه غريب لكنه من دمي وقد أثبت إخلاصه بحماسة في خدمتي. وقد جاء إلي هذا الصباح وطلب مني أن أزوجه رينيسب.

ظهر الاهتمام على وجه إيزا وقالت: وماذا قلت له؟

- ماذا يمكنني أن أقول؟ قلت إننا في حالة سيئة وبحموس مريض، فهل هذا هو وقت الحديث في الزواج؟

- وماذا أجب؟

- قال إنه يظن أن هذا هو الوقت المناسب للحديث في الزواج لأن رينيسب ليست آمنة في هذا المنزل.

- حينئذ تفعل ذلك إما لأنها غبية أو لسبب آخر.

- قلبسامحك الله يا إيزا لقساوتك هذه على امرأة وحيدة مسكينة.

اندفعت إيزا وهي تهز عصاها بإيماءة معبرة: تمالك نفسك يا إمحوتب وفكر، إن زوجتك أشايت (التي كانت -بالمسافة- امرأة محبوبة وليست حنقاء) يمكن أن تساعدك في ذلك العالم الآخر، ولكن لا تتوقع منها أن تتمكن من التفكير عوضاً عنك في هذه المشكلة. ينبغي أن نفعل شيئاً، لأننا إن لم نفعل فسنتع المزيد من الوفيات في هذا البيت.

- عدو حي؟ عدو في هذا المنزل؟ هل تؤمنين بذلك حقاً يا أمي؟

- بالطبع أؤمن بذلك؛ هذا هو الأمر الوحيد المعقول.

- إذن فنحن جميعاً في خطر!

- بالتأكيد نحن كذلك. لسنا نحت خطر السحر والأرواح، لكنها قوة بشرية، أصابع حية تضع السم في الطعام والشراب وتتسلل خلف صبي يعود متأخراً في الليل من القرية وتدفع برأسه إلى مياه البحيرة!

- إن من يفعل ذلك يجب أن يكون قريباً.

- نعم، هذا صحيح في ظاهري الأمر، ولكنني غير متأكدة من ذلك؛ فقد عاد أبي ثملاً من القرية ودخل مترنحاً إلى البيت، وربما

إذا كان أحدٌ جديراً بالثقة فهو أنا. لقد برهنت على هذا طوال تلك السنين؛ لا تستمع إليها يا إمحوتب.

- اهديني، اهديني أيتها العزيزة حينيت... إنني أئن فيك بالطبع وأعرف جيداً قلبك الصادق المخلص.

قالت إيزا: إنك لا تعرف شيئاً. لا أحد منا يعرف شيئاً... وهذا هو الخطر الحقيقي.

انتحيت حينيت: أنت تهمني!

- لا أستطيع الاتهام ولا أملك المعرفة أو الدليل، مجرد شك.

نظر إمحوتب إليها وقال بحدة: تشكين؟ فيمن؟

قالت إيزا ببطء: لقد شككت مرة ومرتين ومرة ثالثة... سوف أكون صادقة؛ لقد شككت أول الأمر في أبي، لكن أبي مات، إذن كان شكّي باطلاً. ثم شككت بشخص آخر، ولكن في يوم وفاة أبي جاءني فكرة أخرى...

ثم سكنت قليلاً قبل أن تقول: هل حوري وكاميني في المنزل؟ أرسل في طلبهما هنا... أجل، ورييسب من المطبخ أيضاً، وكيت ويحموس؛ لدي شيء أقوله على مسمع جميع أهل المنزل.

-٢-

نظرت إيزا إلى العائلة المجتمعمة، والتقت عيناها بنظرة يحموس الرزينة الرقيقة وابتسامة كاميني، والتساؤل الخائف في

٢٢٣

- لا أدري هل هي آمنة أم لا؟ ظننت أنها آمنة، وقد ظن حوري كذلك، ولكن الآن...

- وهل يمكن أن يجري المهرم مراسم الزواج والدفن معاً؟ ذلك لا يليق.

- هذا ليس وقت مراعاة التقاليد، خصوصاً أنه يبدو أن رجال التحنيط يقبسون في هذا البيت، وستزدهر مؤسسات مترو أبي للدفن وإجراءات الموت.

شرد إمحوتب برهة ثم قال: لقد رفعا أسعارهما بنسبة عشرة بالمئة... هذا ظلم! يقولون إن العمال ارتفعت أجورهم.

قالت إيزا مبسمة: يجب أن يعطونا خصماً لتعاملنا معهم بالجملة!

نظر إمحوتب إليها برعب وقال: أمي العزيزة، إن الأمر لا يحتمل الدعاية والفكاهة.

- الحياة كلها نكتة، والموت هو الضاحك الأخير. ألا تسمع ذلك في كل عيد؟ «كل، واشرب، وكن سعيداً، فإنك سوف تموت في النهاية»... هذا قول يناسبنا تماماً هنا، والسؤال الوحيد هو: من سيموت غداً؟

- ما تقولينه مخيف! ماذا يمكن أن نفعل؟

- لا تثق بأحد. هذا أول أمر وأهمه... لا تثق بأحد.

بدأت حينيت بالنحيب وقالت: لماذا تنظرين إليّ؟ أنا واثقة أنه

٢٢٢

- لم أقل شيئاً، لا شيء على الإطلاق.

- بل قلت كلمات سمعتها بأذني، وأذناي تسمعان جيداً وإن يكن نظري ضعيفاً. لقد قلت إنك تعرفين شيئاً عن حوري. والآن، ما هو الشيء الذي تعرفينه عن حوري؟

بدا حوري ذهشاً قليلاً وقال: أجل يا حبيبتي، ما الذي تعلمينه عني؟ دعينا نسمعه.

جلست حبيبتي على وركيها ومسحت عينيها، بدت متجهمة متحدية وقالت: لا أعرف شيئاً، وماذا أعرف؟

حوري: هذا ما تنتظر سماعه منك.

هزت حبيبتي كتفيها وقالت: كنت أتحدث فقط، لم أكن أعني شيئاً.

إيزا: سوف أعيد على سمعك كلماتك أنت. قلت إننا جميعاً نحتقرك، لكنك تعلمين كثيراً عما يدور في هذا المنزل وأنت تربين أكثر مما يراه الأذكباء. ثم قلت: عندما يلقاني حوري فإنه ينظر إليّ كأنني غير موجودة، كأنه يرى شيئاً خلفي، شيئاً غير موجود.

قالت حبيبتي بكآبة: إنه ينظر إليّ هكذا دائماً، كأنني حشرة! عندما ينظر إليّ بتلك الطريقة، شيء لا يهم أبداً.

قالت إيزا ببطء: لقد بقيت هذه العبارة في ذهني: شيء خلفي، شيء غير موجود.

قالت حبيبتي: كان يجب أن ينظر إليّ!

عيني رينيسب ونظرة كيت الهادئة اللامبالية، ونظرة حوري المفكرة المبهمة والخوف والارتعاج الظاهر على وجه إمحوتب المرتعش، والفضول، بل السرور، في عيني حبيبتي.

قالت إيزا في نفسها: هذه الوجوه لا تخبرني بشيء. إنها تظهر المشاعر الخارجية، ولكن تحدث خيانة هنا بالتأكيد! ثم رفعت صوتها قائلة: لدي شيء أقوله لكم جميعاً، لكنني سوف أتحدث أولاً إلى حبيبتي هنا أمامكم كلكم.

تغيرت ملامح حبيبتي؛ تلاشت ملامح السرور وبدت خائفة، وارتفع صوتها في احتجاج حاد: أنت تشكين فيّ يا إيزا... كنت أعرف هذا. سوف تحولين الأمر إلى قضية ضدي، ومن أنا؟ امرأة مسكينة لا أملك ذكاء حاداً لكي أذفع عن نفسي! سوف أदान دون أن تتاح لي فرصة الدفاع عن نفسي.

قالت إيزا بسخرية ورأت حوري يتسّم: ليس دون أن تتاح لك الفرصة للدفاع عن نفسك.

استمرت حبيبتي، وقد أخذ صوتها يصيح أكثر هستيرية: لم أرتكب شيئاً، إنني بريئة... إمحوتب، يا سيدي العزيز، أنقذني.

رمت بنفسها إلى الأسفل وأمسكت بقدميه، وبدأ إمحوتب يهيمهم، وفي الوقت ذاته كان يربت على رأس حبيبتي: إنني أحتج يا أمي، هذا مهين.

قاصته إيزا: أنا لم أصدر اتهاماً، لا أنهم أحداً دون دليل، إنني فقط أسأل حبيبتي أن توضح لنا معنى بعض الأشياء التي قالتها.

حوري أو غيره فهذا هو الوقت المناسب للحديث... هنا أمامنا جميعاً. تحدثي، ما المعلومات التي لديك؟

هزت حبيبت رأسها وقالت بإصرار: لا شيء.

- تأكدي مما تقولين يا حبيبت، فالمعرفة خطيرة.

- لا أعرف شيئاً، أقسم على ذلك.

كانت حبيبت ترتجف. لم يكن صوتها يحوي نبرته المتحمية المؤثرة، بل بدا مرتاعاً وصادقاً. وتنهدت إيزا بعمق وانحنى جسدها إلى الأمام وهمست: ساعدوني لأعود إلى غرفتي.

أتى حوري ورينيسب مسرعين نحوها، قالت إيزا: ليس أنت يا رينيسب، أريد حوري.

وانكأت عليه وهو يساعدها حتى وصلت غرفتها، فنظرت إليه ورات وجهه عابساً وتعبساً فقالت: خيراً يا حوري؟

- كنت غير حكيمة يا إيزا، غير حكيمة تماماً.

- كان يجب أن أعرف.

- نعم، ولكنك خاطرتِ مخاطرة رهيبه.

- فهمت؟ إذن فأنت تظن مثلي؟

- لقد ظننت ذلك منذ وقت، ولكن ليس عندي دليل ولا حتى ظل دليل، وحتى الآن يا إيزا ليس لديك دليل، مجرد أفكار واستنتاجات.

- يكفي أنني أعرف.

مضت إيزا بالقول: ثم انتقلت إلى الحديث عن ساتيبي، نعم، عن ساتيبي وكيف كانت ساتيبي ذكية، وقلت: لكن أين ساتيبي الآن؟

نظرت إيزا حولها وتساءلت: ألا يعني هذا شيئاً لأي منكم؟ فكروا في ساتيبي، ساتيبي التي ماتت، وتذكروا أن المرء يجب أن ينظر إلى المرء، لا إلى شيء غير موجود.

سادت لحظة صمت رهيبه ثم صرخت حبيبت، كانت صرخة عالية، صرخة كانت تبدو كأنها تعبر عن الرعب. صرخت بلا توافق في الكلام: لم أفعل... أنفذني يا سيدي... لا تدعها... لم أقل شيئاً... لا شيء!

انفجر إمحوتب غاضباً وقال بحدة: هذا لا يُغفر. لن أسمع بانهاج هذه المرأة المسكينة وإرهاها. ماذا لديك ضدها؟ في كلماتك أنت نفسك لا شيء على الإطلاق.

تدخل يحموس بدون خوفه المعتاد: أبي على حق، إن كان لديك اتهام صريح ضد حبيبت فقولي.

قالت إيزا ببطء: أنا لا أتهمها.

وانحنت على عصاها وبدا جسدها كأنه نفلص، وانتفت يحموس بسلطة واثقة إلى حبيبت فقال: إيزا لا تتهمك بارتكاب الشر الذي حدث، فإذا كنتِ فهمتها جيداً فهي تظن أن لديك معلومات محددة تخفيها. لهذا - يا حبيبت - إن كان عندك شيء تعرفينه عن

الفصل التاسع عشر
الشهر الثاني من فصل الصيف
اليوم الخامس عشر

- ١ -

- الآن وقد عرضنا الأمر عليك يا رينسب، ماذا تقولين؟

نقلت رينسب نظرها في شك بين والدها وبحموس، وشعرت
بالارتباك والذهول فقالت: لا أعلم.

خرجت هذه الكلمة من فمها بلا إحساس، وقال إمحوب:
لو كانت الظروف عادية فسجد وقتاً للنقاش، لدي أقرباء كثيرون
ويمكنك اختيار من تريد حتى تنفق على الزوج المناسب لك، لكن
الوضع الآن غير مستقر... أجل، إن الحياة غير مستقرة. هذا هو الحال
يا رينسب، نحن الثلاثة نواجه الموت الآن. بحموس، وأنت، وأنا...
من الذي سيقع عبثه الدور؟ لذلك يتوجب علي أن أرتب شؤوني. إذا
حدث أي شيء، بحموس فسوف نحتاجين - يا ابنتي الوحيدة - إلى

٢٢٩

- ربما كان ذلك أكثر مما ينبغي.
- ماذا تعني؟ آه، نعم، بالطبع.
- احذري يا إيزا، فأنت في خطر من الآن فصاعداً.
- يجب أن تصرف بسرعة.
- هذا صحيح، فما الذي تستطيع فعله؟ يجب أن يكون لدينا
دليل.
- أعرف.

لم يقلوا مزيداً، فقد جاءت خادمة إيزا الصغيرة تركض نحو
سيدتها، وتركها حوري في رعاية الفتاة وخرج ووجهه يبدو هادئاً
تغشاه الحيرة.

تحدثت الفتاة وتحوّلت حول إيزا، لكن إيزا لم تلاحظها؛
شعرت بالعجز والمرضى والبرد، ورأت الدائرة المحكمة من
الوجوه مرة أخرى تراقبها وهي تتحدث. مجرد نظرة، ومضة مؤقتة
من الخوف والفهم... هل تكون مخفية؟ هل كانت متأكدة مما رأت؟
فعينها لا تكادان تبصران.

نعم، كانت واثقة. لم يكن ما رآته مجرد تعبير بقدر ما كان توتراً
مفاجئاً للجسد كله، بل تصلياً واشتداداً. كان للكلمات الثابتة معنى
لشخص واحد فقط، كان لها ذلك المعنى القاتل الذي لا يخطف،
الذي يسمونه الحقيقة.

٢٢٨

Chassey

قال إمحوتب: سوف تشعرين بالأمان وكاميني إلى جانبك.

يحموس: أبي، هل فكرت في حوري زوجاً لرينيسب؟

- نعم، هذا جائز.

- لقد توفيت زوجته عندما كان شاباً، ورينيسب تعرفه جيداً وتحترمه.

جلست رينيسب كأنها تحلم فيما كان الرجلان يتحدثان ويتناقشان أمر زواجهما، وكان يحموس يحاول مساعدتها في اختيار ما تريده لكنها شعرت بأنها فقدت حيوتها مثل لعبة تبتى الخشبية. قالت بسرعة وهي تقاطع حديثهما دون أن تسمع ما يقولان: سوف أتزوج كاميني ما دمت تظن أنه أمر جيد.

هتف إمحوتب برضا وأسرع خارج القاعة، وتقدم يحموس نحو أخته فوضع يده على كتفها وقال: أتريدين هذا الزواج يا رينيسب؟ هل تكونين سعيدة؟

- لِمَ لا أكون سعيدة؟ كاميني وسيم ومرح ولطيف.

بقي يحموس مشككاً غير راضٍ وقال: أعرف ذلك، ولكن سعادتك مهمة يا رينيسب، يجب ألا تدعي والدي يستعجلك في فعل أمر لا تريدينه. أنت تعرفينه جيداً.

- نعم؟ عندما يضع في رأسه فكرة فيجب علينا جميعاً أن نتفحصها.

رجل بفق إلى جانبك يشاركك في ميراثك ويشرف على مستلكاتي التي لا يمكن لامرأة إدارتها. من يعلم متى يحين الوقت الذي سوف أتبعك عنك فيه؟ لقد رتبنا الأمر لتؤول الوصاية على أولاد سوبك إلى حوري إن لم يكن يحموس على قيد الحياة، وكذلك الوصاية على أولاد يحموس طالما أن هذه هي رغبته، أليس كذلك يا يحموس؟

أوما يحموس قائلاً: كان حوري مقرباً مني دائماً، وهو كأحد أفراد عائلتي.

قال إمحوتب: صحيح، صحيح، ولكن تبقى حقيقة أنه ليس أحد أفراد هذه العائلة. لكن كاميني من العائلة، إذن فإنه يعتبر - من جميع النواحي - الزوج الأفضل لرينيسب. ماذا تقولين يا رينيسب؟

كررت رينيسب مرة أخرى: لا أعلم.

شعرت بتعب فظبح وأبوها يردد: إنه وسيم ظريف، ألا توافقين على هذا؟

- بلى.

سألها يحموس بلطف: ولكنك لا تريدين الزواج به؟

رمت رينيسب أباها بنظرة امتنان. كان مصمماً ألا يتم استعجالها أو مضايقتها لتفعل أمراً لا تريد فعله. قالت: لا أعلم ما أريد، إن ذلك غباء، أنا أعلم لكنني اليوم... إنه، إنه الضغط والقلق الذي تعيش فيه.

قال يحموس بحزم: ليس بالضرورة، لن أوافق على هذا الأمر إلا إذا أردت ذلك.

- أه يا يحموس! إنك لم تقف ضد والدي أبداً.

- ولكنني سوف أفعل في هذه القضية. لا يمكنه إجباري على تأييده، وأنا لن أفعل ذلك.

نظرت رينسب إليه، وجهه الذي كان غالباً متشككاً بدا الآن حازماً ومصمماً، وقالت يامنتان: أنت لطيف يا يحموس، لكنني لا أخضع للإجبار بالتأكيد. لقد مضت تلك الحياة القديمة هنا، الحياة التي كنت مسرورة بالعودة إليها... وسوف أصنع أنا وكاميني حياة جديدة معاً ونعيش مثلما يجب على الزوج والزوجة أن يفعلوا.

- إذا كنت واثقة...

قالت رينسب وهي تبسم له بمحبة وتخرج من القاعة إلى الشرفة: أنا واثقة.

وعبرت من هناك إلى الفناء. كان كاميني يلعب مع تيتي قريباً من حافة البحيرة، فاقتربت رينسب بهدوء وأخذت تراقبهما دون أن يشعرأ بها. كان كاميني مرحاً كالعادة وبدا مستمتعاً باللعبة بنفس القدر الذي تستمتع به الطفلة. ورق قلب رينسب له وقالت في نفسها: سيكون أباً مناسباً لتيتي.

ثم التفت كاميني فرأها، فوقف وهو يضحك وقال: لقد جعلنا لعبة تيتي كاهناً يقدم القرابين ويحضر التراسم في المعبد.

قالت تيتي: اسمه ميرتاج

كانت تتحدث بجديّة وتابعت: ولديه طفلان وكاتب مثل

حوري.

ضحك كاميني وقال: تيتي ذكية جداً وقوية وجميلة أيضاً.

وانتقلت عيناه من الطفلة إلى رينسب، وقرأت رينسب في نظراته اللطيفة ما كان يدور في ذهنه... بالأطفال الذين سوف تنجبهم له ذات يوم. وسرت في جسدها رعشة بسيطة، لكنها شعرت في الوقت ذاته ببعض الأسف؛ لقد كانت تحب أن ترى في عينيه في تلك اللحظة صورتها فقط، وفكرت: لِمَ لا يستطيع أن يرى رينسب فحسب؟

ثم زال هذا الشعور واتسمت بلطف وقالت: لقد تحدثت والدي معي.

- وهل وافقت؟

ترددت لحظة قبل أن تجيبه: نعم، وافقت.

قيلت الكلمة الأخيرة وانتهى الأمر، وتمت لَو أنها تتخلص من الشعور بمثل هذا التعب والحذر.

- رينسب!

- نعم يا كاميني؟

- هل تبحرين معي عبر النهر في أحد القوارب؟ هذا أمر طالما تمنيت فعله معك.

الضريح وهي تجلس وقد رفعت إحدى ركبتيها وهي تستند ذقنها على يدها. ولكن تلك الغرفة كانت خارج الحياة... هذه هي الحياة ولا مفر حتى يأتي الموت!

وأرسي كاميني القارب وصعدت إلى الشاطئ: رفع نيتي وثبتت الغفلة به، فكسرت يدها التي وضعتها على عنقه عقدَ التعويذة التي يرتديها وسقطت عند قدمي رينيسب، فانحنى والنقطة. كانت تعويذة على شكل الإله آنخ مصنوعة من الذهب والفضة... كانت علامة آنخ من الذهب والفضة.

صرخت باعتذار: لقد التوت، أنا آسفة، كن حذراً.

أخذها كاميني قائلاً: سوف تنكسر.

ولكنه، وبأصابعه القوية، لواها أكثر فقسّمها عمداً إلى نصفين، فهتفت به: أه! ماذا فعلت؟

خذي نصفاً يا رينيسب وسأخذ الآخر، ستكون علامة بيتنا بأننا نصفان لكيان واحد!

مد نصف التعويذة إليها، وحين مدت يدها لتأخذ نصف التعويذة خطر بيالها فجأة أمر غريب... فشهقت بحدة.

- ما الأمر يا رينيسب؟

- توفريت!

- ماذا تعنين بتوفريت؟

تحدثت رينيسب بسرعة وثقة: التعويذة المكسورة في صندوق

عجباً من الغريب أن يقول هذا! منذ اللحظة الأولى التي رآته فيها فكرت في الشراع الممدود والنهر ووجه خاي الضاحك. والآن نسيت وجه خاي، وسيكون كاميني أمام الشراع والنهر، هو الذي سيجلس ويضحك معها.

هذا هو الموت... أجل، لكن هناك نيتي، هناك الحياة وعودة الحياة مثلما تجتاح مياه الفيضان السنوية التربة القديمة ونهيء التربة لزراعة المحاصيل الجديدة. هل هي أكثر من امرأة في المنزل؟ إذا كانت رينيسب أو غيرها فماذا بهم؟

ثم سمعت صوت كاميني ملخاً ومنزعجاً قليلاً: فيم تفكرين يا رينيسب؟ إنك تذهين بفكرك بعيداً أحياناً... هل ستذهبين معي لنهر في النهار؟

- أجل يا كاميني، سوف آتي معك.

- سوف تأخذ نيتي أيضاً.

-٢-

فكرت رينيسب في الأمر كالحلم... القارب والشراع وكاميني وهي وتيتي هربوا من الموت والخوف من الموت ليبدووا حياة جديدة. وتحدثت كاميني فأجابت وهي شاردة، وقالت في نفسها: هذه هي حياتي ولا مفر... لماذا أقول لنفسي: «مفر»؟ ما المكان الذي أهرب إليه؟

ومرة أخرى برزت أمام عينيها غرفة صخرية صغيرة قرب

جميلة وقد أسعدتني بالإطراء، ومن لا يشعر بذلك؟ لكنني لم أحبها حقاً.

شعرت رينيسب بنوبة غريبة من الشفقة. نعم؟ لم يحب كاميني نوفريرت، لكن نوفريرت أحبه بياس ومرارة! كانت هذه هي نفس البقعة عند ضفة النيل التي تحدثت فيها مع نوفريرت ذلك الصباح حيث عرضت عليها محبتها وصدافتها. وتذكرت جيداً موجة الكره والتعاسة التي انبعثت من الفتاة في ذلك الحين. سبب ذلك واضح الآن... المسكينة نوفريرت، جارية رجل عجوز متأق ينأكل قلبها لأنها تحب شاباً مرحاً وسيماً لم يكن يهتم بها.

وتابع كاميني متلهفاً: ألا تفهمين يا رينيسب أنني منذ وصلت هنا رأيتك وأحببتك؟ إنني منذ تلك اللحظة لم أفكر في أحد سواك، وقد رأيت نوفريرت ذلك بوضوح.

فكرت رينيسب: نعم، لقد رأيت نوفريرت ذلك، وقد كرهتني منذ تلك اللحظة.

ولم تجد رينيسب دافعاً لأن تلومها.

- ولم أكن أريد كتابة الرسالة إلى والدك، لم أرِد أن تكون لي علاقة بمكاند نوفريرت. لكن ذلك كان صعباً، يجب أن تدركي أن ذلك كان صعباً جداً.

- أجل، أجل، كل هذا لا يهم. نوفريرت وحدها هي المهمة، كانت نعمة جداً... أظن أنها أحبتك كثيراً.

جواهر نوفريرت! أنت الذي أعطتها لها... أنت ونوفريرت... إنني أرى الآن كل شيء وأعلم سبب شقائها. أنا أعرف من وضع صندوق الجواهر في غرفتي... أعلم كل شيء. لا تكذب يا كاميني، أقول لك إنني أعرف!

لم يحتج كاميني. بل وقف بثبات ينظر إليها ولم يزع نظره، وعندما تحدث كان صوته رزيناً، ولأول مرة لم تكن على وجهه إبتسامة. قال: لن أكذب يا رينيسب.

انتظر لحظة وتجهم قليلاً كأنه يحاول أن يرتب أفكاره، ثم قال: أنا سعيد نوعاً ما لأنك تعرفين يا رينيسب، على الرغم من أن الأمر ليس كما تظنين.

- لقد أعطيتها نصف التعويذة - كما كنت مستعطيني - علامة على أنكما نصفان لكيان واحد، تلك كانت كلماتك.

- أنت غاضبة يا رينيسب؟ أنا سعيد لأن هذا يعني أنك تحبيني! ولكن يجب أن أجعلك تفهمين؟ أنا لم أعطها التعويذة... نوفريرت هي التي أعطتها. ربما لا تصدقيني لكن هذه هي الحقيقة، أقسم أن هذه هي الحقيقة.

قالت رينيسب ببطء: لن أقول إنني لا أصدقك، ربما يكون هذا صحيحاً.

برز وجه نوفريرت المكفهز التعس أمام عينيها، وتابع كاميني بحماسة وصيانية: حاولي أن تفهمي يا رينيسب. كانت نوفريرت

تحدثت رينيسب بفماد صبر، فقال كاميني بصحرو: ولكنني لم أحبها.

- أنت قاسي.

- لا، أنا رجل؛ هذا كل ما في الأمر. إذا اختارت امرأة أن تعذب نفسها بسببي فإن ذلك يرعجني، تلك هي الحقيقة ببساطة. لم أكن أريد نوفريرت، كنت أريدك أنت. أه يا رينيسب! لا يمكنك أن تعضبي مني لهذا السبب.

ضحكت رينيسب رغماً عنها، فقال كاميني: لا تدعي نوفريرت التي ماتت تحدث المتاعب بيننا نحن الأحياء. أنا أحبك يا رينيسب وأنت تحبيني، وهذا هو المهم.

قالت رينيسب في نفسها: نعم، هذا هو المهم. ونظرت إلى كاميني المائل أمامها ورأسه مائل إلى أحد الجوانب ويشع من وجهه شباب وحيوية ومرح وثقة واستحذاء. قالت في نفسها: إنه على حق؛ لقد ماتت نوفريرت ونحن أحياء. إنني أفهم كرهها لي الآن، وأنا أسفة لأنها عالت، لكن ذلك لم يكن خطئي ولا خطأ كاميني لأنه يحبني أنا لا هي... هذه الأمور تحدث.

صعدت تبني التي كانت تلعب عند ضفة النهر وشدت يد أمها قائلة: لنذهب إلى المنزل يا أمي، هيا نذهب!

تهتبت رينيسب بعمق وقالت: أجل، سوف نذهب إلى المنزل.

ومشوا معاً إلى المنزل وتبني تركض بعيداً عنهما بمسافة

قصيرة، وتهتد كاميني برضا: أنت رائعة وكريمة يا رينيسب، هل عادت الأمور إلى ما كانت عليه بيننا؟

- نعم يا كاميني؛ عادت إلى ما كانت عليه.

خفض صوته: كنت سعيداً هناك عند النهر، كنت في غاية السعادة. كنت أنت سعيدة أيضاً رينيسب، أليس كذلك؟

- بلى، كنت سعيدة.

- كنت تريد سعيدة لكنك كنت تفكرين في أمر بعيد جداً. أريدك أن تفكري بي.

- كنت أفكر فيك.

أخذ يدها فلم تسحبها بعيداً، وراح يغني بلطف بصوت خفيض.

دعت رينيسب حبيبت إلى غرفتها، وتوقفت حبيبت التي أتت مسرعة فجأة وهي ترى رينيسب تقف قرب صندوق الحلبي والتعويذة المكسورة بيدها.

كان وجه رينيسب مكتئباً وغاضباً وقالت: لقد وضعت صندوق الجواهر هذا في غرفتي يا حبيبت، أليس كذلك؟ كنت تريد مني أن أعثر على التعويذة. كنت تريد مني ذات يوم...

CHASSEY

دائماً يا حبيبت، إنه يلدغ كالعقرب، لكنك لن تجعليني تعبسة.

- هذا رائع. لا بد أنك تحببته بشدة؛ إنه شاب وسيم ويعرف كيف يعني أغاني الحب الجميلة. سوف يحصل دائماً على ما يريد، لا يخاف أبداً، ولا يتخلى عن بساطته وصراحته. أنا معجبة به.

- ماذا تريدان أن نقول يا حبيبت؟

- أنا معجبة بكاميني، كما أنني واثقة أنه بسيط وصريح. هذا ليس تظاهراً، الأمر كله يشبه واحدة من تلك القصص التي يرويها الرواة في الأمواق: "الكاتب الشاب الفقير يتزوج بنت السيد وسوف يشاركها ميراثها ويعيشان بعد ذلك بسعادة"... رائع! كم هم محظوظون الرجال الواسمون!

- أنا على حق؛ أنت تكرهيننا.

- كيف تقولين هذا يا رينيسب وأنت تعلمين كيف خدمتكم منذ توفيت والدتك؟

لكن الانتصار الشرير لم يزايل لهجة حبيبت بدلاً من انتخابها وتذللها المعهود، فنظرت رينيسب نائبة إلى صندوق الجواهر وخطرت لعقلها فكرة مؤكدة أخرى، فقالت: أنت من وضع فلادة الأسد الذهبية في هذا الصندوق؟ لا ننكري يا حبيبت. أقول لك إنني أعلم.

اختفى انتصار حبيبت الخبيث، وبدت مرتاعة فجأة وهي تقول: لم يكن الأمر بيدي... كنت خائفة.

- أن تعزري على النصف الآخر؟ أرى أنك كشفت الأمر. حسناً، من الأفضل العلم دائماً، أليس كذلك يا رينيسب؟

فصحكت حبيبت بكيد، فقالت رينيسب وغضبها لا يزال مكتوباً: كنت تريدان لهذه المعرفة أن تؤذي. أنت تحبين إيذاء الناس، أليس كذلك يا حبيبت؟ إنك لا تقولين أي شيء مباشرة... تنتظرين وتنتظرين حتى تحين اللحظة المناسبة. أنت تكرهيننا جميعاً، أليس كذلك؟ وقد كرهيننا دائماً.

- أنا واثقة أنك لا تعنين ما تقولين يا رينيسب.

لم يكن في صوت حبيبت انتحاب، بل انتصار خبيث.

- أردت إثارة المشكلات بيني وبين كاميني. حسناً، هذا لم يحصل.

- أنا واثقة أن هذا لطف منك وتسامح يا رينيسب. إنك تختلفين كثيراً عن نوفريت.

- لا تدعينا نتحدث عن نوفريت.

- نعم، من الأفضل ألا نفعل. كاميني وسيم ومحظوظ، أليس كذلك؟ كان من حسن حظك أن نوفريت ماتت آنذاك، فقد كان يوسعها إثارة كثير من المتاعب له مع والدك. لم تكن لتحب زواجه بك. نعم! لم تكن لتحب ذلك أبداً، وأظن أنها كانت ستعثر على طريقة لتوقفه... أنا متأكدة أنها كانت ستفعلها.

نظرت رينيسب إليها بكرة شديد وقالت: لسانك يقطر بالسم

- ما معنى خائفة؟

اقتربت منها حينيت وخففت صوتها: لقد أعطتني إياه...
أقصد نوفرته. آه! قبل أن تموت ببعض الوقت. لقد أعطتني هدية
أو اثنتين، كانت نوفرته كريمة كما تعلمين. آه، نعم، كانت دائماً
كريمة.

- يمكنك القول إنها دفعت لك كثيراً.

- ليست هذه العبارة المناسبة يا رينيسب، لكنني أخبرك بالأمر
كله. لقد أعطتني قلادة الأسد الذهبية وعقداً من الأحجار الكريمة
وبعض الأشياء الأخرى، ثم عندما جاء هذا الصبي بقصته قائلاً إنه
رأى امرأة ترتدي تلك القلادة... حسناً، شعرت بالخوف، وربما
يظنون أنني أنا التي سمعت شراب يحموس، فوضعت تلك القلادة
في الصندوق.

- أهذه هي الحقيقة يا حينيت؟ هل تقولين الحقيقة أبداً؟

- أقسم أنها الحقيقة يا رينيسب. كنت خائفة!

نظرت رينيسب إليها بفضول وقالت: إنك ترتجفين يا حينيت
كأنك خائفة الآن.

- نعم، أنا خائفة، ولدي سبب لذلك.

- لماذا؟ أخبريني.

لعت حينيت شفتيها ونظرت حولها وحلقها، وبدت عيناها
كالحيوان المطارد. قالت رينيسب: أخبريني.

هزت حينيت رأسها وقالت بصوت مهزوز: لا شيء عندي
لأخبرك به.

- أنت تعرفين كثيراً يا حينيت، تعرفين كثيراً دائماً. لقد
استمعت بذلك، ولكنه خطير الآن. هذا هو الأمر، أليس كذلك؟

هزت حينيت رأسها مرة أخرى ثم ضحكت بحقد وقالت:
انتظري يا رينيسب. سوف أحمل السوط في هذا المنزل ذات يوم
وأضرب به، انتظري ومترين.

نهضت رينيسب وقالت: لن تؤذي يا حينيت، لن تدعك
أمي تؤذي.

تغير وجه حينيت ولمعت عيناها وقالت: لقد كرهت أمك...
كرهتها دائماً! وأنت تملكين عينيها وصوتها وجمالها وعجرفتها...
إنني أكرهك يا رينيسب.

ضحكت رينيسب وقالت: وأخيراً جعلتك تقولينها.

الفصل العشرون

الشهر الثاني من فصل الصيف

اليوم الخامس عشر

-١-

دخلت العجوز إيذا غرفتها تعرج وتشعر بالتعب. كانت محنارة وتعبة جداً، وأحست بالعجز أكثر من ذي قبل. لم تكن تشعر بتعب ذهني بل أحست بتعب جسدها بعض الأحيان. لكنها الآن مضطرة للاعتراف بأن الضغط الناتج من بقاء عقلها يقظاً قد استنفد قواها الجسدية.

ورغم معرفتها أو اعتقادها بمعرفة المصدر الذي يُحدق منه الخطر إلا أن هذه المعرفة لم تسمح لذهنها بالراحة، بل كان عليها - بالمقابل - أن تبقى يقظة، إذ أنها جذبت الانتباه لنفسها عن عمد. الدليل... الدليل؟ ينبغي أن تحصل على الدليل. ولكن كيف؟ في هذه النقطة بالذات أدركت أن شيخوختها تخونها. كانت متعبة إلى الحد الذي لا يسمح لها بالتخيل، بالقيام بالجهد الفكري الخلاق.

قالت أخيراً إن فكرة الزواج كانت فكرة حكيمة وإنه لا وقت للذهاب بعيداً بحثاً عن زوج أكثر أهمية بين أفراد القبيلة، إذ أن السلالة المنحدرة من الأنثى هو المهم في الأمر، ولن يعدو زوجها أن يكون قيماً على الإرث الذي سيؤول لرئيسب وأطفالها.

ثم وصل الأمر إلى مسألة حوري: رجلٌ كريم وصديق قديم والجميع راضون عنه وابن مالك أرض صغيرة ضُمت أرضه إلى أرضهم، أو كما يني صاحب صلة القرابة؟

فكرت إيزا في الأمر جيداً قبل أن تتحدث، فكلمة خطأ الآن سببت عنها مصيبة. ثم أجابت وهي تؤكد الأمر بشخصيتها القوية، قالت إن كاميبي هو الزوج المناسب لرئيسب بلا شك، ويمكن أن تعلن العهود والاحتفالات المختصرة بسبب الوقيات الأخيرة بعد أسبوع. هذا إن وافقت رئيسب، فكاميبي فتى مناسب وسوف يتجيان معاً أبناء أقوىاء، كما أنهما متفاهمان.

فكرت إيزا بأنها قد ألفت كلمتها الآن ورمت النرد على الطاولة دون رجعة، وسيبحث الأمر جيداً الآن على رقعة اللعب. لقد خرج الأمر من يدها، لقد قامت بما تحسه أمراً مفيداً، فإن كان في ذلك مخاطرة... حسناً، تمتت إيزا أن يكون أمامها خصم متكافئ خلف رقعة اللعب، تماماً كما تمنى أبيي؛ فالحياة ليست دائماً مسألة أمن، إذ لا بد من المخاطرة فيها حتى يكسب المرء اللعبة.

* * *

نظرت إيزا حولها في الغرفة بشك عندما عادت إليها وفحصت

كان الدفاع هو كل ما تستطيعه، أن تبقى بقطة منتبهة تحرس نفسها، لأن القتال على استعداد لأن يضرب ثانية، ولم تكن لديها أية أوامير حول ذلك.

حسناً، إنها لا تنوي أن تكون الضحية التالية. كانت متأكدة أن السم هو الوسيلة التي يمكن أن تُستخدم ضدها، فالعنف مستبعد على اعتبار أنها محاطة دوماً بالخدم، إذن لا شك أنه السم. حسناً، بإمكانها إيصال ذلك، إذ ستقوم رئيسب بتهيء الطعام وإحضاره لها، كما أن لديها آنية لنشراب جعلت الخادم يشرب منها وانتظرت يوماً كاملاً لتتأكد من عدم حدوث عواقب شريفة من الشراب. ثم جعلت رئيسب تقاسمها أكلها وشربها مع أن الوقت لم يحن بعد للخوف على رئيسب، وربما لا خوف عليها أبداً، ولكن أحداً لا يستطيع النجوم بذلك.

كانت تجلس بين الحين والآخر ساكنة تحاول حث عقلها الممتعب على إثبات الحقيقة، أو ترافق خادمها الصغيرة وهي تعبت بالثياب والحلي. كانت تحس هذه النبلة بالأرهاق الشديد، وكانت قد انضمت إلى إمحوتب بطلب منه لمناقشة قضية زواج رئيسب قبل أن يقوم هو بالحديث مع ابنته.

كان إمحوتب الخائف قد تضاعف جسمه وأصبح ظلاً لإمحوتب السابق. وقد تلك الثقة والنباهي في سلوكه وأصبح يعتمد الآن على إرادة أمه وتصميمها الذي لا يلين. أما بالنسبة لإيزا فإنها كانت خائفة، بل خائفة جداً من التواء بأية كلمة في غير مكانها؛ فالحياة الآن ربما كانت معلقة بأية كلمة طائشة.

من الغناة أن تحضر لها آتية من مرهم طيب الرائحة وأن تدلك جسمها.

أراح المرهم وإيقاع التدليك عظامها المتألّمة، وتمددت أخيراً وأسندت رأسها إلى المسند الخشبي ونامت وقد سكنت مخاوفها.

ثم أفاقت بعد مدة طويلة براودها شعور غريب بالبرد؛ كانت قدماها ويداها متخدرة ميتة وكأن الانقباض يسيل إلى جسمها كله مخدراً عقلها شالاً إرادتها مخففاً هزبات قلبها!

قالت في نفسها: هذا هو الموت!

موت غريب... موت غير متوقّع... لا علامات تحذير!

فكرت: أهكذا تموت العجائز؟ ثم راودتها فكرة أكثر واقعية: لم يكن هذا موتاً طبيعياً، بل العدو يضرب هزيبته في الظلام، السم... ولكن كيف؟ كل ما أكلته وما شربته تم اختباره، ولم تكن هناك ثغرات أو أخطاء. كيف إذن، ومضى؟

وحاولت إيزا بآخر ومضة ضعيفة لها من الذكاء أن تحل المغز. يجب أن تعرف... يجب، قبل أن تموت. شعرت بالضغط يزداد على قلبها، البرودة الفاتلة والانقباض المؤلم في أنفاسها. كيف فعل العدو ذلك؟

وفجأة عاودتها من الماضي ذكرى ساعدتها على الفهم، فكرة قديمة... جلد الخروف المحلوق، ورم دهني ذو رائحة... تجربة نوالدها تُظهر أن الجلد ربما يمتص بعض السموم. دهن الصوف، مراهم تُعدّ من دهن الصوف... هكذا توصل العدو إليها، آتية المرهم

آتية الشراب خصوصاً. كانت الأتية مغطاة ومختومة مغلقة كما تركتها؛ كانت تغفلها دائماً حين تغادر الغرفة، وكان المفتاح يتدلى حول عنقها بأمان.

لم تكن لتختل مخاطرة من هذا النوع. ضحكت إيزا باطمئنان ماكر إذ ليس من السهل قتل امرأة عجوز، فالعجائز يقدرن الحياة جيداً ويعلمن حيلها أيضاً، غداً...

ونادت خادمتها الصغيرة: أين حوري؟ هل تعلمين؟

- لعله عند الضريح في الغرفة الصخرية.

أومأت إيزا برضا: اصعدي إليه هناك وقولي له أن يأتي إلى هنا صباح غدٍ حين يخرج إمحوتب ويحموس إلى المزرعة ويأخذان كاميتي معهما، وعندما تخرج كيت إلى البحيرة مع الأطفال، هل فهمت؟ أعيني على مسمعي.

فعلت الخادمة الصغيرة ذلك، وأرسلتها إيزا.

نعم، كانت حطنتها تسير بشكل مرضٍ. سوف يكون الشاور مع حوري سرياً ما دامت سوف ترسل حينيت في مهمة إلى غرف الحياكة، وسوف تحدّر حوري مما سيحدث وسوف يتحدثان بحرية معاً.

وتنهدت إيزا بارتياح عندما عادت الغناة بالرسالة: إن حوري سيلبي طلبها.

الآن - وقد رُتبت الأمور واحتاجها التعب كالطوفان - طلبت

Chassey

الفصل الحادي والعشرون
الشهر الثاني من فصل الصيف
اليوم السادس عشر

-1-

- حوري، هل قُتلت؟

- أظن ذلك يا رينسب.

- كيف؟

- لا أعلم.

قالت رينسب بحزن وفجعة: لكنها كانت حذرة؛ كانت حذرة دائماً واتخذت كل الاحتياطات... كل شيء أكلته وشربته كان يجرب.

- أعلم يا رينسب، ورغم هذا فأظن أنها قُتلت.

- كانت أكثرنا حكمة وذكاء، وكانت واثقة أنها لن يصبها

طيب الراحة الضرورية لكل امرأة مصرية... لقد كان السم فيها!
وغداً حوري لن يعلم؛ لن نستطيع إخباره... كان الوقت قد فات.

وفي الصباح ركضت خادمة صغيرة خائفة في المنزل وهي تصيح أن سيدتها توفيت في نومها!

-2-

وقف إمحوتب ينظر إلى جسد إيزا، كان وجهه حزناً لكنه غير متشكك، وقال إن أمه مانت مينة طبيعية من كبر سنها. قال: كانت متقدمة في العمر؛ نعم، كانت متقدمة في العمر. لا شك أن الوقت قد حان لنذهب إلى أوزيريس، وقد عجلت متاعبها وأحزانها في تقريب نهايتها، لكنها كانت نهاية هادنة، وفاة لم تسيبها يد إنسان أو روح شريرة. لا عتف أبداً، فهي تبدو هادنة.

بكت رينسب وحاول يحموس تهدئتها، وأظهرت حنينت حزنها وفجيعتها وتحدثت عن إخلاصها لها، وأوقف كامبتي غناه وأظهر الحداد الملائم.

جاء حوري ووقف ينظر إلى المرأة الميتة. كان هذا هو الوقت الذي طلبت منه فيه الحضور، وتساءل عما كانت تريد أن تقول بالضبط. كان لديها شيء محدد كي تقوله.

لن يعرفه أبداً، لكنه فكر... ربما استطاع تخمينه.

- أظن أنني أعرف، لكنني لم أقل شيئاً ولم أظهر شيئاً. كانت إيزا غير حكيمة؛ لقد تحدثت في الأمر وأظهرت الاتجاه الذي تسير أفكارها فيه. كان يجب ألا نفعل ذلك، لقد أخبرتها بذلك لاحقاً.

- ولكنك يا حوري... إن أصابك شيء...

وسكنت. كانت تشعر بعيني حوري وهما تنظران إليها، نظرتة الهادئة تخترق عقلها وقلبها. ثم أخذ يدها بيده وقال: لا تخافي علي يا رينيسب؛ سوف تسير الأمور على ما يرام.

قالت في نفسها: نعم، كل شيء سيكون على ما يرام إذا قال حوري ذلك. غريب هذا الشعور بالرضا والسلام والسعادة، جميل وبعيد مثل المسافة البعيدة التي تراها من الضريح، ذلك المكان الذي تسمع فيه ضجيج البشر ومطالبهم وشروطهم.

وفجأة وبسرعة سمعت نفسها تقول: سوف أتزوج كاميني.

ترك حوري يدها يهدوء وعفوية قائلاً: أعلم يا رينيسب.

- إنهم... والدي... إنهم يظنون أن ذلك أفضل شيء.

- أعلم.

ابتعد حوري. وبدت جدران الفناء كأنها تقترب بعضها من بعض، وبدت الأصوات في المتزل وفي مخازن الحنطة في الخارج أعلى وأكثر ضجيجاً. كانت تراود رينيسب فكرة واحدة فقط... أن حوري ذاهب. نادته بخوف: حوري، أين تذهب؟

أذي. حوري، لا بد أن في الأمر سحراً. إنه سحر شديد، سحر روح شريفة.

- نظنين هذا لأنه أسهل شيء يمكننا تصديقه. الناس هكذا، لكن إيزا نفسها لم تكن لتصدق ذلك. لقد عرفت قبل أن تموت ولم تست في منامها... كانت تعلم أن هذا فعل إنسان حي.

- وعرفت من هو؟

- نعم؛ لقد أظهرت شكها بوضوح فأصبحت مصدر خطر لهذا العدو. وحقيقة موتها تثبت أن شكها كان صحيحاً.

- وهل أخبرتك من هو؟

- لا؛ لم تذكر أي اسم أبداً، ورغم ذلك فقد كانت فكرتها مثل فكري، وأنا مقتنع بهذا.

- إذن فيجب أن تخبرني لأخذ حذري يا حوري.

- لا يا رينيسب، إنني أهتم كثيراً بسلامتك ولذلك لن أخبرك.

- هل أنا آمنة إلى هذا الحد؟

تجهم حوري وقال: لا يا رينيسب، لست آمنة؛ لا أحد آمن، لكنك ستكونين أكثر أماناً إذا لم تعرفي لأن معرفتك ستجعلك مصدر خطر مؤكد يجب إزالته مهما كلف الثمن.

- ماذا بشأنك يا حوري؟ أنت تعرف.

- اصمتي ، سوف تفعلين خيراً إن لم تتكلمي في هذه الأمور.
ثقي بي يا رينيسب ، حاولي أن تبعدي الخوف عن ذهنك.

ردت رينيسب رأسها إلى الخلف وقالت بفخر: أنا أثق بك
يا حوري؟ لن تدعني أموت، إنني أحب الحياة كثيراً ولا أريد
تركها.

- لن تركيها يا رينيسب.

- ولن تركيها أنت أيضاً يا حوري؟

- لن أتركها أنا أيضاً.

استمعت له فابتسم لها، ثم ابتعد للبحث عن يحموس.

-٢-

جلست رينيسب تراقب كيت التي كانت تساعد الأطفال في
صنع نماذج لعب من الطين باستعمال ماء البحيرة. كانت أصابعها
مشغولة في العجن والتشكيل، وكانت تشجع الطفلين الجادين فيما
يفعلانه بصوتها ووجهها - كعادته - محب عادي يخلو من التعبير.
ولم يبدو أن الجو المحيط من الموت والعنف والخوف الدائم يؤثر
فيها أو يعينها.

كان حوري قد منع رينيسب من التفكير، لكن رينيسب لم
تستطع أن تطبعه حتى لو كانت تملك أقوى إرادة في العالم. لئن كان
حوري يعرف العدو ولئن كانت إيزا قد عرفته فما من سبب يمنعها من

- إلى الحقول مع يحموس؛ لدينا كثير من الأمور يجب عملها
وتسجيلها لقد انتهى موسم الحصاد تقريباً.

- وكاميتي؟

- سوف يأتي كاميتي معنا.

صرخت رينيسب: أنا هنا خائفة، نعم، خصوصاً في النهار ومع
جميع الخدم حولنا... إنني خائفة!

عاد بسرعة وقال: لا تخافي يا رينيسب، أقسم لك أنه لا داعي
للخوف؛ ليس اليوم.

- ولكن بعد اليوم؟

- يكفينا عيش يومنا، وأقسم لك أنك لست في خطر اليوم.

نظرت إليه رينيسب وتجهمت قائلة: ولكننا في خطر...
يحموس، والدي، وأنا! وربما لست أنا أول من سيتعرض للخطر،
أهذا ما تعتقده؟

- حاولي ألا تفكري في الأمر يا رينيسب، إنني أفعل كل ما
أستطيع وإن كنت أبعدو كأنني لا أفعل شيئاً.

نظرت إليه مفكرة وقالت: فهمت، سوف يكون يحموس
الأول... لقد حاول العدو أن يسممه مرتين وفشل، وسوف تكون
محاولة ثالثة. لهذا سوف تكون إلى جانبه لتحميه، ثم بعد ذلك يحين
دور والدي ودوري... من يكرهنا بهذا القدر؟

ولكن هل كانت حبيبت نكره إمحوتب أيضاً؟ بالتأكيد لا. كانت تحوم حوله سنين عديدة تتذلل إليه وتطريه... وكان يؤمن بها تماماً. لا يمكن أن يكون كل هذا التفاخي زائفاً بالتأكيد.

ولكن إذا كانت مخلصه له هل يمكنها أن تقوم متعمدة بإحداث كل هذا الحزن والخسارة له؟ ولكن لنفترض أنها نكرهه أيضاً وأنها كانت نكرهه دوماً، وأنها كانت تطريه متعمدة لتظهر نقاط ضعفه... لنفترض أن كرهها تركز على إمحوتب أكثر من غيره، وما الذي يسبب السرور لعقل منحرف شرير أكثر من هذا؟ أن تدعه يرى أولاده يموتون واحداً تلو الآخر.

- ما الأمر يا رينيسب؟ إنك تبدين غريبة.

كانت كبت تحديق إليها، نهضت رينيسب وقالت: أشعر كأنني أوشك أن أتقيأ.

كان ذلك صحيحاً إلى حد ما، فقد أثارَت الصورة التي تخيلتها شعوراً قوياً بالغثيان، وتقبلت كبت كلماتها بسعناها انظاها فقالت: لقد أكلت كثيراً من البليح الأخضر، أو لعله السمك.

- لا، لا، لم يكن ذلك بسبب شيء أكلته. إنه ذلك الأمر لفظيح الذي تعيش فيه.

- آه، هذا؟

كانت لامبالاة كبت واضحة مما دفع رينيسب إلى أن تحديق إليها وتقول: كبت، ألسنت خائفة؟

معرفة هي أيضاً. ربما كانت أكثر أمناً بجهلها، لكن أحداً لا يرضى بقبول الأمر بهذه الطريقة... لا بد أن تعرف.

ولا بد أن الأمر في غاية السهولة. من المؤكد أن والدها لم يكن ليتمنى قتل أولاده، وبذلك لا يبقى إلا... من؟ نعم، لا يبقى - كما هو واضح ومحسوم - إلا شخصان: كبت وحبيبت.

كلتاها من النسوة، وكلتاها لا دافع لهما للقتل. ومع ذلك فقد كانت حبيبت نكرههم جميعاً؛ لقد اعترفت أنها نكره رينيسب، إذن فلماذا لا نكره الجميع بدرجة واحدة؟

حاولت رينيسب أن ترى صورتها في عقل حبيبت المعتم المعدب الراكه: العيش هنا كل هذه السنوات، تعمل وتؤكد إخلاصها وتفانيها، تكذب وتجنس وتحيك المكائد... لقد أتت إلى هنا منذ زمن طويل كماحدى القربيات الفقيرات لسيدة عظيمة وجميلة، فترى تلك السيدة الرائعة سعيدة مع زوجها وأولادها فيما هجرها زوجها ومات طفلها الوحيد... حالة كهذه أشبه بالجرح الناتج عن اختراق الرمح، الجرح الذي رآته ذات مرة. لقد سُفي بسرعة عند السطح أما في الباطن فقد تفسى وتقيح شراً وأذى. وانتفخت الذراع وأصبح منمستها قاسياً، ثم جاء الطبيب واستعمل التعويذة المناسبة؛ أدخل سكيناً صغيرة في العضو المنفوخ القاسي المشوه فانفجر الجرح كما لو هدمت سداً، مطلقاً دفقاً هائلاً من المواد الشريرة المنتنة.

لعل عقل حبيبت هكذا: زال الحزن والجرح الظاهر سريعاً وتحترق السم في الباطن وانتفخ من الكره والحقد.

في بعض الأحيان... حقاً يمكن للمرء أن يقسم أنك لست أكبر منها.

تحدثت رينيسب ببطء: أنت لا تحزين علي سوبك؟ لقد لاحظت ذلك.

- دعك من ذلك يا رينيسب. لقد وفيت بكل العهود، وأعرف كيف يجب علي أرملة حديثة العهد أن تتصرف.

- نعم، وهذا هو كل ما فعلته تجاه موته. إذن فهذا يعني أنك لم تكوني تحيين سوبك؟

هزت كيت كتفيها وقالت: ولماذا أحيه؟

- كيت! لقد كان زوجك، لقد أعطاك أطفالاً!

رقت ملامح كيت ونظرت إلى الصبيين الصغيرين المتهمكين في اللعب بالطين، ثم نظرت حيث كانت آنح تندحرج وتنشد وتلوح بقدميها. قالت: أجل، لقد متحني أطفالي، وأنا شاكرة له لهذا السبب. لكن، ماذا كان هو؟ رجلاً وسيماً متبجحاً يلهث دوماً خلف النساء. إنه لم يتخذ زوجة بطريفة شريفة ويحضرها إلى بيته، زوجة متواضعة كان يمكن لها أن تنفعا جميعاً، بل كان يذهب إلى البيوت سيئة السمعة ويصرف الكثير من الذهب والنحاس هناك ويشرب ويطلب أغلى الراقصات... لقد كان من حسن الحظ أن إمحوتب تركه محتاجاً وكان بحاسبه جيداً عن كل الصفقات التي أجراها للمزرعة. أي حب واحترام يجب أن أكنه لرجل مثل هذا؟ وما هم الرجال بأي حال؟ إنهم ضرورية لإنجاب الأطفال، هذا كل شيء.. لكن قوة العزق

فكرت كيت قليلاً قبل أن تجيب: نعم، لا أظن أنني خائفة. إذا حدث أي شيء لإمحوتب فسوف يحمي حوري الأطلاق. حوري أمين، وسوف يحافظ علي ميراثهم.

- سوف يفعل يحموس ذلك.

- سيموت يحموس أيضاً.

- كيت، إنك تقولين هذا بهدوء! ألا تهتمين أبداً؟ أعني ألا تهتمين بموت والدي ويحموس؟

فكرت كيت لحظات ثم هزت كتفيها قائلة: إننا امرأتان معاً. دعينا نكن صادقتين! لقد نظرت إلى إمحوتب دوماً كطاغية وظالم، تصرف ببشاعة عندما غضبت جاريته وأقنعته بحرمان أولاده الذين هم من لحمه ودمه من الميراث. لم أحب إمحوتب أبداً، أما يحموس فإنه نكرة... كانت ساتيبي تسيطر عليه، وأخيراً ومنذ وفاتها أعطى نفسه السلطة وبدأ يعطي الأوامر. سوف يفضل أولاده دائماً على أولادي، وهذا طبيعي، لذلك فإذا مات فهو أفضل لأولادي... هكذا أرى الأمر. أما حوري فليس لديه أطفال وهو عادل. كل الأمور التي حدثت مزعجة، لكنني بدأت أفكر - مؤخراً - بأنها ربما كانت تحمل في طياتها خيراً.

- كيف تقولين هذا يا كيت بهدوء وبرود، وقد كان زوجك الذي أحبيته أول من قُتل؟

لاح على وجه كيت تعبير غامض؟ نظرت إلى رينيسب نظرة فيها شيء من السخرية المزرية وقالت: إنك تشهين تيتي يا رينيسب

Chassey

-٣-

- يحموس، احذر، احذر، كيت!

- كيت؟ كيت؟!

بدأت الدهشة على يحموس وقال: عزيزتي رينيسب...

- أقول لك إنها خطيرة.

- كيت الهادئة؟ كانت دائماً امرأة خائفة وخاضعة وغير

ذكية.

قاطعت رينيسب: إنها ليست خنوعة، وأنا أخاف منها
يا يحموس. أريد منك أن تأخذ حذرك.

أجابها غير مصدق: من كيت؟ لا أستطيع أن أرى كيت تنشر
الموت هنا! ليس لديها الذكاء الكافي لذلك.

- لا أظن أن العقل هو المطلوب. كل ما يحتاجه الأمر هو
معرفة في السموم، وأنت تعلم أن مثل هذه المعرفة تكون بين بعض
العائلات. إنهم يتناقلونها من الأجداد حتى البنات، يحضرون هذه
السموم بأنفسهم من أعشاب فعالة؛ نوع من المعارف الشعبية ربما
تكون كيت حصلت عليه بسهولة.. إنها تحضر الدواء لأولادها حين
يمرضون كما تعلم.

تحدث يحموس وهو يفكر: نعم، هذا صحيح.

- وحينئذ أيضاً امرأة شريرة.

في النساء. نحن يا رينيسب اللاتي نورت لأبتائنا كل ما لدينا، وأما
الرجال فدعهم ينجون ثم يموتون ميكرًا.

زاد الازدراء والاحتقار في صوت كيت تدريجياً وقد تغير
وجهها القوي البشع. وفكرت رينيسب باسنياء: كيت قوية، وإذا
كانت غبية فإنه غباء يسبب لها الرضا. إنها تكره الرجال وتحقرهم.
كان يجب أن أعرف... لقد لاحظت ذات مرة ميزة الكره هذه. نعم،
إن كيت قوية.

وبلا تفكير وقعت عينا رينيسب على يدي كيت. كانتا تضغطان
وتعجنان العجين، وفكرت رينيسب: يدان قويتان، رجولتان!

وفكرت رينيسب - وهي ترافهما تضغطان العجين - في أبيي
والبنين القويين اللذين تدفعان رأسه إلى الماء وتبقيان عليه هناك بلا
رحمة، أجل. تستطيع بدا كيت فعل ذلك.

تدحرجت الفتاة الصغيرة آخ إلى تبة شوكية وأطلقت صرخة
يا كية. فأسرعت كيت إليها ورفعتها وقربتها إلى صدرها وهي تلدن
لها، وامتلا وجهها بالحب والعطف.

وأسرعت حينئذ تركض من الشرفة تنادي: هل حدث شيء؟
إن صراخ الطفلة مرتفع. لقد طننت، ربما...

لنم سكنت وهي تشعر بخيبة الأمل، وتراجع وجهها المتلهف
التيتم الحافظ الذي كان يأمل حدوث كارثة.

ونظرت رينيسب إلى المرأتين: انكرو في وجه الأوني والحب
في وجه الأخرى، ونساء!ت: أيهما أكثر فظاعة؟

الفصل الثاني والعشرون الشهر الثاني من فصل الصيف اليوم السابع عشر

-١-

كان اليوم التالي هو يوم الاحتفال بالقمر الجديد، واضطر
إمخوتب أن يصعد إلى الضريح لكي يقدم القرابين. رجا يحموس
والذّه أن يدّعه يقوم بالأمر في هذه المناسبة لكن إمخوتب كان
مصمّماً، وقال هامساً فيما بدا الآن محاكاة ضعيفة مضحكة لأسلوبه
القديم: إذا لم أهتم بالأمور بنفسى فكيف أتأكد أنها نفذت بدقة؟ هل
تهربت يوماً من واجباتي؟ ألم أنفق عليكم جميعاً وأعلنتكم جميعاً؟
وتوقف صوته وهو يقول: جميعكم؟ الجميع... آه! لقد
نسيت... أبنائي الشجعان، سوبك الوسيم وأبيي الذكي المحبوب،
ذهبا مني! يحموس وابنتي رينيسب، بُنتي وابنتي العزيزين، إنكما لا
تزالان معي، ولكن حتى متى؟ حتى متى؟
قال يحموس: لسنوات طويلة عديدة كما نأمل.

٢٦٣

- حينئذ؟ نعم، لم نحياها أبداً. وفي الحقيقة لولا حماية
والدي...

- والدي مخدوع بها.

- لعل هذا صحيح، إنها تخادعه.

نظرت إليه رينيسب لحظة باندهاش. للمرة الأولى تسمع
يحموس يتفوه بحملة فيها انتقاد لإمخوتب؛ فقد بدا خائفاً من
والده دائماً من قبل. ولكنها أدركت الآن أن يحموس يتولى القيادة
تدريجياً. لقد هرم إمخوتب عدة سنوات خلال الأسابيع القليلة
الماضية ولم يعد قادراً على إعطاء الأوامر أو اتخاذ القرارات، حتى
نشاطه الجسدي ضعف فصار يُمضي ساعات طويلة محذّفاً أمامه
وعيناه ذاهلتان تعلوهما العشاوة. ويبدو أحياناً كأنه لا يفهم الكلام
الذي يوجّه إليه.

- أنتظن أنها...

سكنت ونظرت حولها، لم عادت تقول: أنتظن أنها هي التي...

التي...

أمسك يحموس بذراعها وقال: اهدني يا رينيسب؛ من
الأفضل لهذه الأمور ألا تُقال، بل ينبغي أن يُهمس بها.

- إذن فأنت أيضاً تظن...؟

قال يحموس بلطف والحاح: لا تقولي الآن أي شيء... فلدنيا
خططنا.

• • •

٢٦٢

- لا أعلم يا رينيسب. أحياناً أظن أن والدي لم يعد يدري ما يفعله أو بقوله.

- لا، لا أعتقد ذلك، ولكنني أظن - يا يحموس - أن حبيبت تعلم جيداً ما تقوله وتفعله. لقد قالت لي بالأمس إنها هي التي ستلوح بالسوط ذات يوم في هذا المنزل.

نظر إليها، ثم وضع يده على ذراعها وقال: لا تغضبها، إنك تظهرين عواطفك بوضوح يا رينيسب، وقد سمعت ما الذي قاله والدي: إذا حصلت حبيبت على ما تريده فلن يكون مزيد من الوفيات.

-٢-

جلست حبيبت في أحد المخازن تعد كوماً من الملاءات. كانت ملاءات قديمة، وأمسكت بالعلامة الظاهرة عند زاوية إحداها وأغمضت عينيها وهمست: آشايث... ملاءات آشايث، ومكتوب عليها السنة التي قدمت فيها هنا، هي وأنا معاً. كان ذلك منذ زمن بعيد، أتعلمين لماذا أستخدم ملاءاتك الآن يا آشايث؟

قاطعتها ضحكة فجفلت، وجعلها الصوت تنظر وراءها...

كان يحموس، وسألها قائلاً: ماذا تفعلين يا حبيبت؟

- المحنطون بحاجة إلى مزيد من الملاءات... لقد استعملوا أربعمئة ذراع أمس فقط. إن هذه الجنازات تستهلك الملاءات بشكل

تحدث يحموس بصوت مرتفع كأنه يتحدث إلى رجل أصم، فهتف أبوه: أه! ماذا؟

بدا إمحوتب وكأنه قد دخل في غيبوبة، وقال فجأة: الأمر يعتمد على حبيبت، أليس كذلك؟ بلى، يعتمد على حبيبت.

تبادل يحموس و رينيسب النظرات، وقالت رينيسب برفقة ووضوح: لا أفهمك يا أبي.

همس إمحوتب بحديث لم يفهمه يحموس و رينيسب، ثم قال وقد رفع صوته قليلاً وعيناه ما تزالان معتمتين وفارغتين: حبيبت تفهمني وتعرف كم هي كبيرة المسؤوليات الملقاة علي عاتقي. نعم، كم هي ضخمة! ودائماً الجحود، إذن فلا بد من التوبيخ. أظن أن هذا تقليد مُتبع؛ لا بد من معاقبة الوقاحة. كانت حبيبت متواضعة دائماً ومخلصة، سوف تكافأ...

ثم استفام وقال بتفاخر: هل تفهم يا يحموس؟ يجب أن تحصل حبيبت على كل ما تريد، يجب أن تظاع أوامرها!

- لكن لماذا يا والدي؟

- لأنني أقول ذلك؛ لأن حبيبت إذا حصلت على ما تريد فلن تحصل مزيد من الوفيات.

أوماً برأسه بحكمة ثم ابتعد تاركاً يحموس و رينيسب يحدقان بعضهما إلى بعض بدهشة وذعر.

- ما معنى هذا يا يحموس؟

فطبخ! يجب أن تُستعمل القديمة هذه، فتوعها جيد ولم تهترئ. إنها ملاءات أمك يا يحموس... نعم، ملاءات أمك!

- من قال إن بإمكانك أن تأخذيهما؟

ضحكت حينئذ وقالت: إمحوتب ترك كل شيء تحت تصرفي، ولذا فلست مضطرة لأن أستاذن. إنه يتق بحينيت المسكينة المعجوز. وهو يعلم أنها تدير الأمور إدارة صحيحة. لقد اهتمت بمعظم الأمور في هذا المنزل فترة طويلة، وأظن أنه يجب أن أحصل على مكافأتي.

- يبدو كذلك يا حينيت، لقد قال والدي إن كل شيء يعتمد عليك.

- هل قال ذلك أخيراً؟ من اللطيف سماع ذلك، ولكن ربما لا تعتقد أنت ذلك يا يحموس.

قال يحموس وهو يراقبها باهتمام ولهجته ما زالت معتدلة: لست واثقاً تماماً.

- أرى أن من الأفضل أن تتفق مع رأي والدك يا يحموس؟ فنحن لا نريد مزيداً من المتاعب، أليس كذلك؟

- لا أفهم جيداً، أتعنين أننا لا نريد مزيداً من الوقيات؟

- ستكون مزيد من الوقيات يا يحموس. أه، نعم!

- ومن سيموت تالياً يا حينيت؟

- لماذا تظن أنني يجب أن أعرف ذلك؟

- لأنك تعرفين كثيراً. عرفت في ذلك اليوم - مثلاً - أن أبي سيموت! أنت ذكية جداً يا حينيت. أليس كذلك؟

شمخت حينيت بأنفها وقالت: إذن فقد بدأت تدرك ذلك الآن؟ إنني لست حينيت الغبية المسكينة بعد الآن، أنا الشخص الذي يعرف.

- ما الذي تعرفينه يا حينيت؟

تغير صوت حينيت الذي كان خافتاً وحاداً وهي تقول: أعرف أنني أستطيع أخيراً أن أفعل ما أريد في هذا المنزل. لن يوقفني أحد... إمحوتب يعتمد عليّ فعلاً، وأنت سوف تفعل الشيء نفسه يا يحموس. أليس كذلك؟

- وربيتب؟

ضحكت حينيت ضحكة سعيدة خبيثة وقالت: لن تكون وربيتب هنا.

- أنتظين أن وربيتب هي التي سوف تموت أولاً إذن؟

- ماذا تعتقد أنت يا يحموس؟

- إنني أنتظر سماع ما ستقولينه.

- ربما عنيّ فقط أن وربيتب سوف تتزوج وتذهب بعيداً.

- ولكن ما الذي عنيّه فعلاً يا حينيت؟

ضحكت حينيت وقالت: قالت إيزا ذات يوم إن لساني خطير، وتعلم كذلك.

ومن غرفة المخازن جاءت ضحكة حينيت الحادة المعيرة
عن الانتصار: هل تسمع هذا يا يحموس؟ حينيت هي الشخص
المطلوب.

قال يحموس بهدوء: نعم يا حينيت؛ أفهم، أنت الشخص
الفروي، أنت والدي وأنا، نحن الثلاثة معاً.

ذهب حوري للبحث عن إمحوتب، وتحدث يحموس مع
حينيت بضع كلمات وهي تهرز رأسها موافقةً ووجهها يلمع بانتصار
خبيث، ثم انضم يحموس إلى حوري وإمحوتب وهو يعتذر عن
التأخير وصعد الرجال الثلاثة إلى الضريح معاً.

- ٣ -

مر اليوم بطيئاً على رينيسب. كانت قلقة تروح وتجيء من
الشرقة وإليها، ثم إلى البحيرة، ثم تعود مرة أخرى إلى المنزل.

وعاد إمحوتب في منتصف النهار، وبعد أن قُدمت له وجبة
الطعام خرج إلى الشرقة، وانضمت رينيسب إليه وجلست وقد
أسكتت بركبتها وهي تنظر إلى وجه والدها بين الحين والآخر.

ما زال يعتربه ذلك التعبير من الذهول والدهشة. تحدث
إمحوتب قليلاً وتنهى أكثر من مرة بعمق، ونهض في إحدى المرات
وطلب حينيت، لكن حينيت كانت قد ذهبت في ذلك الوقت بالذات
لتقدم الملاءات الكتانية إلى المحنطين.

سألت رينيسب والدها عن مكان حوري ويحموس، فقال:

٢٦٩

ثم ضحكت بشدة وقالت: حسناً يا يحموس، ماذا تقول؟ هل
سأفعل أخيراً ما أريد في هذا المنزل؟

تأملها يحموس لحظة قبل أن يقول: نعم يا حينيت؛ إنك ذكية،
وسوف تفعلين ما تريد.

ثم استدار ليلتقي بحوري الذي جاء من العصابة الرئيسية قائلاً:
ها أنت يا يحموس. إمحوتب ينتظرك. حان الوقت لكي نصعد إلى
الضريح.

أوما يحموس قائلاً: أنا قادم.

ثم خفض صوته وهو يقول: حوري، أظن أن حينيت جئت؛
لقد تأثرت بالشياطين بلا شك، وقد بدأت أظن أنها هي المسؤولة
عن كل ما حدث.

سكت حوري لحظة قبل أن يقول بصوته الهادئ اللامبالي: إنها
امرأة غريبة، وأظنها امرأة شريرة.

خفض يحموس صوته أكثر وقال: حوري، أظن أن رينيسب
في خطر.

- من حينيت؟

- نعم، لقد ألمحت الآن إلى أن رينيسب ربما تكون النالية.

ثم شمع صوت إمحوتب يقول باستياء: هل أنتظر طويلاً اليوم؟
ما هذا التصرف؟ لا أحد يهتم بي بعد الآن، لا أحد يعلم ما الذي
أعانيه. أين حينيت؟ حينيت تفهم.

٢٦٨

Chassey

انحرفت بسيرها نحو رينيسب. كانت قد استعادت سلوكها المتملق المتذلل وهي تقول: كنت أنتظر حتى أستطيع أن أجذك وحدك يا رينيسب.

- لماذا يا حبيبت؟

خففت حبيبت صوتها: لدي رسالة لك من حوري.

تلهفت رينيسب وقالت: ماذا يقول؟

يطلب منك الصعود إلى الضريح.

- الآن؟

- لا، لكن كوني هناك قبل ساعة من غروب الشمس. هذه هي الرسالة، وإذا لم يكن هو هناك فإنه يطلب إليك أن تنتظريه حتى يأتي... إنه يقول إن الأمر مهم.

وسكنت حبيبت ثم أضافت: كان علي أن أنتظر حتى أجذك وحدك لأقول لك هذا، إذ لم يكن ينبغي لأحد أن يسمعنا.

وانصرفت حبيبت مبعدة، فارتفعت معنويات رينيسب قليلاً وشعرت بالسرور من فكرة الصعود إلى حيث السلام والهدوء المتوفران في الضريح، ولأنها سترى حوري وتتحدث معه بحرية. لكن أدهشها قليلاً أنه عهد بهذه الرسالة إلى حبيبت... ورغم كراهية حبيبت وخبثها فقد أوصلت إليها الرسالة بأمانة.

قالت رينيسب في نفسها: ولماذا يجب أن أخاف من حبيبت في أي وقت؟ أنا أقوى منها.

حوري خرج إلى حقول الكتان من أجل حسابات ثوب مراجعتها هناك. ويحموس في المزرعة، فجميع الأعداء منقادا على كاهله. واحسرتاه على سوبك وأبي! ولدي الواسمين!

حاولت رينيسب إشغالة بسرعة: ألا يستطيع كاميني الاهتمام بالعمل؟

- كاميني؟ من هو كاميني؟ ليس لدي ابن بهذا الاسم.

- كاميني الكاتب، كاميني الذي سيكون زوجي.

حذق إنيتها وقال بدهشة: أنت يا رينيسب؟ تكنتك سوف تنزويجين حاي.

تهدت ولم تصف شيئاً. بدا من انفسوة محاولة إرضاعه إلى الحاضر، ورغم ذلك فقد نهض بعد لحظات وهدف فجأة: بالطبع، كاميني! لقد ذهب يعطي التعيينات للمراقب في المعصرة. ويجب أن أذهب وأنضم إليه.

مشى مبتعداً وهو يهمس لنفسه وقد استعاد سلوكه الأول، فشعرت رينيسب ببعض الأبهاج. ربما كانت هذه الغمامة التي خيمت على عقله مجرد أمر طارئ!

ونظرت رينيسب حولها، وأحست بشيء مشؤوم يكتنف هذا الضميت الذي يلف المنزل والقناة. كان الأطفال عند الجانب البعيد من البحيرة ولم تكن كبت معهم، وتساءلت رينيسب عن مكانها.

ثم خرجت حبيبت إلى الشرفة فنظرت حولها، ثم أتت وقد

الفصل الثالث والعشرون الشهر الثاني من فصل الصيف اليوم السابع عشر

-١-

جلست رينيسب عند مدخل الغرفة الصخرية تحديق إلى الليل واستغرقت في حلمها وخيالاتها. بدا لها كأن زمتاً طويلاً قد مضى منذ جلست هنا أول مرة بعد عودتها إلى منزل والدها... كان ذلك يوم أعلنت بمرح أن كل شيء كان على حاله وأن كل ما في المنزل هو تماماً كما كان عندما غادرته قبل ثمانية أعوام!

تذكرت الآن أن حوري أخبرها أنها هي نفسها لم تعد رينيسب التي ذهبت مع خاي، وتذكرت أنها أجابت بثقة بأنها سرعان ما ستصبح كذلك. ثم تحدثت حوري عن التغيرات التي تحدث من الداخل والعفن الذي لا يترك أية آثار ظاهرة.

عرفت الآن شيئاً مما كان يدور في عقله عندما قال تلك الكلمات؛ كان يحاول أن يعدها للأمر. لقد كانت واثقة جداً وعمياء.

ثم نهضت بفخر، وقد شعرت بالشباب والثقة والحيوية الغائفة.

-٤-

بعد أن سلمت حبيبت الرمالة إلى رينيسب عادت إلى مخزن الكتان مرة أخرى، وكانت تضحك سرّاً مع نفسها.

انحنى فوق كومة الملاءات المبعثرة وقالت لها بسرور: سوف نحتاج إليك مرة أخرى قريباً. أتسمعين يا آشابت؟ أنا السيدة هنا، وأنا أقول لك إن ملاءتك الكتانية سوف تحتضن جسداً آخر. ومن نظنين أن هذا الجسد سيكون؟ أنت لم تستطعي فعل أي شيء بشأن هذا الموضوع، أليس كذلك؟ أنت وشقيق أمك النومارتش حامي العدالة؟ أية عدالة يمكن لك تحقيقها في هذا العالم؟ أجيبيني عن ذلك.

بدت حركة من خلف رُزَم الكتان، واستدار رأس حبيبت نصف استدارة.

عندها ألقبت فوقها ملاءة عريضة من الكتان كتمت قمها وأنفها، ولقت يد لا ترحم الفماش حول جسمها عدة مرات وعصبتها كجثة حتى توقفت مقاومتها.

عادت رينيسب مرة أخرى، وإذا تزوجها كاميني فسوف يكون لأنها أرادت الزواج به لا لأن عائلتها رقت لذلك. كاميني بوجهه الواسع الضاحك، لقد أحبت، أليس كذلك؟ ولهذا فإنها ستتزوج.

في مثل هذه الساعة المسائية، وهنا قرب الضريح، يتجلى الوضوح والحقيقة... لا ارتباك ولا تشوش. لقد كانت رينيسب تمشي فوق العالم هادئة غير خائفة، إنها هي نفسها أخيراً.

أتم نفل هي نفسها مرة لحوري بأن عليها أن تنزل هذا الممر وحدها في الساعة التي توفيت فيها نوفريت، وأنها ينبغي أن تفعل ذلك بمفردها سواء كانت خائفة أو لا؟

حسناً، كانت تفعل ذلك الآن. كانت هذه تقريباً الساعة نفسها عندما انحنت هي وساتيني فوق جثة نوفريت، وكانت تقريباً الساعة نفسها حين نزلت ساتيني هي الأخرى عبر الممر ونظرت فجأة خلفها لكي ترى نهايتها وقدرها، وكان هذا هو المكان نفسه أيضاً. ما الذي سمعته ساتيني فجعلها تنظر فجأة؟ خطوات أقدام؟

خطوات أقدام؟ لكن رينيسب سمعت الآن صوت خطوات أقدام تلحق بها عبر الممر، خفق قلبها بحدة من الخوف، فقد كان صحيحاً إذن! كانت نوفريت خلفها تلحق بها!

اعتراها الخوف، لكن خطواتها لم تبطن من سرعتها، وفي الوقت ذاته لم تتسارع، لا بد أن تتغلب على خوفها طالما لم يكن في عقلها أي عمل شرير نندم عليه.

ثبتت نفسها واستجمعت شجاعتها وأدارت رأسها وهي لا تزال

تنقل بسهولة المظاهر الخارجية لعائلتها. واحتاج الأمر إلى قدوم نوفريت لكي تفتح عينها... أجل، قدوم نوفريت.

كان ذلك هو العامل الحاسم، ومع نوفريت جاء الموت.

سواء أكانت نوفريت شريرة أم لم تكن فإنها قد جلبت الشر معها بالتأكيد، وما زال الشر بين ظهرانيهم. ولآخر مرة حاولت رينيسب تصديق أن روح نوفريت هي التي سببت كل شيء. نوفريت الخبيثة الميتة... أم حينت الخبيثة الحية، حينت المحترقة الذليلة المتمتحة.

ارتجفت رينيسب وتقلقت، ثم نهضت. لم تعد تستطيع انتظار حوري أطول من ذلك، فقد كانت الشمس في طريقها إلى مغيبها. وتساءلت: لماذا لم يأت؟

نهضت ونظرت حولها، ثم بدأت تنزل عبر الممر إلى الوادي في الأسفل. وكان الجو هادئاً في مثل هذه الساعة، هادئاً وجميلاً. وفكرت: ما الذي أخر حوري؟ لو أنه أتى لكانا أمضيا هذه الساعة معاً على الأقل؛ فلن يكون هناك الكثير من هذه الساعات في المستقبل القريب حين تصبح زوجة كاميني...

هل كانت ستتزوج كاميني حقاً؟

وحررت رينيسب نفسها - وهي تشعر فجأة بنوع من الصدمة - من حالة الإذعان والكسل الذي سيطر عليها مدة طويلة، وشعرت بأنها نائمة أفاقت من حلم محموم. لقد كانت تحت تأثير ذلك الخوف السخيف وعدم الثقة فوافقت على كل شيء، عُرضَ عليها. لكنها الآن

كان هذا استجاءةً أخيراً، كان في نطقها لاسمه ذلك الحب الذي كانت تكنه لأخيها الأكبر. لكن نداءها كان بلا طائل؛ إذ ضحك يحموس ضحكة قصيرة وبقية شريفة سعيدة، ثم أسرع إلى الأمام ويداها الفاسيتان بمخالبها تلتويان كأنهما تتوقان لأن تمسكا بعنقها.

واستندت رئيسب إلى الصخرة ويداها ممتدتان في محاولة يائسة لكي تبعده، كان هذا هو الرعب... الموت. ثم سمعت صوتاً، صوتاً موسيقياً خافتاً ذا رنة... شيئاً يتز في الهواء.

توقف يحموس، تمايل، ثم انطرح على الأرض عند قدميها وهو يصرخ صرخة مرتفعة.

وحدقت إلى الأسفل كالبلهاء في نصل سهم يكسوه الريش، ثم نظرت إلى الحافة حيث كان يقف حوري والقوس ما زال على كتفه.

- ٢ -

- يحموس... يحموس!

كررت رئيسب الاسم وقد شلتها الصدمة فكأنها لا تستطيع أن تصدق الأمر.

كانت خارج الغرفة الصخرية الصغيرة وذراع حوري تلتف حولها، ولم تستطع أن تتذكر بوضوح كيف قادها عبر الممر. لم يكن بمقدورها إلا أن تكرر اسم أخيها بنبرة ذاهلة من الرعب والعجب،

٢٧٧

تمشي، ثم شعرت بموجة كبيرة من الارتياح؛ فقد كان يحموس هو الذي يلحق بها... ليست روح أحد الموتى بل أخاها... لا بد أنه كان مشغولاً في غرفة القرايين التابعة للمضريح وقد خرج عنها بعد أن مرت هي بها.

وقفت وهي تصرخ بسعادة: يحموس، أنا سعيدة لأنه أنت!

كان يفترب منها بسرعة، وكانت على وشك أن تبدأ بجملة جديدة تروي له فيها مخاوفها الغبية عندما تجمدت الكلمات فوق شفيتها... لم يكن هذا هو يحموس الذي تعرفه، الأخ اللطيف الحنون... كانت عيناه تلمعان بشدة وكان يلمع شفثيه الجافتين بلسانه، وكانت يداها محبتين قليلاً أمام جسمه وأصابعه منقوسة كالمخالب.

كان ينظر إليها وكانت نظرة عينيه واضحة تماماً، نظرة رجل مارس القتل من قبل ويوشك أن يقتل مرة أخرى... وكان في وجهه نوع من القسوة المتوهجة والرضا الشرير!

يحموس... العدو الذي لا يرحم هو يحموس! خلف فتاع الرقة والعطف الذي يلبسه هذا؟ كانت تظن أن أخاها يحبها، ولكن لم يكن في هذا الوجه الشرير المتوهج أي حب.

صرخت رئيسب صرخة خافتة يائسة، وأدركت أن هذا هو الموت. لم تكن تملك قوة تماثل قوة يحموس. هنا، حيث وقعت نوفريت، كان الممر ضيقاً، وسوف تقع هي الأخرى وتموت.

- يحموس!

٢٧٦

المرح والساحر بل أصبح متفاخراً أحمق مبذراً ضعيفاً، ولم يعد أبي طفلاً مدللاً وجذاباً بل أصبح صيباً خبيثاً أنانياً... وأخذ الحقد يظهر خلف ادعاء حبيبت الثغاني والإخلاص، وأظهرت ساتيبي نفسها كامرأة خائفة وجبانة... حتى إمحوتب نفسه انحط إلى طاغية متبجح مُنصاب.

حجبت رينيسب عينيها بيديها وقالت: أعرف ذلك، لا داعي لأن تخبرني. لقد كشفت هذه الأمور بنفسي شيئاً فشيئاً. لماذا تحدث مثل هذه الأمور؟ لماذا يحدث مثل هذا العفن الذي يأتي - كما تقول - من الداخل؟

هز حوري كتفيه وقال: من يعرف؟ ربما كان سبب ذلك أن النمو ينبغي أن يتم في كل الأحوال، فإن لم يتم المرء ليصبح أكثر لطفاً وحكمة وتوافقاً كان النمو في الاتجاه المعاكس بحيث تنمو المشاعر والنزعات الشريرة، وربما كانت الحياة التي عاشها هؤلاء حياة مغلقة جداً تدور حول ذاتها دون سعة أفق... وربما كان الأمر أشبه بأمراض المحاصيل: مرضاً معدياً يصيب الأول وينتقل إلى الآخرين.

- ولكن يحموس... يحموس بدأ دائماً كهده لم يتغير.

- نعم، وهذا هو أحد الأسباب التي دفعتني للشك يا رينيسب، لأن الآخرين كانوا يفسون عن مشاعرهم بأمزجتهم الحادة، أما يحموس فكان دائماً خنوعاً تسهل السيطرة عليه ولا يملك الشجاعة الكافية للتمرد. لقد أحب إمحوتب وعمل جاهداً لكي يرضيه واعتبره إمحوتب غيباً بليداً رغم نواياه الحسنة. كان يحتقره، وكانت ساتيبي أيضاً تعامل يحموس باحتقار وسيطرة... وشيئاً فشيئاً تنامي شعوره

وأخيراً قال حوري بلطف: نعم، يحموس، كان هو الفاعل، طوال الوقت.

- ولكن كيف؟ لماذا؟ وكيف يكون هو؟ لماذا؟ لقد نسجم هو أيضاً وكاد يموت!

- لا، لم يخاطر إلى هذا الحد؛ كان خبيراً في كمية الشراب التي شربها، لقد تناول كمية تكفي أن تجعله مريضاً، وقد بالغ في أعراضه وآلامه وعرف أن هذه الطريقة التي تبعد الشكوك عنه.

- ولكن من المستحيل أن يكون قد قتل أبي! كان ضعيفاً جداً بحيث لا يستطيع الوقوف على قدميه.

- كان هذا كذباً أيضاً. ألا تذكرين أن ميرسو قال إنه ما أن يزول السم فسوف يستعيد قوته بسرعة؟ وهذا ما حصل بالفعل.

- ولكن لماذا يا حوري؟ هذا ما لا أفهمه... لماذا؟

نهتد حوري وقال: ألا تذكرين - يا رينيسب - أنني حدثتك ذات مرة عن العفن الذي يأتي من الداخل؟

- أذكر، كنت أفكر في الموضوع هذا المساء.

- قلت مرة إن قدوم نوفريت جلب معه الشر. لم يكن ذلك صحيحاً؛ فقد كان الشر موجوداً بالأساس مخفياً في قلوب أفراد العائلة، وكل ما فعله قدوم نوفريت هو أنه أخرجه من مخبئه إلى النور، لقد أزع وجودها أمتار؛ فتحولت امرأة كبت الرقيقة إلى أنانية قاسية لا ترى إلا نفسها وأولادها، ولم يعد سوبك ذلك الشاب

Chassey

يحدث، وبقيت ساتيني هناك خائفة لا تعرف ما الذي ستفعله، ثم رأتك تأنين وحاولت إبعادك.

- متى عرفت هذا كله يا حوري؟

- لقد حسنتُ ذلك مبكراً تماماً. كان تصرف ساتيني هو الذي أخبرني؛ كانت تتجول وهي تشعر بخوف واضح مميت من شخص ما أو شيء ما، وقد أصبحت مقتنعة بعد فترة بسيطة أن الذي كانت تخشاه هو يحموس. لقد توقفت عن معاملته بصورة سيئة وأصبحت - بدلاً من ذلك - متلهفة على طاعته بكل طريقة ممكنة. كان الأمر - كما ترين - صدمة قاسية عليها؛ فيحموس الذي كانت تحتقره لأنه أكثر الرجال ختوعاً هو الذي قتل نوفريت حقاً. لقد قلب عالم ساتيني رأساً على عقب، وكانت جبانة كمعظم النساء المشلغطات. لقد أخافها يحموس الجديد هذا، ومن خوفها بدأت بالحديث في نومها، وسرعان ما أدرك يحموس أنها أصبحت مصدر خطر عليه.

والآن - يا رينيسب - يمكنك أن تدركي حقيقة ما رأيته ذلك اليوم بأم عينك؛ فلم تكن روحاً تلك التي رأتها ساتيني وأدت إلى وقوعها. لقد رأت ما رأيته أنت اليوم؛ رأت في وجه الرجل الذي لحق بها، زوجها، نية رميها كما رمى المرأة الأخرى. ومن خوفها ابتعدت عنه فوقعت، وحين لفظت من بين شفثتها المحنضرتين اسم نوفريت كانت تحاول أن تخبرك بأن يحموس قتل نوفريت!

سكت حوري ثم تابع: إذا عرفت الحقيقة بسبب ملاحظة لا علاقة لها قط قائتها حينئذ؛ فقد تدمرت حينئذ لأنني لا أنظر إليها بل كأنني أرى شيئاً خلفها، شيئاً غير موجود... ثم انتقلت إلى

بالاستياء الذي كان يخفيه، لكنه كان يشعر به. وكلما ازداد تظاهره بالخضوع ازداد غضبه المستعبر في داخله. وبعد ذلك أنت نوفريت في الوقت الذي كان يحموس يأمل أن يقطف - أخيراً - ثمرة كده واجتهاده ويشارك والده في أملاكه. وكانت نوفريت، وربما جمالها، هو الذي أطلق الشرارة الأخيرة. لقد هاجمت الرجال الثلاثة في رجولتهم؛ فجرحت مشاعر سوبك باحتقاره ووصفه بالغبى، وأثارت غضب أبيي بمعاملته كطفل شرس ليس فيه شيء من الرجولة، وأرت يحموس أنه شيء أقل من رجل في نظرها! ولم يفقد يحموس احتمالته للسان ساتيني إلا بعد أن جاءت نوفريت، وقد كانت سخرينتها وتوبيخها وزعمها أنها رجل أكثر منه هو الذي جعل سيطرته على نفسه تفلت أخيراً، ثم التقى بنوفريت في هذا الممر وقد فقد سيطرته على نفسه فدفعها إلى الأسفل.

- ولكن ساتيني هي التي...

- لا، لا يا رينيسب. هذا هو ما أخطأتم جميعكم به؛ فساتيني رأت فقط ما حصل من الأسفل. هل فهمت الآن يا رينيسب؟

- لكن يحموس كان معك في المزرعة؟

- نعم، حتى اللحظة الأخيرة، ولكنك لا تدركين يا رينيسب أن جثة نوفريت كانت باردة. لقد جسست خدها بنفسك، وكنت نظنين أنها سقطت قبل بضع دقائق، لكن ذلك كان مستحيلاً. كانت قد ماتت منذ ساعتين على الأقل، وإلا فإن وجهها المعرض للشمس الحارقة لم يكن ليبدو بارداً عندما لمسته. لقد رأت ساتيني الأمر وهو

الحديث عن ساتيبي. وبومضة أدركت إيزا أن الأمر كله كان أسهل مما ظننا؛ لم تنظر ساتيبي إلى شيء خلف يحموس... كان يحموس ذاته هو الذي رآته.

ولكني تجرب فكرتها قدمت الموضوع بطريقة عشوائية بحيث لا تعني لأي شخص شيئاً إلا يحموس نفسه إن صحت شكوكها. وقد أدهشته كلماتها وظهر عليه رد فعل فوري كان كافياً لتأكد إيزا من حقيقة شكوكها، لكن يحموس عرف آنذاك أنها تشك وعلم أن مجرد إثارة الشكوك من شأنه أن يوصل إلى تفسير كل الأمور بشكل جيد، وحتى القصة التي رواها الراعي... صبي متفاني في خدمته قد يفعل أي شيء يطلبه سيده يحموس، بما في ذلك تناول دواء في تلك الليلة ضمين أنه لن يستيقظ بعده قط.

- آه يا حوري! صعب أن أصدق أن يحموس فعل كل ذلك بالنسبة لقتل نوفريت... أجل، أستطيع أن أفهم، ولكن لماذا تلك الجرائم الأخرى؟

- من الصعب أن أوضح لك يا رينيسب، لكن القلب إذا انفتح للشرف فإن الشر يزدهر فيه مثل زهر الخشخاش بين الذرة. ربما كان يحموس يتوق إلى العنف الذي لم يكن قادراً على تحقيقه طوال حياته. كان يحترق دوره المتميز بالخضوع والخنوع، وأظن أن قتله نوفريت أعطاه شعوراً كبيراً بالقوة. لقد أدرك ذلك أول مرة يتحول ساتيبي التي كانت تسيء معاملته فأصبحت خاضعة مذعورة... كل المظالم التي دفنها في قلبه مدة طويلة رقت رؤوسها مثلما رقت تلك الأفعى رأسها في الممر ذات يوم. وكان سوبك وآبي، الأول

أوسم منه والثاني أذكي منه، فكان لا بد أن يذهبها كان هو، يحموس، هو من يُفترض أن يحكم البيت وأن يكون المصدر الوحيد الباقى لراحة أبيه. وزاد موت ساتيبي من استمتاعه بالقتل وشعر بازدياد قوته نتيجة ذلك، وبدأ عقله يذوي واستحوذ عليه الشر كلياً.

أنت لم تكوني خصماً له يا رينيسب. كان يحموس يحبك ما دام يستطيع فعل ذلك، لكنه لم يكن ليتقبل فكرة أن زوجك سوف يشاركه في الممتلكات. أظن أن إيزا وافقت على اقتراح قبول كاميني ورأسها فكرتان: الأولى أن يحموس إذا ضرب ضربه مرة أخرى فسوف تكون موجهة إلى كاميني أكثر منك، وفي أية حال فقد كانت إيزا على ثقة من أنني سأهتم بسلامتك. أما الفكرة الثانية (ولأن إيزا كانت شجاعة) فقد أرادت أن تدفع الأمور إلى نهايتها، حيث يمكن الإمساك ببحموس بالجرم المشهود إذ كنت أراقبه وهو لا يدري أنني أشك به.

- كما أمسكت به الآن. آه يا حوري! لقد كنت خائفة جداً عندما استدرت فرايته!

- أعلم يا رينيسب، ولكن لم يكن بد من ذلك. ما دمت أنا قد بقيت إلى جانب يحموس فسوف تكونين آمنة، ولكن هذا لم يكن ليستمر طويلاً. عرفت أنه إذا سنحت له الفرصة ليلقي بك من الممر في الوقت نفسه فإنه سوف ينتهزها، وسوف يحني التفسير الخرافي للوقفيات التي حصلت.

- إذن فالرسالة التي جاءني بها حينئذ لم تكن منك؟

الذي كان يترامخ خفية في صدر ابنتها الرقيق الخانع وعشيت أن يظهر
ويثور ذات يوم.

تهدت رينيسب وقالت: ألا يوجد أحدٌ ظاهره كباطنه؟

ابنسم حوري وقال: بلى، أحياناً. كاميني وأنا يا رينيسب...
أظن أن كلينا كما نظنين، كاميني وأنا.

قال كلمته الأخيرة بتركيز، وأدركت - فجأةً - أنها تقف عند
منعطف الاختيار لحياتها. وتابع حوري: كلانا يحبك يا رينيسب،
يجب أن تعرفي ذلك.

- لكنك سمحت بإعداد ترتيبات زواجي رغم ذلك ولم تقل
شيئاً، ولا كلمة!

- كان صمتي لحسائتك، وإيها كانت تراودها الفكرة نفسها.
كان يجب أن أبقي بعيداً غير مهتم حتى أستطيع مراقبة يحموس عن
قرب ولا أثير عداه... يجب أن تفهمي يا رينيسب (وقالها حوري
بمحبة) أن يحموس كان صديقي لسنوات عديدة. كنت أحبه، وقد
حاولت أن أدفع والدك لأن يعطيه المتزلة والسلطة اللتين يريدتهما
ففشلت، ثم جاء ذلك متأخراً. ورغم أنني كنت مقتنعاً في قلبي بأن
يحموس هو الذي قتل توفريت فقد حاولت ألا أصدق ذلك، فأخذت
أختلق له الأعذار. كان يحموس، صديقي العزيز المعذب، عزيزاً
على قلبي! ثم جاءت وفاة سويك ثم أبي، وأخيراً إيها... وعلمت
وقتها أن الشر في يحموس قد غلب الخير أخيراً، وهكذا فقد لاقى
يحموس مصرعه على يدي، وكانت ميتة سريعة غير مؤلمة تقريباً.

مز حوري رأسه فانلاً: أنا لم أرسل لك أية رسالة.

- ولكن لماذا حبيت؟

توقفت رينيسب وهزت رأسها وقالت: لا أفهم دور حبيت
في كل هذا.

فكر حوري ثم قال: لعل حبيت تعرف الحقيقة، وقد أوشكت
أن تخبره بذلك هذا الصباح. وهذا أمر خطير، وقد استخدمها كي
تغريك بالصعود هنا، وهو أمر تفعله بكل سرور ما دامت تكرهك
يا رينيسب.

- نعم، أعلم.

- بعد ذلك، إني لأعجب! كانت حبيت تظن أن معرفتها
ستمسحها القوة، ولكنني لا أظن أن يحموس كان سيتركها تعيش
طويلاً. بل ربما كان الآن...

ارتجفت رينيسب وقالت: لقد جن يحموس! استحوذت عليه
الأرواح الشريرة. لكنه لم يكن دائماً هكذا.

- نعم، ورغم ذلك فأنت تذكرين - يا رينيسب - أنني أخبرتك
بقصة سويك ويحموس وهما طفلان. وكيف أن سويك ضرب رأس
يحموس بالأرض وكيف أنت والدتك شاحبة خائفة وقالت لسويك:
إن هذا خطير! أظنها - يا رينيسب - كانت تعني أن فعل هذا الأمر
يحموس أمر خطير. تذكرني كيف مرض سويك في اليوم التالي
فظنوا أنه تسمم غذائي؟ أظن أن أمك كانت تعلم بالغضب الغريب

- الموت .. دائماً الموت!

- لا يا رينيسب؛ ليس الموت هو ما تواجهين اليوم، بل الحياة. فمع من مشتركين في هذه الحياة؟ مع كاميني أم معي؟

حدقت رينيسب أمامها إلى الوادي في الأسفل وخط النيل الفضي، وبرزت أمامها ويوضح تام صورة كاميني الضاحك كما كان يجلس في القارب في ذلك اليوم وسيماً قوياً مرحاً. ومرة أخرى شعرت بتسارع الخفقان والنشاط في دمه.

لقد أحبت كاميني في تلك اللحظة، وقد أحبه الآن، يستطيع كاميني أن يحتل مكان خاي في حياتها. فكرت: سوف تكون سعيدين معاً، نعم؛ سوف تكون سعيدين. سوف تعيش معاً وتستمع وتنجب أبناء أقوياء وسيمين، وسوف تكون أيام مليئة بالعمل وأيام مملوءة بالسرور عندما ينحدر عبر النهر، وتعود الحياة مثلما كانت مع خاي... ماذا أطلب أكثر من هذا؟

وببطء، يبطء شديد، دارت نحو حوري كأنما تسأله سؤالاً صامتاً. وكأنه قد فهم هو أيضاً، فأجابها: لقد أحبتك وأنت طفلة، أحبت وجهك الهادئ والثقة التي كنت تأتيين إلي بها تطلعين مني أن أصلح ذمالك المكسورة، ثم بعد ثمانية أعوام من الغياب عدت مرة أخرى وجلست هنا وأثبنتي بالأفكار التي كانت تدور في ذهنك. إن عقلك ليس مثل بقية أفراد عائلتك يا رينيسب؛ إنه عقل لا يدور حول نفسه ضمن أطر ضيقة. عقلك مثل عقلي، ينظر إلى ما وراء النهر، يرى العالم المتغير وأفكاره الجديدة، يرى عالماً كل ما فيه ممكن لأولئك الذين يتحلون بالشجاعة ووضوح الرؤية.

- أعلم يا حوري، أعلم. لقد شعرت بهذه الأشياء معك، لكن ليس طوال الوقت. سوف تكون أوقات لا أستطيع اللحاق بك وأكون وحدي!

ثم سكتت وقد عمّرت عن نطق الكلمات التي تعبر عن أفكارها المتصارعة. لم تعرف رينيسب كيف ستكون الحياة مع حوري، فهو - رغم رفته وحيه - سيبقى من بعض النواحي إنساناً لا يُسّر غوره ولا يمكن فهمه. سوف يتقاسمان معاً لحظات من الجمال والغنى، ولكن ماذا عن حياتهما اليومية المشتركة؟

مدت يدها نحوه فجأة وقالت: آه يا حوري، قرر لي... أخبرني ماذا أصنع!

ابتسم لها، للطفلة رينيسب التي تتحدث، ربما للمرة الأخيرة. لكنه لم يأخذ يديها بل قال: لا يمكنني أن أخبرك ماذا تفعلين بحياتك. إنها حياتك أنت، وأنت وحدك التي تقررين.

أدركت رينيسب - عندها - أنه ليس هناك مساعدة وليس هناك استشارة لعواطفها من شأنها التسريع باتخاذ القرار كما فعل كاميني معها.

وفجأة فرض الخيار نفسه عليها بأسهل الشروط: إما الحياة السهلة أو الصعبة.

كانت تتعرض لاغراء لكي تستدير وتنزل عبر العمر الملتف إلى الحياة السعيدة التي كانت تعرفها والتي جربتها من قبل مع خاي؛

حيث الأمان وتقاسم الممرات والأحزان اليومية دون خوف إلا من
الشيخوخة والموت.

الموت...

ها قد دارت من أفكار الحياة في دورة كاملة حتى وصلت ثانية
إلى الموت. لقد ماتت خاي، وكاميني أيضاً ربما يموت، وسوف
تختفي صورته - مثل وجه خاي - من ذاكرتها. نظرت آنذاك إلى
حوري وهو يقف يهدوه إلى جانبها، وفكرت أن من الغريب ألا
تعرف كيف يبدو حوري تماماً؟ لم تكن بحاجة أن تعرف.

ثم تكلمت، وكانت تبرة صوتها كثيرته يوم أعلنت منذ زمن
طويل أنها ستمشي وحدها في ذلك الممر عند غروب الشمس؛ لقد
اخترت يا حوري؟ سوف أمضي حياتي معك في السراء والضراء
حتى يأتينا الموت.

وشعرت بالبهجة وحلاوة الحياة وذراعاها تلصقان حولها وعذوبة
مناجاة جديدة تعلو وجهه، وفكرت: لو أن حوري مات فلن أنساه؟
إنه أغنية في قلبي للأبد، وهذا يعني أن لا مزيد من الموت.

* * *

www.liilas.com
Chassey